رواية

ألكس ميكايليديس

مؤلف رائعة المريضة الصامتة

البُتُل

كلنا نحتفظ بأسرار نكتمها حتى عن أنفسنا

مكتبة

المركز الثقافي العربي

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

ألكس ميكايليديس

البُتُل

الكتاب

البُتُّل

تأليف

ألكس ميكايليديس

ترجمة

أنس غ. الغريب

الطبعة

الأولى، 2024

الإيداع القانوني:

2024MO1648

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9920-657-79-2

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

العنوان الأصلي للرواية:

Alex Michaelides

The Maidens

© Alex Michaelides, 2021

All rights reserved

مكتبة

t.me/soramnqraa

8 I 2025

ألكس ميكايليديس

مكتبة
t.me/soramnqraa

البُتُل

رواية

ترجمة: أنس غ. الغريب

المركز الثقافي العربي

إلى صوفي حنّة،
لإعطائي جرأة قناعاتي

حدّثني عن قصص حبّك البِكر –
عن آمال أبريل، وحمقى الحظّ؛
إلى أن يقوم سكّان القبورْ،
ويشرعوا في الرّقص بحُبورْ.

ـــ ألفريد لورد تنيسون، **رؤية الخطيئة**

توطئة

مكتبة
t.me/soramnqraa

إن إدوارد فوشكا قاتلٌ.

كانت هذه حقيقةً فعليّةً. لم تكن ماريانا تعلم ذلك على مستوى فكريّ فحسب، كفكرة مجرّدة، بل كان جسدها يعلم ذلك، إذ أحسّت به في عظامها، وفي مجرى دمها، وعميقاً في كل خلية من جسدها.

إن إدوارد فوشكا مذنِبٌ.

إلا أنها رغم ذلك، لم تستطع إثبات الأمر، وقد لن تفلح في ذلك أبداً. هذا الرجل، هذا الوحش، الذي قتل شخصَين على الأقل، قد ينتهي به المطاف حرّاً طليقاً على الأرجح.

كم كان متعجرفاً، معتدّاً بنفسه. **يظن أنه أفلتَ بفعلته**، قالت في سرّها. **يظن أنه انتصر**.

لكنه لم يفعل. ليس بعد.

كانت ماريانا عازمة على التفوق عليه وإثبات أنها الأذكى. وجب عليها فعل ذلك.

ستقضي الليل جالسة، وستتذكر كلّ ما جرى. ستجلس هنا، في هذه الغرفة الصغيرة المظلمة بكامبريدج، وتفكر وتحاول فكّ هذا

اللغز. حدّقت في المدفأة الكهربائية المتوهجة، الملتهبة في قلب الظلام، وانغمست في حالة من اليقظة الحادة.

ستعود بذهنها حيث البداية، وستتذكّر كل شيء، كل تفصيل صغير.

وستقبض عليه.

الجزء الأول

«لم يخبرني أحد بأن الحزن شعورٌ أقربُ إلى الخوف».

ـــ سي. إس. لويس، من كتابه **حزنٌ مَلحوظٌ**

1

كانت ماريانا في لندن قبل بضعة أيام.

كانت جاثيةً على ركبتيها على الأرض، تحيط بها علبٌ كرتونيّةٌ، بصدد دفع نفسها دفعاً نحو محاولةٍ جديدةٍ - ولو أن الأمر ثقيل جدّاً على قلبها - لترتيب أغراض سيباستيان.

ولم يكن الأمر يمضي على نحوٍ جيّدٍ.

لقد انقضت سنةٌ كاملةٌ على وفاته، لكن معظم أغراضه ما زالت منتشرةً بأرجاء البيت على شكل أكوامٍ عديدةٍ هنا وهناك وكذا داخل عُلبٍ نصفِ مملوءةٍ.

بدت ماريانا عاجزةً عن إتمام المهمة.

إنها ما تزال مغرمةً به: تلك هي المشكلة.

ورغم أنها تعلم عِلمَ اليقين استحالةَ رؤية سيباستيان مجدداً - رغم أنه رحل إلى الأبد دون رجعةٍ - فهي ما تزال مغرمةً به. لم تكن تعلم ما يجب فعله بخصوص هذه المشاعر الفيّاضة بداخلها. كانت حُبلى بها وإلى حدٍّ فوضويٍّ: تكاد تفيض، تنسكب خارجها، كما لو كانت دميةً قماشيةً رثّةً، تتداعى أطرافُها عند الدُّرُوز.

لو أن بإمكانها حبسَ حبِّها له داخل إحدى تلك العلب، بالطريقة

ذاتها التي تحاول فِعل ذلك مع أغراضه. كم كانت رؤيةً مثيرةً للشفقة: أن تُختزَل حياةُ رجلٍ في مجموعة أغراضٍ أعرض عنها الجميع، أغراض ستعرضها للبيع في سوق الأشياء المستعملةِ والمتلاشِيات.

مدت ماريانا ذراعها نحو أقرب علبةٍ وأخرجت منها حذاءً. حدّقت فيه مليّاً: إنه حذاؤه الرياضي القديم الأخضرُ الذي كان ينتعله للجري على الشاطئ؛ كان منظرُه يوحي بأنه ما زال مُخَضَّلاً شيئاً ما، مع حبات الرّمل الملتصقة ببطنه.

تخلصي منه! قالت في سرها. **ارميه في سلة النفايات. هيّا، افعلي ذلك!**

وحتى حين قالت ذلك، كانت تعلم أنها تواجه الاستحالةَ بعينِها. فذلك لم يكن هو، لم يكن سيباستيان - لم يكن الرّجلَ الذي أحبّته وستحبُّه إلى الأبد - بل كان مجردَ حذاءٍ بالٍ. ورغم ذلك، فإن الإقدام على فراقه سيكون أشبهَ بفِعل إيذاءٍ ذاتيٍّ، كما لو أنها تضغط بسكين على ذراعها وتقتطع منها جزءاً.

عوض ذلك، أخذت الحذاء وضمّته إلى صدرها. شدّته بقوّةٍ أكبر، وتمايلت يمنةً ويسرةً وهي تُهدهِده، كما لو كان رضيعاً بين ذراعيها.

ثم انهمرت دموعها.

كيف انتهى بها المطاف إلى ما آلت إليه؟

في غضون سنةٍ واحدةٍ فقط، أي المدّة التي كانت تمضي في العادة دون أن تَلحَظ مرورَها تقريباً وصارت الآن ممتدةً خلفها كأرضٍ جرداءَ مرّ عليها إعصارٌ مدمّرٌ، مُحيت الحياة التي كانت تعرفها تماماً، تاركةً ماريانا هنا: في سن السادسة والثلاثين، وحيدةً،

سَكرى ذاتَ مساءِ أحدٍ. . . متشبّثةً بحذاءٍ قديمٍ لشخص ميّتٍ كما لو كان قطعةً أثريّةً مقدّسةً؛ والحال أنه، بطريقةٍ ما، كان كذلك بالفعل.

إن شيئاً جميلاً، شيئاً مقدّساً، قد مات. كل ما بقي هو الكتبُ التي قرأها، الملابسُ التي ارتداها، والأشياءُ التي لمسها. ما زال بمقدورها شمُّ رائحة سيباستيان على الأشياء من حولها، وما زال مذاقه على طرف لسانها.

لهذا السبب كانت عاجزةً عن التخلص من ممتلكاته - فعبر التشبثّ بها، كان بمقدورها إبقاء سيباستيان حياً، على نحوٍ ما، ولو لبعض الوقت - فإن رمتها، كانت ستفقده تماماً.

في الآونة الأخيرة، بدافع فضولٍ مرضيٍّ وفي محاولة لفهم ما كانت تصارعه، أعادت ماريانا قراءة كل ما كتبه فرويد عن الحزن والفقد. ويجادل فرويد أنه بعد وفاة شخصٍ قريبٍ نحبّه، يجب علينا تقبّل الفَقد على المستوى السيكولوجي والتخلي عن ذلك الشخص، أي السماح له بالرحيل عن عالمنا، وإلّا سنضع أنفسنا عرضة للحِداد المرضيّ الذي سمّاه الميلانخوليا، ونُسمّيه الاكتئاب.

كانت ماريانا تعي ذلك جيّداً. كانت تعلم أنه يجب عليها السماح لسيباستيان بالرحيل، لكنها لا تستطيع: لأنها ما تزال مغرمة به. إنها تحبه بكل جوارحها، رغم أنه رحل إلى الأبد، رحل خلف الحجاب - «**خلف الحجاب، خلف الحجاب**» - من كان القائل يا ترى؟ لعلّهُ تنيسون[1]، على الأرجح.

---

(1) ألفريد تنيسون Alfred Tennyson (1809-1892): شاعر إنجليزي من أبرز شعراء القرن التاسع عشر، عُيّن شاعراً للبلاط عام 1850. من أشهر أعماله قصيدة **في ذكرى أ. هـ. هـ.**، آخر سطر منها هو الوارد في النص: «Behind the veil, behind the veil.» - المترجم.

خلف الحِجاب.

كان هذا شعورَها بالضبط. فمنذ وفاة سيباستيان، ما عادت قادرةً على إبصار العالم بالألوان. صارت الحياة بكماء ورماديةً، وبعيدةً جدّاً، خلف حجابٍ... خلف رذاذٍ من الأسى يَغشى بصرَها.

ما عادت تحظى بحياةٍ كاملةٍ، بل مجردُ نصفِ حياةٍ لا أكثر، وهذا كل ما كانت تستطيع التعايش معه: نصف حياة. كانت تريد أن تتحاشى العالم، بكل ضجيجه وألمه، وتَتَقَوقَع على نفسها هنا، داخل عملها، وفي هذا البيت الأصفر الصغير.

وكانت لتبقى هنا، لولا أن زُوِي اتصلت بها من كامبريدج في إحدى ليالي أكتوبر الماضي.

اتصالُ زوي بعد نهاية لقاءِ مجموعة مساء الاثنين - هكذا ابتدأ كل شيء.

هكذا ابتدأ الكابوسُ.

2

مكتبة
t.me/soramnqraa

اجتمع أعضاء مجموعة مساء الاثنين في غرفة المعيشة، بالجزء الأمامي لمنزل ماريانا.

كانت غرفةً شاسعةً بما يكفي، تم تخصيصها لاستعمالاتٍ علاجيةٍ بُعيد انتقال ماريانا وسيباستيان إلى المنزل الأصفر.

كانا مولعَين بهذا البيت كثيراً؛ يقع عند سفح تَلٍّ بريمروز هيل بشمال غرب لندن، وقد كان مدهوناً باللون الأصفر الفاتح ذاته لزهرةِ الربيع عديمةِ الساق التي يحمل التلُّ اسمَها والتي تنمو عليه خلال فصل الصيف. كانت نباتاتُ صَرِيمة الجَدي تزحفُ متسلِّقَةً أحدَ الجدران الخارجية، تُغطيه بأزهارٍ بيضاء يتسلّل عَبَقُها خلال أشهر الصيف عبر النوافذ إلى داخل البيت ويطفو مسافراً فوق السلالم، ويتشبّثُ أريجها بذرَّاتِ الهواء ليظلّ مخيّماً بالأروقة وداخل الغرف.

كان الجو مساءَ الاثنين ذاك - خلافاً لما يكون عليه الأمر في ذاك الوقت من السنة - دافئاً للغاية، فرغم أن شهر أكتوبر كان قد بدأ، إلا أن الصيف الهندي واصل امتدادَه، كضيفٍ ثقيلٍ عنيدٍ يرفض تقبّل إشارات أوراق الأشجار الذاوية والميّتة بأن وقت رحيله قد أزِفَ. تدفقت أشعة شمس ما بعد الظهيرة إلى الغرفة الأمامية، لتَنقع

المكان في ضوءٍ ذهبيّ مُخضَّبٍ بالحُمرة. قبل الحصة، أسدلت ماريانا الستائر، لكنها تركت النوافذ مفتوحة بضعة إنشات لتضمن وجود تهويةٍ جيّدةٍ بالمكان.

ثمّ أعدّت الكراسي ووضعتها على شكل دائري.

تسعةُ كراسي: كرسيٌّ لكلِّ فردٍ من المجموعة، وكرسيٌّ لماريانا. نظرياً، كان يجب أن تكون الكراسي متشابهةً، لكن الحياة الفعلية لم تمضِ على ذلك المنوال. فرغم قصدها النّبيل، إلا أنها جمعت على مدى السنوات تشكيلة كراسيٍّ ذات مساند للذراعين متباينة الأشكال والأحجام. ولعل نهجَها المتساهل فيما يتعلق بأمر تلك الكراسي مثالٌ نموذجيٌّ للطريقة التي تُدير بها مجموعات العلاج، إذ كان منهجُ ماريانا غير رسميٍّ، بل أبعدَ ما يكون عن التقليدي.

كان العلاجُ، وخصوصاً العلاجُ الجماعيُّ، اختيارَ وظيفةٍ يجسّد سخرية القدر بالنسبة إلى ماريانا، فلطالما تملّكتها مشاعرٌ متضاربةٌ فيما يخص المجموعات - بل إنها كانت متوجّسةً منها - منذ نعومة أظافرها.

نشأت ماريانا في اليونان، بضواحي أثينا. كانوا يقطنون ببيتٍ عتيقٍ خَرِبٍ، فوق تلٍّ يَعلوه غطاءٌ أسودُ وأخضرُ من أوراق الزيتون. أثناء طفولتها، كانت تجلس على الأرجوحة الصّدِئة بالحديقة وتتأمّل المدينة الأثرية بالأسفل الممتدة حتى أعمدة البارثينون الواقعة أعلى تلٍّ آخرَ بعيدٍ. بدت المدينةُ شاسعةً، لانهائيّةً؛ شعرت ماريانا بأنها ضئيلةٌ تافهةٌ، ونظرت إلى الأمر بتوجّسٍ وتَطَيُّرٍ، كما لو كان نذيرَ شُؤمٍ.

أثناء مرافقتها لمدبّرة المنزل إلى السوق المكتظة بقلب أثينا من

أجل التبضّع، كان التوتّر يراودها دوماً: كانت تكره الزحام والتدافع والصراخ، ويغمرها شعورٌ بالارتياح - وبعض الدهشة - لدى عودتها إلى البيت سالمةً غانمةً. واستمر شعورها بالرّهبةِ من المجموعات الكبيرةِ حين كبرت. في المدرسة، وجدت نفسها على الهامش، تشعر كما لو أنها لا تتجانس مع رفقائها ورفيقاتها من الفصل، وصَعُب عليها التّخلّصُ من شعور عدم الانتماء ذاك. وسنواتٌ بعد ذلك، خلال جلسات العلاج، فهمت أخيراً أن ساحةَ المدرسة لا تعدو كونَها عالَماً مصغّراً للعائلة، ما عنى أن شعورَ القلقِ والاضطرابِ لم يكن مردُّه إلى الزّمانِ والمكانِ حيث كانت - لم يكن متعلقاً بساحة المدرسة في حد ذاتها، أو السوق بأثينا، أو أي مجموعةٍ أو حشدٍ من النّاس قد تجد نفسها بينهم - بل إن مردَّه إلى العائلةِ التي ترعرعت فيها، والبيتِ الموحشِ الذي كبرت فيه.

كان منزلُهم بارداً على الدّوام، ولو أنه كان يقع تحت شمس اليونان الساطعة، كما كان به دوماً شعور محسوسٌ بالخَواء: غيابٌ للدّفء الجسديّ والعاطفيّ. وكان ذلك راجعاً بنسبةٍ كبيرةٍ إلى والد ماريانا الذي وإن كان رجلاً استثنائيّاً على عدة صعد - وسيماً، ذا نفوذٍ وذكاءٍ حادٍّ - إلا أنه كان بالِغَ التعقيدِ أيضاً. وقد افترضت ماريانا أن ضرراً جسيماً لا يمكن إصلاحُه قد وقع به خلال طفولته. لم تلتق قَطُّ بوالدَيه - جَدَّيها - ونادراً ما كان يتحدث عنهما. كان والدُه بحّاراً، أما والدتُه فكلما قَلَّ حديثُه عنها، كان ذلك أفضل. كانت «تعمل بالميناء»، قال يوماً بنظرةِ عارٍ وخِزيٍ على وجهه، ففكّرت ماريانا أنها كانت على الأرجح بائعةَ هوى.

نشأ والدُها في الأحياء الفقيرة على مَقربةٍ من ميناء بيرايوس، وبدأ العمل على ظهر السّفن في صباه، ثم ولج تجارة واستيراد

القهوة والحِنطة بالإضافة إلى - تخيّلت ماريانا - أمورٍ أخرى أقل مذاقاً. وحين بلغ الخامسة والعشرين، كان يملك قاربه الخاص، ثم شرع في بناء تجارته من تلك النقطة. وعبر تَوليفةٍ من الضرواة وبَذْلِ العرق والدماء، بنى لنفسه إمبراطوريّةً صغيرةً.

كان أشبه بملِكٍ - فكرت ماريانا - أو طاغيةٍ. ولم تكتشف إلا لاحقاً أنه كان رجلاً بالغَ الثّراء، وهو أمر لم يكن يوحي به البتّةَ ذاك البيتُ الإسْبَرطيُّ المتقشّفُ الذي كانوا يعيشون فيه. ربما كانت والدتها - والدتها الإنجليزية الرقيقة المرهفة - لتُفلح في تليينه شيئاً ما. . . لو أنها بقيت على قيد الحياة. لكنها ماتت في سنٍّ مبكِّرة، بُعَيد ولادة ماريانا.

نشأت الطفلة ماريانا مع وعيٍ حادٍّ ومُؤلمٍ بذاكَ الفَقد. وكونها معالِجةً، فهي تعلم أن أول إدراكٍ للطفل بذاته يأتي عبر نظرة والديه إليه. فنحن نولد حين يتم النظر إلينا: تعابير والدَينا وما نراه منعكساً على مرآة أعينهما، هذا ما يحدّدُ نظرتنا إلى أنفسنا. لكن ماريانا كانت قد فقدت نظرةَ والدتها، أما والدها، فكان يجد صعوبةً في النظر إليها مباشرةً، وغالباً ما كان يثبّت نظره أعلى كتفها حين يخاطبها، فكانت ماريانا تعدّل وضعيّتَها، وتتحرّك، وتُغيِّر مكانَها لتصير في مرمى بصره، آمِلةً أن تُرى، لكنها ظلّتْ دائماً مُهمّشةً على نحوٍ ما.

خلال المراتِ النادرةِ التي كانت تتلاقى نظراتُهما، كانت ترى ازدراءً كبيراً، خيبةَ أملٍ عارمةٍ. أخبرتها عيناهُ بالحقيقة: لم تكن جيدة بما يكفي. مهما حاولت جادّةً، كانت تشعر دوماً بأنها مُقصِّرة، بأنها أقل من المطلوب، لا تفلح إلا في قولِ أو القيام بالشيء الخطأ؛ كان مجرد وجودِها يُضجِره ويُثير سَخَطه. كان دوماً على

طرفٍ نقيضٍ منها، مهما فعلت. يلعب دور بيتروشيو[1] مع كيت: إذا قالت إن الجو باردٌ، قال إنه حارٌّ؛ وإذا قالت إن الشمس ساطعةٌ، أصرّ على أنها تمطر. لكن رغم انتقاده وضِدِّيّته، إلا أن ماريانا كانت تحبه. كان كلّ ما لديها وكانت تتوق لأن تحظى بحبّه.

لم تحظَ في طفولتها إلّا بالقليل من الحب. كانت لها أختٌ كبرى، لكنهما لم تكونا مقرّبتين. كانت إليزا تكبرها بسبع سنوات، ولم يكن لديها أدنى اهتمام بشقيقتها الصغرى الخجولة. لذا كانت ماريانا تُمضي شهور الصّيف الطويلة وحيدةً، تلعب وحدها في الحديقة تحت النظرات الصارمة لمدبّرة البيت العَبوس. فلا عجب أنها نشأت منعزِلةً بعض الشيء، وقلقةً مضطربةً حين تكون على مقربةٍ من الناس.

ومن سخرية القدر أن المطاف انتهى بها إلى العمل في مجال العلاج النفسي الجماعي، وهو أمر لم يغب عنها. لكن من المفارقة أن مشاعرها المتضاربة بخصوص التجمّعات البشرية قد خدمتها، ذلك أنه في العلاج الجماعي، تكون المجموعةُ - لا الفرد - هي محور العلاج. وأن يكون المرء معالِج مجموعاتٍ ناجحاً يعني - إلى حدٍّ كبيرٍ - أن يكون خَفِيّاً.

كانت ماريانا تُجيد ذلك. فخلال جلساتها، كانت تنأى بنفسها عن التدخّل في مسار المجموعة قدر الإمكان، ولا تتدخل إلا إذا توقف التواصل بين الأفراد، أو كان تدخُّلها سيساعدهم، أو إذا ما وقع خَطبٌ ما.

---

(1) بطل مسرحية شكسبير الكوميدية **ترويض النمرة** أو **كاثرين الشرسة** (العنوان الأصلي بالإنجليزية: *The Taming of the Shrew*) - المترجم.

وخلال ذلك الاثنين بالذات، طفا على السطح موضوعٌ شائكٌ تطلّب منها تدخّلاً استثنائيّاً. وكانت المشكلة - كالعادة - متعلِّقة بهنري.

3

وصل هنري متأخراً عن البقية. كان وجهه متورّداً وأنفاسه منقطعة، وبدا أنه لا يستطيع الوقوف بثباتٍ. تساءلت ماريانا عما إذا كان منتشياً، تحت تأثير مادةٍ ما. وما كان ذلك ليفاجئها على أية حالٍ، فكانت تشك أن هنري يستهلك أكثر من الجرعة الموصوفة من أدويته؛ إلا أنها كانت معالجته لا طبيبته، وما كان بإمكانها فعل الكثير بخصوص ذلك.

لم يكن هنري يبلغ من العمر سوى خمسٍ وثلاثين سنةً، إلا أنه بدا أكبر من ذلك بكثير. كان الشّيب يمازج شعرَه الأصهب، ووجهُه متغضّناً مثل القميص الذي يرتديه، وكان عَبوساً، الأمر الذي أعطى انطباعاً بأنه متوتر على الدوام، مثل نابضٍ حلزونيٍّ لولبيٍّ منكمشٍ على نفسه، فلطالما ذكّر شكلُه ماريانا بملاكمٍ أو مصارعٍ يستعد لإلقاء - أو تلقي - اللّكمة الموالية.

أصدر صوتاً أقرب إلى شخيرٍ وهو يعتذر عن تأخره، ثم اتخذ مقعداً وهو يُمسك بكوبِ قهوةٍ ورقيٍّ.

وقد كان كوب القهوة هو المشكلة.

تكلمت ليز على الفور. كانت ليز في منتصف السبعينات من

عمرها، وهي معلمةٌ متقاعدةٌ حريصةٌ كل الحرص على أن يتم القيام بالأمور «على النحو الصحيح»، بحسب تعبيرها. وقد شهدت ماريانا محاولاتِ ليز بخصوص ذلك أكثر من مرةٍ، وهو الأمر الذي كان يثير حفيظتها وأعصابها أحياناً، وقد توقعت ما كانت ليز على وشك قوله.

«هذا غير مسموح به!»، قالت ليز وهي تشير إلى كوب هنري بإصبعها المرتعش سخطاً وامتعاضاً. «ليس مسموحاً لنا أن نحضر أي شيء من الخارج. جميعنا نعلم ذلك».

شخر هنري قائلاً: «ولِمَ لا؟».

«لأنها القوانين، يا هنري».

«سُحقاً لكِ! اغربي عن وجهي، يا ليز!».

«ماذا؟ ماريانا، هل سمعتِ ما قاله لي للتو؟».

فور ذلك انهمرت دموعها، وأخذت الأمور منحىً تصاعديّاً من تلك النقطة، لتنتهي بمواجهةٍ أخرى حامية الوطيس بين هنري وباقي أفراد المجموعة، يوحّدهم الغضب ضدَّه، جميعُهم.

كانت ماريانا تراقب عن كثب، وهي ترعى هنري بنظرةٍ حَنونةٍ، لترى كيف سيتعامل مع الأمر. فرغم كل ذلك التبجّح والتّظاهر السّطحيّ بالغِلظة، كان - بداخله - شخصاً هشّاً للغاية. خلال طفولته، كان ضحيّة عنفٍ جسديٍّ وجِنسي قاهرٍ على يد والده، قبل أن تتدخل السلطات ويُنقل إلى دُور التبنّي التي حاولت التخلص منه، فمضى متنقّلاً بينها، من واحدةٍ إلى أخرى. ورغم ذلك، ورغم كل تلك الصدمات، كان هنري شخصاً حاد الذكاء، وبدا، ولو لبعض الوقت، أن ذكاءه سيكون كافياً لإنقاذه: في عمر الثامنة عشرة تمكن من الحصول على مقعد بالجامعة لدراسة الفيزياء. لكن الأمر لم

يستمر سوى بضعة أسابيع، فسرعان ما عاد ماضيه لملاحقته والالتصاق به مثل ظلّه: لقد تعرض لانهيار عصبيٍّ شاملٍ، ولم يُشفَ منه كليّاً قَطُّ بعدَها. تلا ذلك تاريخٌ من الإقدام على إيذاء الذات، وإدمان المخدرات، والانهيارات العصبيّة المتكرّرة التي دخل على إثرها المستشفى... إلى أن قرّر معالجه النفسيُّ إحالته إلى ماريانا.

لطالما رقّت ماريانا لحال هنري، ربما لأنه عانى في هذه الدنيا وكان حظّه قاسياً وقَميئاً. لكن مع ذلك، لم تكن متأكدةً من صواب قرار إدراجه في المجموعة. لم يكن الأمر متعلقاً بكون حالته أسوأ بكثير من باقي الأفراد فحسب: الأفراد الذين يعانون من مشاكل كبيرة يمكن إدراجهم وإبراؤهم بشكلٍ فعّالٍ للغاية داخل المجموعات، إلا أن ذلك قد يُعطّل المجموعة ويُعرقِل عملها إلى حد التفكّك. فحالما تتأسّسُ مجموعةٌ وتقف على دعائمها بثباتٍ، فإن ذلك يُثير الحسدَ والرّغبةَ في شن هجوم عليها. وليس فقط من أولئك الذين هم خارجها، أولئك المَقصيِّين من المجموعة، بل حتّى من قِوى مظلمةٍ وخطيرةٍ داخل أفراد المجموعة نفسها. ومنذ أن انضم إليهم هنري قبل بضعة أشهرٍ، كان مصدراً دائماً للنزاعات. لقد جلبها معه. كان يحمل بداخله حنقاً مُحتدِماً ومشاعرَ عِدائيةً دفينةً يصعب عليه في الغالب كبحُ جِماحها.

لكن ماريانا ما كانت لترمي المنديل سريعاً؛ ما دامت قادرة على ضبط المجموعة، فقد كانت عاقدةَ العزم على العمل معه. كانت تؤمن بقدرة المجموعة، بهؤلاء الأفراد الثمانية الجالسين على شكل دائرة. كانت تؤمن بالدائرة وبقدرتها على الشفاء. وخلال لحظاتها الباذخة، تغدو ماريانا روحانيّةً فيما يتعلّق بقدرة الدائرة: الدائرة في قرص الشمس، وفي القمر، والأرض؛ الكواكب التي تسبح في

الفضاء؛ الدائرة في العجلة، أو قبّة الكنيسة، أو خاتم الزواج. قال أفلاطون إن الروح دائرة، وقد وجدت ماريانا نفسها قادرة على فهم ذلك. والحياة نفسها دائرة، أليس كذلك؟ من الولادة إلى الموت.

وحين يمضي العلاج الجماعي كما يجب، فإن نوعاً من المعجزات يحلّ في هذه الدائرة، إذ تتم ولادةُ كيانٍ منفصلٍ: روح المجموعة، عقل المجموعة؛ ويُدعى غالباً «العقل الكبير» فهو أكبر من مجموع أجزائه، وأذكى من المعالِجة وكل أفراد المجموعة مجتمعين. إنه عقلٌ ذكيٌّ، وشافٍ، وقادرٌ على الاحتواء. وقد شهدت ماريانا قدراته الهائلة بأم عينيها عدة مرات. ففي هذه الغرفة الأمامية من بيتها، على مدار السنين، استُحضرت الكثير من الأشباح داخل هذه الدائرة، لتُدفَن بعد ذلك.

كان اليومَ دور ليز: لقد أُثيرت حفيظتها وأعصابها، وما كانت لتتغاضى عن أمر كوب القهوة هذا. لقد أخرج ذلك الكثيرَ من الغضب والحقد الدفينين داخلها - حقيقةُ أن هنري يظنُّ أن القواعد لا تنطبق عليه، وأن باستطاعته خرقها بكل ازدراء - ثم أدركت ليز فجأة كم أن هنري ذكّرها بأخيها الأكبر الذي كان متغطرساً ومتنمّراً، فبدأ كل ذاك الغضب المكبوت داخل ليز تجاه شقيقها يطفو على السطح؛ وهو أمر جيد، فكّرت ماريانا، يجب عليه أن يظهر. شريطة أن يقوى هنري على تحمُّل استغلاله ككيس ملاكمةٍ سيكولوجيٍّ.

وهو الأمر الذي ما كان ليتحمّله طبعاً.

قفز هنري في مكانه فجأةً، مُطلقاً صرخةَ كرب. ألقى كوب القهوة على الأرض، فانسكب السائل وسط الدائرة، مُحدثاً بركةً صغيرةً سوداءَ على ألواح الأرضية.

استجاب باقي الأفراد بالصوت على الفور وبغضبٍ هستيريٍّ إلى

حد ما. انفجرت ليز باكيةً من جديد، وحاول هنري المغادرة، إلا أن ماريانا أقنعته بالبقاء والتحدث عما جرى.

- «إنه مجرد كوبِ قهوةٍ لعينٍ، لمَ كلُّ هذه الجَلَبة؟»، قال هنري وهو يبدو مثل طفل ناقِم.

- «الأمر لا يتعلق بكوب القهوة»، ردت ماريانا، «بل يتعلق بالحدود: الحدود التي وُضعت لهذه المجموعة، والقواعد التي نلتزم بها هنا. لقد تحدثنا عن هذا من قبل. لا يمكن أن ننخرط فعليّاً في العلاج إذا لم نشعر بالأمان. الحدود تجعلنا نشعر بالأمان. الحدود هي ما يقوم عليه العلاج، يا هنري».

نظر إليها هنري بانشداه. كانت ماريانا تعلم أنه لم يفهم كلامها. فالحدود، حسب تعريفها، هي أول ما يفقده الطفل حين يتعرض للعنف. وكل حدود هنري تمزّقت واستحالت إلى أشلاءٍ منذ كان طفلاً صغيراً. نتيجةً لذلك، هو عاجز عن إدراك هذا المفهوم. كما أنه لا يعرف حين تُسبّب تصرفاتُه عدم ارتياحٍ لدى الآخرين كما كان الحال معظمَ الوقت، باختراقه مساحتهم الشخصية أو السيكولوجية: قد يقف على مسافة قريبةٍ جداً وهو يتحدث إلى أحدهم، كما أنه أبدى نوعاً من التطلّب الذي لم تره ماريانا لدى أيّ من مرضاها من قبل. لم يكن يكتفي بأي شيءٍ. كان لينتقل للسكن معها لو أنها سمحت له بذلك، لذا فقد كان الأمر راجعاً إليها أن تُبقي تلك الحدودَ قائمةً بينهما: أن تحدّد عوامل وضوابط علاقتِهما بطريقةٍ صحيّةٍ. كان ذلك عملَها بصفتها معالجتَه.

إلا أن هنري كان يختبر حدود صبرها على الدّوام، فتشعر بوخزاته وهو يَستَثِير أعصابَها... وبطرقٍ كانت تجد صعوبةً متزايدةً في التعامل معها.

4

ظلَّ هنري هناك لاحقاً، بعد أن رحل الآخرون، زاعماً أنه يرغب في المساعدة في تنظيف المكان وترتيب الفوضى التي خلّفها. لكن ماريانا عرفت أن الأمر ينطوي على أكثر من ذلك، فلطالما كان الأمر كذلك - كانت للقصّةِ بقيّةٌ دوماً - معه. ظلَّ يحوم بالمكان في صمتٍ، يراقبها، فقرّرت تشجيعه على الانفتاح عليها:

«هيا، يا هنري. إنه وقت الذهاب. . . أهناك شيء تريده؟».

أومأ برأسه، لكنه لم يتكلّم، ثمّ أدخل يده في جيبه، وقال:

«هاكِ، لقد أحضرتُ لكِ شيئاً».

أخرج خاتماً. كان خاتماً بلاستيكيّاً أحمر. كان لونه صارخاً، كما لو أنه مصنوعٌ من أوراق هدايا أعياد الميلاد.

«هذا لكِ. إنها هدية».

هزّت ماريانا رأسها: «تعلم أنني لا أستطيع قبول ذلك».

«ولِمَ لا؟».

«يجب أن تتوقف عن جلب الأشياء لي، يا هنري. اتفقنا؟ ويجب عليك حقّاً أن تذهب إلى المنزل الآن».

لكنه لم يتحرك من مكانه. ترددت ماريانا. لم تكن تعتزم

مواجهته بهذه الطريقة، لم تكن تعتزم مواجهته لحظتها، لكن الكلمات غادرت شفتيها:

«اسمع، يا هنري. هناك شيء يجب أن نتحدث بخصوصه».

«ماذا؟».

«ليلةَ الخميس، بعد انتهاء حصّةِ مجموعة ذاك المساء، نظرتُ خارج النافذة، ورأيتك في الخارج. على الجهة المقابلة من الشارع، بجوار عمود الإنارة. كنت تراقب المنزل».

«لم يكن ذلك أنا، يا صاح».

«بلى، كنتَ أنتَ. لقد رأيت وجهَك. كما أنها لم تكن تلك المرة الأولى التي أراك واقفاً هناك».

يَنِع وجه هنري وتحاشى النظر إلى عينيها، ثم هزّ رأسه نافياً:

«ليس أنا، ليس. . .».

«اسمع. . . لا مشكلة في أن يعتريك الفضول بخصوص مجموعات العلاج الأخرى. لكن علينا التحدث عن هذه الأمور هنا، في مجموعتنا. يجب ألّا تتصرف من تلقاء نفسك. يجب ألّا تتجسّس عليّ. هذا النوع من السلوكيات يجعلني أشعر بأن خصوصيتي قد اقتُحمت، وبأنني مهدّدة و. . .».

«أنا لا أتجسس! كنتُ واقفاً هناك فحسب. سُحقاً! ما الخطب في ذلك؟».

«إذاً، فأنت تعترف بأنك كنتَ واقفاً هناك؟».

تقدّم هنري خطوة نحوها. «لماذا لا نكون نحنُ الاثنين فقط؟ لماذا لا تستطيعين رؤيتي من دونهم؟».

«أنت تعلم لماذا. لأنني أراك في إطار مجموعةٍ وكجزءٍ منها؛

لا أستطيع رؤيتك على انفرادٍ. إذا أردت علاجاً على انفراد، أستطيع اقتراح زميل. . . ».

«لا، أنا أريدك أنتِ. . . ».

تقدّم هنري خطوةً أخرى فجُائيةً نحوها. وقفت ماريانا أمامه بثباتٍ ورفعت راحتها المبسوطة أمامه.

«لا! توقف! حسناً، لقد اقتربتَ أكثرَ من اللّازم، يا هنري. . . ».

«انتظري. انظري إلى هذا. . . ».

وقبل أن تتمكن من إيقافه، رفع كنزته السّوداء الثقيلة، وتحتها، على جذعه الأملط الشاحب، كان المنظر مروِّعاً.

لقد تم استعمال شفرةٍ حادّةٍ لنحت صُلبان غائرة على جلده. صُلبانٌ دمويّةٌ حمراءُ، بأحجامٍ مختلفةٍ، محفورةٌ على صدره وبطنه. بعضها كان طريّاً، ما زال ينزف، يقطر دماً، وكان بعضها الآخر متّسخاً، عليه ما يشبه خرزات مِسبحة دمويّةٍ، أو دموعاً من الدّم الخاثر.

شعرت ماريانا بمعدتها تنقبض. انقبض صدرها من جرّاء رؤية ذلك المشهد المقيت، وأرادت أن تُشيح بنظرها بعيداً، لكنها ما كانت لتسمح لنفسها بذلك. كانت هذه صرخةً طلباً للمساعدة، كانت كذلك بكل تأكيد، محاولةً لاستجداء ردّة فعلٍ بالاهتمام والعناية. لكن الأمر كان أكبر من ذلك: لقد كان هجوماً على مشاعرها، اعتداءً سيكولوجياً على حواسِّها. استطاع هنري أخيراً أن يزعزعها، وقد كرهته لفعلهِ ذلكَ.

«ماذا فعلتَ بحق الجحيم، يا هنري؟».

«أنا. . . أنا لم أستطع ردعَ نفسي. كان عليّ أن أفعل ذلك. وأنتِ. . . كان عليكِ أن ترَيه».

«والآن وقد رأيتُه، كيف يجعلني ذلكَ أشعر في نظرِكَ؟ أتستطيع تخيّلَ إلى أي حدّ أنا مستاءة؟ أريد مساعدتك ولكن. . . ».

«ولكن ماذا؟» أطلق ضحكةً مجلجِلَةً، ثم أردف: «ما الذي يمنعك؟».

«إن الوقتَ المناسبَ لي لتقديم الدعم لك هو خلالَ جلساتِ المجموعة. كانت أمامك فرصةٌ هذا المساء لكنك لم تستغلها. كان بإمكاننا جميعاً المساعدة. نحن جميعاً هنا للمساعدة. . . ».

«لا أريد **مساعدتهم**؛ أريدك **أنتِ**. ماريانا، أنا في حاجة إليكِ. . . ».

كانت ماريانا تعلم أنه يتوجب عليها دفعه إلى المغادرة. لم يكن عملها يقتضي تنظيف جروحه، فهو كان في حاجةٍ إلى عنايةٍ طبّيّةٍ. يجب أن تكون حازمةً، من أجل مصلحتِه كما مصلحتِها. إلا أنها لم تستطع حملَ نفسها على طرده خارجاً؛ وليس للمرة الأولى، طغى تعاطفُ ماريانا على منطقِها السّليم.

«انتظر. . . انتظر لحظة».

توجهت نحو الخزانة، فتحت درجاً، وفتّشت فيه. أخرجت علبةَ إسعافاتٍ أوليّةٍ، وكانت توشك على فتحها حين رنّ هاتفها.

ألقت نظرة على الشاشة. كان رقم زُوِي. فتحت الخط.

«زوي؟».

«أتستطيعين التحدث؟ الأمر مهم».

«امنحيني لحظة. سأعاود الاتصال بك».

أغلقت ماريانا الخط، التفتت صوب هنري، وسلّمته علبةَ الإسعافات الأولية.

«خذ هذه، يا هنري. نظّف نفسك، واذهب لرؤية طبيبك إذا اقتضى الأمر. اتفقنا؟ سأتصل بك غداً».

«أهذا كل شيء؟ وتَدعين نفسكِ معالِجةً لعينةً!؟».

«كفاكَ، يا هنري! هذا يكفي! يجب أن تغادر».

متجاهلةً احتجاجاته، وجّهته بحزمٍ نحو الرواق، ثم خارج الباب الأمامي، وأغلقت الباب وراءه. شعرت بباعث يدفعها لإقفال الباب، إلا أنها قاومته.

توجهت بعد ذلك إلى المطبخ، فتحت الثلاجة، وأخرجت قنينة نبيذ سوفينيون أبيض.

شعرت بنفسها مهتزة. كان عليها أن تتمالك نفسها قبل إعادة الاتصال بزوي، فلم تكن ترغب في أن تثقل على تلك الفتاة أكثر مما فعلت. أصبحت علاقتهما غير متوازنة منذ وفاة سيباستيان، فعزمت ماريانا على استعادة ذلك التوازن من الآن فصاعداً. أخذت نفساً عميقاً لتسترخي، ثم صبّت لنفسها كأس نبيذٍ كبيرةً، وأجرت الاتصال.

أجابت زوي من الرنّة الأولى.

«ماريانا؟».

أدركت ماريانا في الحال أن هناك خطباً ماً. كان التوتر يعتري نبرة زوي، فيه استعجالٌ مرتبط في ذهن ماريانا بلحظات الأزمات.

إنها تبدو خائفةً، فكرت ماريانا. أحسّت بنبضها يتسارع.

«عزيزتي، هل. . . هل كل شيءٍ على ما يرام؟ ماذا حصل؟».

حلّتْ بينهما ثانية صمتٍ مُطبِقٍ قبل أن تجيب زوي. تحدثت بنبرةٍ خافتةٍ باهتةٍ.

«شغّلي التلفاز. . . شاهدي الأخبار».

5

التقطت ماريانا جهاز التحكّم.

شغّلت التلفاز المحمول البالي القابع فوق المايكرويف؛ كان أحد ممتلكات سيباستيان الأثيرة، اشتراه حين كان لا يزال طالباً. كان يشاهد عليه مباريات الكريكت والرغبي، بينما كان يتظاهر بمساعدتها في تحضير وجبات نهاية الأسبوع. كان الجهاز مزاجيّاً للغاية، فأومض لبعض الوقت قبل أن تدبَّ فيه الحياة.

بحثت ماريانا عن قناة بي بي سي الإخبارية. كان صحافيٌّ في منتصف العمر يقدم تقريراً، ويقف في العراء. كان الظلام قد بدأ يحلّ، وكان من الصعب تحديد ذلك المكان بالضبط: حقلٌ ربما، أو مرجٌ. كان ينظر إلى الكاميرا مباشرة.

«. . . وقد عُثر عليها في كامبريدج، في المحميّة الطبيعية المعروفة باسم بارادايز(1). أنا هنا برفقة الرجل الذي اكتشفها. . . أتستطيع إخباري بما حدث؟».

كان السؤال موجّهاً إلى شخصٍ يقف خارج إطار الكاميرا، فاستدارت الكاميرا جانبيّاً لتواجه رجلاً قصير القامة، متوتّراً، ذا وجهٍ

(1) Paradise: ومعناها: جنّة - المترجم.

يانعٍ، في منتصف الستينات من عمره. طرفَ بعينَيه في مواجهة الضوء، وبدا دائخاً. تحدث بتردّدٍ.

«حدث ذلك قبل بضع ساعاتٍ... اعتدتُ أن أُخرج الكلب للتنزّه عند الرابعة، لذا فقد حدث ذلك حوالي ذلك الوقت - الرّابعة والرّبع، أو الرّابعة والثّلث. كنا نمشي بجوار النهر، على طول الطريق... كنا نمشي عبر بارادايز، ثم...».

تلعثم لوهلةٍ ولم يكمل جملته، ثم حاول مجدّداً: «كان الكلبَ... لقد اختفى وسط العشب الطويل بجوار المستنقع. لم يكن يستجيب لندائي. ظننت أنه وجد طائراً أو ثعلباً أو شيئاً من هذا القبيل... فذهبت لإلقاء نظرةٍ. مررتُ بين الأشجار... نحو حافة المستنقع، بجوار الماء... وهناك، هناك وجدتها...».

علت سحنةَ الرجلِ نظرةٌ غريبةٌ، نظرةٌ تعرفها ماريانا حق المعرفة. **لقد رأى شيئاً مفزعاً**، فكرتْ. **لا أريد سماع ذلك، لا أريد معرفة ذلك.**

واصل الرجل كلامه دون انقطاعٍ، مسرعاً هذه المرّةَ كما لو أنه يريد لفظَ الكلماتِ خارجاً.

«كانت فتاةً؛ لا يزيد عمرها عن العشرين. شعرُها أصهبُ، يصل إلى كتفيها، أو على الأقل، أظن أنه كان كذلك. كانت الدماء في كل مكان، بركةٌ من الدماء...». ثم أحجم عن الكلام فجأةً وشرد بعيداً، فحفّزه الصحافي لمتابعة كلامه.

«هل كانت ميّتة؟».

«أجل». أومأ الرجل برأسه. «لقد تمّ طعنها مراتٍ عديدةً. و... وجهُها... يا إلهي، لقد كان رهيباً! عيناها... عيناها... لقد... كانتا مفتوحتَين... كانتا تحدّقان... تحدّقان...».

ثم أحجم الرجل عن الكلام تماماً، واغرَوْرَقت عيناهُ بالدموع.
إنه في حالة صدمة، فكرت ماريانا. **لا يجب أن يحاوروه وهو في هذه الحالة؛ يجب على أحدهم إيقاف ذلك.**

لحظتَها بالضبط - ربما بعد أن أدرك أنه مضى بالأمر أبعد من اللازم - أنهى الصحافي الحوار وعادت الكاميرا لتواجهه.

«الأخبار العاجلة هنا من كامبريدج: الشرطة تحقق في اكتشاف جثة. سقطت ضحية هجومٍ مَسعورٍ بسكينٍ امرأةٌ شابّةٌ يُعتقد أنها في أوائل العشرينات من عمرها...».

أطفأت ماريانا التلفاز، وحدّقت فيه لوهلة، مصدومةً ومتسمّرةً في مكانها، غير قادرةٍ على القيام بأية حركةٍ. ثم تذكرت الهاتف في يدها، فرفعته إلى أذنها.

«زوي؟ هل ما زلتِ هنا؟».

«أ... أظن أنها تارا».

«ماذا؟».

كانت تارا صديقة زوي المقرّبة. كانتا تدرسان بالسنة نفسها في كلية سانت كريستوفر بجامعة كامبريدج. ترددت ماريانا، محاوِلةً ألا تبدو قلقةً.

«وما يدعوكِ إلى قول ذلك؟».

«إنها تبدو مثل تارا... ولم يرها أحد... منذ أمس. ظللتُ أسأل الجميع و... أنا... أنا خائفة، لا أعلم ما يجب...».

«رويدَكِ، متى كانت آخر مرة رأيتِ فيها تارا؟».

«ليلةَ أمس». توقفت زوي لوهلة، ثم أردفت: «و... يا ماريانا، لقد كانت... كانت تتصرف بغرابة شديدة... لقد...».

«ماذا تقصدين، بالغرابة؟».

«لقد قالت أشياء. . . أشياء جنونيّةً».

«ماذا تقصدين بجنونيّة؟».

خيّم الصمت لوهلة، ثم أجابت زوي هامسةً: «لا أستطيع التطرق لذلك الآن. لكن هل يمكنك القدوم؟».

«سآتي بالطبع. لكن، يا زوي، أنصتي. هل تحدثتِ إلى أحد من الجامعة؟ يجب أن تخبريهم. . . أخبري العميد».

«لا أعلم ما يجب قوله».

«أخبريهم بما أخبرتني به للتو. أنكِ قلقةٌ بشأنها. سيتصلون بالشرطة، وبوالدَي تارا. . .».

«بوالديها؟ ولكن. . . ماذا لو كنتُ مخطئةً؟».

«أنا متأكدة أنك مخطئةٌ»، قالت ماريانا بنبرةٍ أكثر ثقةً مما تشعر به فعلاً. «أنا متأكدة أن تارا بخير، لكن يجب أن نتأكد. تفهمين ما أقول، أليس كذلك؟ أتريدين مني أن أتصل بهم بدلاً منك؟».

«لا، لا، لا بأس. . . سأفعل ذلك».

«جيد. والآن اخلدي إلى النوم، اتفقنا؟ سآتي إليك باكراً».

«شكراً، يا ماريانا. أنا أحبّكِ».

«وأنا أيضاً أحبّكِ».

أنهت ماريانا الاتصال. كان كوب النبيذ الأبيض قابعاً بركن المنضدة كما صبّته، فحملته وأفرغته في جوفها دفعةً واحدةً.

كانت يدها ترتجف وهي تحمل القنينة وتصب لنفسها كوباً ثانياً.

6

توجهت ماريانا إلى الطابق العلوي وأعدّت حقيبة سفرٍ صغيرة، في حال وجب عليها قضاء ليلةٍ أو اثنتين في كامبريدج.

حاولت ألا تسمح لأفكارها بالتسابق والتدافع في ذهنها، لكن الأمر كان صعباً، إذ كانت تشعر بقلق شديد. هناك في مكان ما، كان ثمة رجل - يُفترض أنه رجل، نظراً إلى العنف البالغ للهجوم - يعاني اختلالاً خطيراً، وقد أقدم على قتل امرأة شابة بمنتهى الوحشيّة. . . امرأة شابة يُحتمل أنها كانت تعيش على بعد أقدامٍ قليلة من المكان الذي تنام فيه عزيزتها زوي.

قضّت مضجع ماريانا فكرةٌ عنيدةٌ وملِحّةٌ: كان يمكن أن تكون الضحيةَ زوي عوض تلك الفتاة، فحاولت طردها بعيداً، إلا أنها لم تنجح في كتمها تماماً. واعتراها شعور بالغ السوء وخوف لم يسبق لها أن شعرت به إلا مرة واحدة فقط في حياتها: يوم وفاة سيباستيان. شعور بالعجز؛ بالوهن، شعور مروّع بعدم القدرة على حماية أولئك الذين تحبهم.

ألقت نظرة على يدها اليمنى. لم تستطع منعها من الارتجاف. أمسكتها في قبضة مشدودة، وأحكمتها جيداً. لا، لن يحدث ذلك:

لا يمكنها أن تتداعى! ليس الآن. ستحافظ على هدوئها. ستشحذ تركيزها.

إن زوي في حاجة إليها، هذا كل ما يهم الآن.

آه، لو أن سيباستيان كان هنا، كان سيعلم حتماً ما يجب فعله. ما كان ليتداول ويتدبّر، ويماطل ويعدّ حقيبةً بحاجياته لقضاء ليلة خارج المنزل؛ كان سيأخذ مفاتيحه ويهرع عبر الباب فور إنهاء مكالمته مع زوي. هذا ما كان سيفعله سيباستيان. فلمَ لمْ تفعل هي ذلك؟

لأنكِ جبانة، فكرت.

كانت هذه هي الحقيقة. فلو كانت تملك فقط بعضاً من قوة سيباستيان. بعضاً من شجاعته. **هيا، يا حبيبتي!** كان باستطاعتها سماع صوته. **أعطيني يدكِ وسنمضي لمواجهة أولئك الأنذال معاً.**

أوَت ماريانا إلى فراشها، وتمدّدت على السرير مستغرقة في أفكارها، فأخذ النوم يستدرجها شيئاً فشيئاً. ولأول مرة منذ أكثر من سنة، لم يكن زوجُها الراحل آخرَ مَن فكّرت فيه قبل أن تفقد وعيها، بل وجدت نفسها عوض ذلك تفكر في رجل آخر: طيفٌ يحمل سكيناً وأوقع تلك الفظائع بتلك الفتاة المسكينة. ظل ذهن ماريانا يتأمل في شأن ذلك الطيف بينما طرفت برموشها الثقيلة في خدر وهي تغمض عينيها. فكرت في ذلك الرجل. تساءلت عما كان يفعل لحظتها، أين كان...

وفي ماذا كان يفكر.

7

7 أكتوبر

ما إن تقتل إنساناً آخر، فلا مجال للعودة.

أستطيع رؤية ذلك الآن. أرى أنني أصبحت شخصاً مختلفاً تماماً.

أفترض أن الأمر أقرب إلى ولادة جديدة. لكنها ليست ولادة عادية بأي حال من الأحوال؛ إنه تحول. ما ينبعث من الرماد ليس طائر فينيق، بل مخلوق أكثر بشاعة: مشوّه البنية، غير قادر على الطيران، مفترس يستعمل مخالبه ليشقّ ويمزّق.

أشعر بأنني ممسك بزمام الأمور الآن، وأنا أكتب هذه الكلمات. في هذه اللحظة من الزمن، أنا هادئ، وعاقل.

لكن هناك أكثر من «أنا» واحد.

إنها مسألة وقت قبل أن يستيقظ الأنا الآخر، متعطشاً للدماء، مسعوراً، وساعياً للانتقام. ولن يهدأ حتى ينال مراده.

أنا شخصان داخل ذهن واحد. جزء مني يحفظ أسراري – هو وحده يعلم الحقيقة – لكنه سجين، محتجَز، مخدَّر، ولا صوت له. لا يجد متنفَّساً إلا حين يكون سجّانُه مشتّتاً بشكل مؤقت. حين أكون ثملاً أو على وشك الخلود إلى النوم، حينها يحاول الكلام. لكن الأمر ليس سهلاً

البتة. إن التواصل يتم على شكلٍ متقطع؛ كخطة مشفّرة للهروب من معتقلٍ لسجناء الحرب. فإذا اقترب أكثر من اللازم، يقوم أحد الحرس بتشويش مضمون الرسالة. يُشيَّد جدار أمامي. تغزو الظلمة ذهني. والذكرى التي كنت أحاول استعادتها تتبخر تماماً.

لكنني سأثابر. يجب عليّ ذلك. بطريقة ما، سأجد سبيلاً وسط الدخان والظلام وأتواصل معه: الجزء العاقل مني. الجزء الذي لا يريد إيذاء الناس. هناك الكثير مما يمكنه إخباري به. الكثير مما أحتاج إلى معرفته. كيف، ولماذا، انتهى بي المطاف على هذه الحال، بعيداً كلّ البعد عما كنت أريد أن أكونه، تملأني مشاعر الكره والغضب، مشوهاً من الداخل إلى هذه الدرجة...

أم أنني أكذب على نفسي؟ أكنت دوماً على هذه الحال، ولم أكن راغباً في الاعتراف بذلك؟

كلّا، لن أصدق ذلك.

في نهاية المطاف، يحق لكل شخص أن يكون بطل قصته. لذا يجب أن يُسمح لي أن أكون بطل قصتي. إلّا أنني لست كذلك.

أنا الشرير.

8

صباح اليوم الموالي، حين غادرت ماريانا المنزل، اعتقدت أنها لمحت هنري.

كان على الجهة المقابلة من الشارع، يتململ خلف شجرة.

لكنها حين نظرت مجدداً، لم ترَ أحداً. لا بد أنها تخيّلت ذلك، وحتى ولو لم تفعل، فكانت لديها أمور أهم للقلق بشأنها الآن. طردت فكرة هنري من ذهنها، واستقلت المترو إلى مقاطعة كينغس كروس.

هناك في المحطة، استقلت القطار السريع إلى كامبريدج. كان يوماً مشمساً، وكانت السماء الزرقاء صافيةً مثاليةً، تعلوها بضع سُحُبٍ مثل قطع قطنيةٍ متناثرةٍ هنا وهناك. جلست قرب النافذة تنظر إلى الخارج، بينما انطلق القطار السريع بمحاذاة أسوار من الشّجر وحقول شاسعة من الحنطة المتمايلة مع النسيم مثل بحرٍ أصفر متموّج.

كانت ماريانا ممتنةً لأشعة الشمس التي تداعب وجهها، فقد كانت ترتجف، لا بسبب غياب الدفء، بل بسبب القلق. لم تستطع كبح تفكيرها عن القلق بشأن ما وقع. لم تسمع شيئاً من زوي منذ

الليلة الماضية. لقد أرسلت لها ماريانا رسالةً نصيّةً هذا الصباح، لكنها لم تتلقَّ منه أيَّ ردٍّ بعد.

ربما كان الأمر مجرد صافرة إنذارٍ خاطئةٍ؛ ربما كانت زوي مخطئة؟

كانت ماريانا تأمل ذلك بصدق. ليس فقط لأنها عرفت تارا على مستوى شخصي، إذ إنهما استقبلاها ذات نهاية أسبوع في لندن بضعة أشهر قبل وفاة سيباستيان، بل كان قلق ماريانا على تارا، أساساً وبكل أنانيةٍ، راجعاً إلى خوفها على زوي.

كانت مراهقَةُ زوي صعبةً لعدة أسباب، وقد نجحت الفتاةُ في التفوق عليها، بل أكثر من مجرد التفوق - «سمَت فوقها منتصِرةً متوّجةً» كانت العبارة التي استعملها سيباستيان لوصف ذلك - وانتهى بها المطاف بأنها قُبلت في قسم الأدب الإنجليزي بجامعة كامبريدج. وكانت تارا أول شخص تصادقه زوي هناك، وخسارة تارا بتلك الطريقة الشنيعة والمروّعة قد تتسبّب في جعل زوي تحيد عن المسار تماماً، فكرت ماريانا.

لسبب ما، لم تستطع ماريانا التوقف عن التفكير في محادثتهما الهاتفية الليلة الماضية. شيء ما بخصوص ذلك ظل يضايقها.

لم تستطع وضع إصبعها على مكمن ذاك الشعور المزعج بالضبط.

أكانت نبرة زوي؟ لقد شعرت ماريانا بأن زوي كانت تحجم عن قول شيء ما. أكان ذاك الترددَ، أو بالأحرى التملّص، حين سألتها عما كانت تلك الأمور «الجنونيّة» التي قالتها تارا؟

لا أستطيع التطرق لذلك الآن.

لِمَ لا؟

ما الذي قالته تارا لها بالضبط؟

ربما لم يكن أمراً مهماً، فكّرت في سرها. **توقفي، توقفي عن فعل ذلك!** كانت أمامها ساعة من الوقت قبل الصعود إلى القطار، فلا يمكنها الجلوس هناك فريسةً لأفكار ستقودها إلى الجنون وتتسبب في وصولها إلى هناك منهارة - لذا كانت في حاجة إلى تشتيت ذهنها.

أدخلت يدها في حقيبتها وأخرجت مجلةً: **المجلة البريطانية لعلم النفس**[1]. قلّبت صفحاتها، لكنها لم تستطع التركيز على أيٍّ من مقالاتها.

حتماً، عاد ذهنها للتفكير في سيباستيان. فمجرد فكرة العودة إلى كامبريدج من دونه قذفت الوجل في قلبها. ستكون هذه أولَ مرة تعود فيها إلى هناك منذ وفاته.

كانا في العادة يذهبان لرؤية زوي معاً. راحت ماريانا تسترجع ذكريات من زياراتهما السابقة: تذكرت اليوم الذي اصطحبا فيه زوي حين انتقلت إلى كلية سانت كريستوفر وساعداها على نقل أغراضها والاستقرار في سكنها الجديد. كانت هذه إحدى أسعد اللحظات التي أمضياها معاً، ما جعلهما يشعران بكونهما الأبوين الفخورين لابنتهما البديلة التي أحبّاها بشغف.

بدت زوي ضئيلة وهشّة حين كانا يستعدّان للمغادرة ذلك اليوم. ثم، خلال توديعهما لها، رأت ماريانا سيباستيان ينظر إلى زوي بولعٍ وحبٍّ ممزوجين بهلعٍ مُستَتِرٍ، كما لو أنها كانت طفلته، وقد كانت كذلك فعلاً، على نحوٍ ما. وحين صارا بالخارج، لم يُطيقا مغادرة

---

(1) *British Journal of Psychiatry.*

كامبريدج، فمشَيا بمحاذاة النهر بذراعين متشابكتين، كما كانا يفعلان خلال سنوات شبابهما، إذ كانا طالبَين هنا، وكانت كامبريدج - الجامعة كما المدينة - تحتل مكانةً كبرى في قصة حبهما.

كان ذلك هو المكان الذي التقيا فيه، حين كانت ماريانا في ربيعها التاسع عشر.

وقع اللقاء صدفةً. لم تكن هناك أسبابٌ قد تساعد على حدوثه، فقد كان كلٌّ منهما يدرس تخصّصاً مختلفاً في كليتين مختلفتين في الجامعة: كان سيباستيان طالب اقتصاد، بينما كانت ماريانا طالبة أدب إنجليزي. وترعبها فكرة كم أنه كان من السهل ألا يلتقيا أبداً. ماذا لو حصل ذلك؟ كيف كانت ستبدو حياتها؟ أفضل. . . أم أسوأ؟

كانت ماريانا في الأيام الراهنة تقلّب ذاكرتها بلا هوادةٍ، باحثةً عن الماضي، محاوِلةً رؤيتَه بجلاءٍ؛ تحاول فهمَ رحلة القدر التي جمعتهما ووضعَها في سياقها الصحيح. كانت تحاول أن تتذكّر أشياءَ بسيطةً فعلاها، وتعيد إحياء محادثات منسيّة وتخيُّل ما كان سيباستيان سيقول أو يفعل في كل لحظة. لكنها لم تكن متأكدة من مدى حقيقة ما تتذكّره، فكلما تذكّرت أكثر، بدا لها وكأن سيباستيان يتحول إلى أسطورة أكثر. لقد كان روحاً خالصةً الآن، قصّةً خالصةً مَحضةً.

لم تكن ماريانا قد تجاوزت ربيعها الثامن عشر حين انتقلت إلى إنجلترا. كان بلداً تراه بعينين حالمتين منذ طفولتها. وربما كان ذاك الانتقال أمراً حتمياً، بالنظر إلى أن والدتها الإنجليزية تركت الكثير خلفها في ذلك المنزل بأثينا: طرود ورفوف ملأى بالكتب بكل غرفة، مكتبة صغيرة مكتظّة بالكتب الإنجليزية - روايات، مسرحيات، أشعار - نُقلت جميعها إلى هناك بطريقة غامضة قبل ولادة ماريانا.

كانت تتخيّل، بمنتهى الحبّ، وصول والدتها إلى أثينا، وكل حقائبها ملأى بالكتب عوض الملابس. وفي غياب الأم، لجأت الطفلة الوحيدة إلى كتب والدتها لتجد فيها الرفقة والسّلوان. فخلال فترات ما بعد الظهيرة الصيفية الطويلة، دأبت ماريانا على عادتها إلى أن صارت تألَف وجودَ كتاب بين يديها، ورائحةَ الورق، والشعورَ الذي يثيره تقليبُ الصفحات. كانت تجلس على الأرجوحة الصدئة في الظلّ، تقضم تفّاحة خضراء طريّةً أو تلتهم خوخةً نضجت أكثر من اللازم، وتفقد نفسها داخل إحدى القصص.

ومن خلال تلك القصص، أُغرمت ماريانا برؤيةٍ لإنجلترا ومعنى أن يكون المرء إنجليزياً، وهي رؤية لإنجلترا لم توجد قطّ خارج صفحات تلك الكتب: إنجلترا ذات أمطارٍ صيفيةٍ دافئة، وخُضرةٍ مبلّلة، وأشجار تفّاح مزهرة؛ وأنهار ذات مسارات ملتوية، وأشجار الكمثري، وحانات ريفية ذات مدافئ مستعرة نيرانُها؛ إنجلترا المشاهير الخمسة(1) وبيتر بان والملك آرثر؛ ومرتفعات وذرينغ وجين أوستن، وشكسبير وتنيسون.

وهنا دخل سيباستيان قصة ماريانا، حين كانت لا تزال طفلةً. فمثل كل الأبطال الرائعين، لقد جعل وجودَه ملموساً قبل أن يظهر بوقتٍ طويل. لم تكن ماريانا تعلم كيف يبدو بعد - هذا البطل الرومانسي في ذهنها - لكنها كانت متأكدة من أنه حقيقي.

كان هناك في مكانٍ ما فحسب، وستعثر عليه يوماً ما.

وبعد ذلك بسنوات، حين وصلت إلى كامبريدج كطالبة لأول

---

(1) The Famous Five: أبطال سلسلة قصص أطفال للكاتبة الإنجليزية إينيد بلايتون تحكي قصة خمسة أطفال يمضون في رحلات مختلفة - المترجم.

مرة، كان كل شيء من حولها بهيّاً وجميلاً، أشبهَ بالحلم، فشعرت كما لو أنها خطت داخل قصة خيالية، داخل إحدى المدن الفتّانة من قصائد تنيسون. وملأ نفسَ ماريانا اليقينُ بأنها ستجده هنا، في هذا المكان السحري. ستجد الحب.

لكن الواقع المؤسف، بطبيعة الحال، كان أن كامبريدج لم تكن قصة خيالية. كانت مجرد مكان عادي، مثل أي مكان آخر على الأرض. والمشكلة بخصوص تهيّؤات ماريانا - كما اكتشفت لاحقاً بعد سنوات من العلاج النفسي - أنها جلبت نفسَها القديمة معها. ففي المدرسة وهي تصارع وتعاني من أجل أن تندمج، كانت تذرع الممرّات خلال أوقات الاستراحة، وحيدةً قلقةً مثل شبحٍ هائمٍ على وجهه، ميّالةً نحو المكتبة كما لو كانت مغناطيساً يجذبها برفق وسحر، وهناك، كانت تشعر بالراحة وتجد الملاذ. والآن، وهي طالبةٌ في كلية سانت كريستوفر، تكررت الأنماط ذاتها: كانت ماريانا تمضي معظم وقتها في المكتبة، وتكوّن صداقات مع طلبة خجولين آخرين وشغوفين بالكتب مثلها. لم تنَل اهتمامَ أيٍّ من الفتيان من صفّها أو من السنة الأولى برمتها، ولم يطلب أيٌّ منهم مواعدتها.

ربما لم تكن جذابةً بما يكفي؟ كانت أكثر شبهاً بوالدها منه بوالدتها، بشعرها الدّاكن وعينيها الغامقتَين. وسنوات بعد ذلك، سيكرّر لها سيباستيان كم هي جميلة، لكن كانت المشكلة تكمن في أنها لم تشعر بذلك قطّ بداخلها. واعتقدت أنه في حال كانت جميلة حقاً، فكان ذلك بفضل سيباستيان فحسب، إذ تحت أشعة شمسه المشرقة، كانت تتفتّح مثل الزهرة. منذ طفولتها، لم تكن تثق كثيراً بحسن مظهرها، وحتماً لم يساعدها في ذلك نظرُها الضعيف

واضطرارُها لارتداء نظارات سميكة قبيحة في سن العاشرة. وفي الخامسة عشرة، بدأت تضع عدسات لاصقة، وتساءلت عما إذا كان ذلك سيجعل مظهرها مختلفاً ويغيّر نظرتها إلى نفسها. كانت تقف أمام المرآة وتحدّق في انعكاسها، تحاول رؤية نفسها بوضوح، لكنها تفشل في ذلك؛ لم تكن قط راضية تماماً عما ترى. وحتى في تلك السن المبكرة، كانت ماريانا واعية إلى حد ما أن كون المرء مثيراً له علاقة بعالَمه الداخلي: كانت تفتقر إلى ثقة داخلية نابعة من كيانها.

مع ذلك، كانت ماريانا - مثل الشخصيات الخيالية التي تعشقها - تؤمن بالحب. لذا، ورغم مرور فصلين غير موفّقين في الجامعة، رفضت أن تتخلّى عن الأمل.

ومثل سندريلا، كانت تنتظر الحفل الراقص.

نُظّم حفل كلية سانت كريستوفر الراقص بمنطقة ذي باكس، حيث يمتد البساط العشبي إلى حدود مياه النهر بالأسفل. نُصبت خيام ضخمة، ملأى بالأطعمة والمشروبات، وأُطلقت الموسيقى وانطلق معها الرقص. كانت ماريانا قد اتفقت مع بضعة أصدقاء على لقائهم هناك، إلا أنها لم تستطع العثور عليهم وسط ذلك الحشد العارم. لقد تطلّب منها الأمر شحذ كل شجاعتها للقدوم إلى الحفل الراقص بمفردها، وها هو الندم قد بدأ يساورها الآن لإقدامها على ذلك. وقفت بمحاذاة النهر، تصارع شعوراً رهيباً بأنها لا تنتمي إلى هذا المكان المليء بالحسناوات في فساتين الرقص والرجال المتأنقين في بدلات السهرات، جميعهم ينضحون فخامة وثقة. أدركت أن مشاعرها تتنافر مع جَذَل وبهاءِ كل ما يحيط بها، إذ كانت تشعر بحزنٍ يثقل دواخلها ويكبّلها، وبوحدةٍ وخجلٍ شديدين، بحيث بدا الوقوف هنا عند الحافة - النظر إلى الحياة من الهامش - المكان

المناسب لماريانا، كما بدا خطأً جسيماً أن تتخيّله عكس ذلك. لذا قررت الانسحاب والعودة إلى غرفتها.

وفي تلك اللحظة، سمعت صوت سقوط جسم في الماء.

نظرت من حولها، وسمعت أصوات سقوط أجسامٍ أخرى في الماء، وصياحاً ممزوجاً بضحكات. وبالقرب منها على النهر، كان بعض الفتية يعبثون على قوارب تجذيف، وأحدهم فقد توازنه وسقط في الماء.

راقبت ماريانا الشاب وهو يرشرش الماء حوله ثم يطفو على سطح النهر. سبح إلى الضفة ثم سحب نفسه إلى الأعلى، فبدا وهو يخرج من الماء مثل مخلوق أسطوري؛ شبه إله وُلد في الماء. كان في التاسعة عشرة من عمره فحسب حينها، إلا أنه بدا رجلاً، لا فتى. كان طويلَ القامة، مفتولَ العضلات، ومبتلاً تماماً، وكان قميصه وسرواله ملتصقين على جسده، وشعره الأشقر ملتصقاً على وجهه، حاجباً عنه الرؤية. أزال الشعر عن وجهه بيده ليطلّ. . . فرأى ماريانا أمامه.

كانت لحظةً غريبةً، كما لو أنها حدثت خارج الزمن، تلك اللحظة التي رأيا فيها بعضهما لأول مرة. بدا كما لو أن الزمن تباطأ، تثاقل، وتمدّد. كانت ماريانا متجمدةً في مكانها، أسيرةً لنظرته، وعاجزةً عن الإشاحة بنظرها بعيداً. كان شعوراً غريباً، أشبه بشعور التعرف على شخصٍ ما، شخص عرفته معرفةً حميمة في السابق ولم تكن قادرة على تحديد المكان أو الزمان الذي انقطع فيه تواصلهما.

تجاهل الشاب صرخات رفاقه المتهكّمة، وبابتسامة فضولٍ عريضة، راح يشق طريقه نحوها.

«مرحباً، أنا سيباستيان»، قال لها.

وكان هذا كل شيء.

كان ذلك مكتوباً، كما يقول اليونانيون، ما يعني ببساطة، أن قدرَيهما، منذ تلك اللحظة، كانا مختومَين. وبالعودة بالذاكرة إلى الوراء، حاولت ماريانا مراراً استرجاع تفاصيل تلك الليلة القدريّة الأولى: ما تحدثا بخصوصه، كم رقصا، متى قبّلا بعضهما أول مرة. لكنها مهما حاولت، تنسلّ التفاصيل من بين أصابعها مثل حبات الرمل، وكل ما استطاعت تذكره هو أنهما كانا يتبادلان القبل مع أول خيوط الشمس المشرقة، ومنذ تلك اللحظة، ما عادا يفترقان.

أمضيا صيفهما الأول في كامبريدج، مُتشَرنِقَين في أحضان بعضهما لمدة ثلاثة أشهر، غير آبهَين بالعالم الخارجي. كان الوقت متوقّفاً في تلك البقعة الأزلية؛ كان المكان مشمساً على الدّوام، وأمضيا وقتهما في البقاء معاً وفي التنزّه في مكان لقائهما؛ أو على النهر، مبحِرَين على ظهر قاربٍ تحت الجسور الصخرية، بمحاذاة أشجار الصّفصاف والأبقار التي ترعى في الحقول الممتدة أمامها. كان سيباستيان يجذّف، بينما كانت ماريانا تمشّط برؤوس أصابعها المرتخية سطحَ الماء، محدّقةً في طيور البجع التي تمرّ بجوارهما. ورغم أن ماريانا لم تدرك الأمر حينها، إلا أنها كانت ولهانةً تماماً، ولم يكن هناك طريق للخروج.

على مستوى ما، أصبح كل واحدٍ منهما يَلبَس الآخر، واندمجا مثل الزئبق.

هذا لا يعني أنه لم تكن هناك اختلافات بينهما. فبعكس كل الامتيازات التي حظيت بها ماريانا خلال طفولتها، فقد نشأ

سيباستيان في الفقر المدقع. كان والداه مطلّقين ولم يكن مقرّباً من أي منهما. شعر أنهما لم يمنحاه بداية جيدة في الحياة، وأن عليه شق طريقه بنفسه، منذ البداية. قال إنه، على عدة مستويات، يتشابه مع والد ماريانا ودافعِه القوي للنجاح، فكان المال مهماً بالنسبة إلى سيباستيان أيضاً، لأنه - على عكس ماريانا - نشأ من دونه، فكان يقدّره، وكان عازماً على أن يكسب مالاً وفيراً في الأسواق المالية، «حتى يمكننا أن نشيّد حياة آمنة لأنفسنا، من أجل المستقبل ومن أجل أبنائنا».

هكذا كان يتكلم في سنّ العشرين: مثل شخص ناضج تماماً، وساذج لدرجة الافتراض أنهما سيقضيان بقية حياتهما معاً. كانا يعيشان في المستقبل في تلك الأيام، ويخططان له طوال الوقت. لم يتحدّثا عن الماضي قطّ، عن سنوات الشقاء التي سبقت لقاءهما. وعلى مستويات عديدة، لقد بدأت حياةُ كلٍّ منهما حين التقيا... في تلك اللحظة التي رأى كلٌّ منهما الآخر قرب النهر. اعتقدت ماريانا أن حبهما سيستمر إلى الأبد، أنه لن ينتهي أبداً...

وهي تفكر في ذلك، تساءلت عما إذا كان هناك أي شيء مدنّس في ذلك الافتراض. نوع من الغرور؟

ربما.

ولكن، ها هي ذي الآن وحدها على متن هذا القطار، في رحلة قاما بها معاً مرات لا تعد ولا تحصى، في محطات مختلفة من حياتيهما، وبأمزِجَةٍ مختلفةٍ - سعيدة عموماً، وغير ذلك أحياناً - يدردشان، يقرآن، أو ينامان، ورأس ماريانا متكئٌ على كتفه دائماً. ورغم أنها لحظات اعتيادية لا شيء مميزاً فيها، فقد كانت مستعدة لبذل أي شيء في سبيل استعادتها.

كانت تكاد تتخيّل وجوده هنا - في المقطورة، جالساً بجوارها - وإذا نظرت عبر النافذة، توقعت أن ترى انعكاسه على الزجاج بجوار انعكاسها، فوق مشهد الحقول المسافرة.

لكنها رأت وجهاً مختلفاً عوض ذلك.

وجهَ رجلٍ يحدق فيها.

طرفت بعينيها في وهنٍ، وحولّت نظرها عن النافذة لتنظر إليه.

كان الرجل جالساً على المقعد المقابل، يقضم تفاحة.

ابتسم لها.

9

واصل الرجل التحديق في ماريانا، رغم أن نعته بـ«الرجل» كان كرماً منها.

بدا كما لو أنه في العشرينات من عمره: وجه طفولي، شعر بنيّ أجعد، ونمش مبثوث على خدّين أمردين جعلاه يبدو أصغر سناً حتى.

كان طويلاً ونحيفاً، يرتدي سترة من القماش القطني المضلع غامقة اللون، وقميصاً أبيض متغضّناً، ووشاحاً جامعيّاً بالأزرق والأحمر والأبيض. كانت عيناه البنّيتان المحجوبتان جزئياً خلف نظارات عتيقة الطراز ذات إطار معدني تشعّان فِطنة وفضولاً، وتتأملان ماريانا باهتمام صريح.

«كيف حالك؟»، قال.

أمعنت ماريانا النظر فيه قليلاً وقد التبس عليها الأمر شيئاً ما.

«هل... هل سبق أن تعارفنا؟».

علت وجهَه ابتسامةٌ عريضةٌ.

«لا، ليس بعد. لكنني آمل ذلك».

لم تعلّق ماريانا. أشاحت بوجهها عنه. خيّم الصمت وهلة، ثم حاول مجدداً.

«أتريدين واحدة؟».

مدّ لها كيساً ورقيّاً بنيّ اللون طافحاً بالفواكه: عنب، موز، وتفاح.

«خذي واحدة»، قال وهو يعرض الفاكهة على ماريانا. «خذي موزة».

ابتسمت ماريانا بأدب. كان صوته لطيفاً، فكّرت في سرها. هزت رأسها.

«لا، شكراً».

«هل أنت متأكدة تماماً؟».

«أجل».

التفتت ماريانا ونظرت بعيداً، آمِلةً أن تنهي بذلك المحادثة. كانت تستطيع رؤية انعكاسه على النافذة، فراقبته وهو يهزّ كتفيه في خيبة أمل. كان من الجليّ أنه لا يتحكم تماماً في أطرافه الطويلة، وانتهى به المطاف أن أطاح بكأسه وأهرقها، فانسكب قليل من الشاي على الطاولة، لكن معظم السائل وقع على حِجره.

«اللعنة!».

قفز من مكانه وأخرج منديلاً من جيبه. مسح بُرَيكة الشاي من على الطاولة، ونقر على البقعة على سرواله. علت سحنتَه نظرةُ اعتذارٍ.

«آسف على ذلك. لم يبلغكِ أي رذاذٍ، أليس كذلك؟».

«كلا».

«حسنٌ».

استقرّ بمقعده مجدداً. كان بإمكانها الشعور بوقع نظراته عليها. قال بعد لحظات:

«هل أنت... طالبة؟».

هزّت ماريانا رأسها نافية: «لا».

«آه. أتعملين في كامبريدج؟».

هزّت ماريانا رأسها: «لا».

«أنت... سائحة إذاً؟».

«لا».

«اممم...». قطّب حاجبيه وزمّ شفتيه، وقد التبس عليه الأمرُ.

ظل الصمت سيد المكان للحظة، ثم استسلمت ماريانا وقالت: «أنا في زيارة لشخص ما... ابنة أختي».

«آه، أنتِ خالة إذاً».

بدا مرتاحاً بعد أن نجح في تصنيف ماريانا في خانة معينة. ابتسم.

«أنا طالب دكتوراه»، قال مبادراً إلى التعريف عن نفسه لمّا لم يبدُ على مريانا أنها ستسأله. «أتخصّص في الرياضيات... الفيزياء النظرية، لأكون أكثر دقة».

توقف لحظة وخلع نظاراته لمسحها بمنديلٍ قماشيٍّ. بدا عارياً من دونها، ورأت ماريانا، لأول مرة، أنه وسيم، أو أنه سيكون كذلك حين يتقدّم قليلاً في السن.

أعاد وضع نظاراته ثم حدق فيها من جديد.

«أدعى فريدريك بالمناسبة. أو فريد. ما اسمك؟».

لم ترغب ماريانا في إخبار فريد باسمها. ربما لأنها راودها شعور - مزعج رغم أنه يحمل بعض الإطراء - بأنه كان يحاول

مغازلتها. وفضلاً عن كونه أصغر منها سناً، فإنها لم تكن مستعدة - ولن تكون مستعدة أبداً - ومجرد التفكير في ذلك جعلها تشعر بأنها اقترفت خيانةً مقززةً. أجابت بلطافةٍ متكلّفةٍ.

«اسمي... ماريانا».

«آه، إنه اسمٌ جميلٌ».

واصل فريد كلامه، محاولاً جعلها تنخرط معه في المحادثة، إلا أن أجوبة ماريانا ظلت مقتضبة جدّاً، لا تتعدّى الكلمة الواحدة. كانت تحسب في سرها الدقائق المتبقية قبل الإفلات منه.

حين وصلا إلى كامبريدج، حاولت ماريانا الانسلال والاختفاء وسط الحشد، إلا أن فريد لحق بها خارج محطة القطار.

«هل أستطيع مرافقتك إلى البلدة؟ على متن الحافلة، ربما؟».

«أفضّل المشي».

«رائع. لديّ دراجتي هنا. يمكنني المشي معك. أو يمكنك ركوبها إذا كنت تفضّلين ذلك؟».

نظر إليها آملاً، فشعرت ماريانا رغماً عنها بالشفقة تجاهه، لكنها ردّت بنبرةٍ أكثر صرامةً هذه المرة.

«أنا... أفضّل أن أظلَّ وحدي، إذا كنت لا تمانع».

«بالطبع... حسناً. فهمت. ربما... كوب قهوة لاحقاً؟ أو كأس؟ الليلة؟».

هزّت ماريانا رأسها وتظاهرت بأنها تتفقّد ساعتها اليدوية. «لن أظل هنا كل هذا الوقت».

«حسناً، ربما... أستطيع الحصول على رقمك؟». ينِع وجهه قليلاً، واحمرّ النمش على خدّيه. «أيمكني...؟».

هزّت ماريانا رأسها باقتضابٍ: «لا أظن. . . ».

«لا؟».

«لا». أشاحت ماريانا بوجهها، خجلى. «أنا. . . أنا آسفة. . . ».

«لا تأسفي. هذا لن يُثنيني. . . سنلتقي مجدداً».

شيء ما في نبرته جعلها تتوتر قليلاً. «لا أظن ذلك».

«أوه، بلى سنفعل. أستطيع تنبؤ ذلك. لديّ موهبة فيما يخص هذه الأمور. إنها تسري في شجرة عائلتي: التنبؤ، التوجّس. إني أرى أشياء لا يراها الآخرون».

ابتسم فريد وخطا نحو الطريق، فزاغ درّاج عن مساره متفادِياً الاصطدام به.

«احذر!»، قالت ماريانا وهي تلمس ذراعه. كالَ الدرّاج له الشتائم وهو يتجاوزه.

«آسف. أخشى أنني أرعن»، قال لها.

«شيئاً ما فقط»، قالت ماريانا مبتسمة. «وداعاً، يا فريد».

«إلى أن نلتقي مجدداً، يا ماريانا».

مضى باتجاه الدراجات الهوائية المرصوفة، وراقبته ماريانا وهو يمر بمحاذاتها ليمضي ملوّحاً لها، ثم دار عند زاوية الطريق واختفى.

تنفّست ماريانا الصعداء، وبدأت مسيرها نحو البلدة.

10

وهي تتقدم نحو كلية سانت كريستوفر، بدأ قلقها يتصاعد بشأن ما قد تجده هناك.

لم تكن لديها أدنى فكرة عما يجب توقعه. قد تكون الشرطة، أو الصحافة، هناك. لكن صَعُب عليها تصديق ذلك وهي تنظر إلى شوارع كامبريدج: لم تكن هناك أدنى إشارةٍ على أن أي شيءٍ خارج عن المألوف قد وقع؛ لا علامة على أن جريمة قتل قد حدثت هنا.

مقارنةً بلندن، بدا وكأن المكان يغشاه ستار من السكينة. كان هناك بالكاد بضع عربات على الطرقات، والصوت الوحيد بالأرجاء كان زقزقة العصافير، تتخلّلها أصوات جوقة من أجراس الدراجات الهوائية لطلاب يمضون في أزيائهم الجامعية السوداء، مثل سربٍ من الطيور.

وهي تمشي، راود ماريانا شعورٌ غريب بأنها مراقَبة - أو ملاحَقة - وتساءلت عما إذا كان فريد قد عاد بدراجته ليتبعها ويتعقّب خطاها، لكنها وصمت تلك الفكرة بالبارانويا وتجاهلتها.

مع ذلك، ألقت نظرة خلف كتفها بضع مرات للتأكد، وبالطبع، لم يكن هناك أحد.

حين اقتربت من الكلية، ازداد ما يحيط بها جمالاً مع كل خطوة خطتها: كانت هناك أبراجٌ مدبّبةُ الرأس وقِلاعٌ فوق رأسها، وأشجار زانٍ مصطفة على جانبَي الطريق تلقي بأوراقها الذهبية المكوّمة على طول الرصيف. وكانت الدراجات الهوائية السوداء مربوطة إلى سياج من الحديد المطاوع، وفوق السياج كانت أُصُصُ أزهارٍ غُرنوقيّةٍ تبثّ الحياة في قرميد جدران الكلية بلطخاتٍ من الوردي والأبيض.

ألقت ماريانا نظرة صوب مجموعة من الطلبة - يُفترض أنهم في السنة الأولى - يقرأون باهتمام شديد الملصقات على السياج التي تعلن عن أنشطة أسبوع الترحيب بالطلاب الجدد.

بدا هؤلاء الطلاب الجدد صغاراً جداً، بدوا أشبه بأطفال حديثي الولادة. أكانت هي وسيباستيان يبدوان يوماً بمثل هذا الصِّغَر؟ بدا ذلك مستحيلاً على نحو ما. وبدا أصعبَ تخيّلُ أنّ أيَّ شيء سيئ قد يحدث لهذه الوجوه البريئة التي لا تشوبها شائبة. لكنها تساءلت كم منهم سيكون الفقدُ والبؤسُ من نصيبه في المستقبل.

عاد ذهن ماريانا لاستحضار تلك الفتاة المسكينة التي قُتلت بجوار المستنقع، أياً تكن هويتها. فحتى ولو لم تكن تارا، صديقة زوي، فقد كانت صديقة أحدهم، وابنة أحدهم. ذاك كان الجانبَ المرعب من الأمر. كلنا نتمنى أن تحلّ المآسي بأناس آخرين، لكن ماريانا كانت تعلم أنه، عاجلاً أم آجلاً، ستطرق المآسي بابكَ يوماً.

لم يكن الموت بغريبٍ عن ماريانا. كان رفيق رحلتها منذ الطفولة، ظلّ غير بعيدٍ عنها، يحوم خلف كتفيها. كانت تشعر أحياناً كما لو أن لعنةً حلّت بها، من إحدى الآلهة الشريرة من أسطورة إغريقية، لتفقد كل عزيز على قلبها. كان السرطان هو ما أودى بوالدتها حين كانت طفلة رضيعة. ثم بعد ذلك بسنين، كان حادث

سير مروّع هو ما أزهق روحَي شقيقتها وزوجها، تاركَين خلفهما زوي يتيمةً. وزحفت سكتة قلبية على صدر والدها في البستان لتتركه صريعاً على سريرٍ من الزيتون الدّبق المهروس.

وأخيراً - أكبر الكوارث وأشدّها - كان هناك سيباستيان.

لم يُمضيا إلا سنوات قليلة معاً. فبعد تخرجهما، انتقلا إلى لندن، وبدأت ماريانا الرحلة الدائرية التي انتهت بأن أصبحت معالِجة نفسية متخصصة في العلاج الجماعي، في حين أن سيباستيان كان يعمل في إحدى مؤسسات الأسواق المالية، إلا أنه كانت له روحٌ مقاولاتيّةٌ عنيدةٌ وأراد أن يكون له مشروعه الخاص، فاقترحت ماريانا أن يتحدث إلى والدها بخصوص ذلك.

كم كانت ساذجة حقاً. كانت تضمر سرّاً أملاً عاطفياً بأن يحتضن والدُها سيباستيان، ويدخله مجال التجارة العائلة؛ أن يجعله وريثه، قبل أن يمر الميراث يوماً إلى أبنائهما. إلى هذا الحد مضى بها خيالها، لكنها كانت ذكية كفاية كيلا تشارك والدها أو سيباستيان أيّاً من ذلك. وعلى أية حال، فقد كان لقاؤهما الأول كارثياً، إذ استقل سيباستيان طائرة إلى أثينا في مهمة عاطفية، أن يطلب يدها من والدها للزواج، وقد كره والدها سيباستيان ما إن التقى به. وعوضاً عن منحه عملاً، اتهمه بأنه طمّاع أشِر، وأخبر ماريانا بأنه سيحرمها من الميراث يومَ تُقدِم على الزواج منه.

ومن سخرية القدر أن سيباستيان ولج في الأخير مجال الشحن، ولكن على الطرف النقيض من تجارة والدها، إذ أدار سيباستيان ظهره للقطاع التجاري وانخرط في إعداد مشاريع تساعد على نقل البضائع ذات الأهمية القصوى - الغذاء والاحتياجات الأساسية الأخرى - للمجتمعات الهشة والمهمّشة حول العالم. فكرت ماريانا

أنه كان، على عدة مستويات، الصورة المقابلة لوالدها، ووجدت في ذلك مصدر فخرٍ عظيمٍ لها.

حين مات العجوز المضطرب أخيراً، فاجأهم جميعاً مجدداً، إذ ترك كل شيء لماريانا في نهاية المطاف. ثروة هائلة! وصُعق سيباستيان حين أدرك أن رجلاً بمثل ثرائه كان يعيش بتلك الطريقة: «أقصد، مثل شخص مُعوِز. لم يستمتع بشيء. ما نفع كل ذلك المال إذاً؟».

كان على ماريانا التفكير وهلة. «الأمان!»، انتهت بالقول. «كان يؤمن بأن كل تلك الأموال ستحميه بطريقة ما. أظن أن... أنه كان خائفاً».

«خائفاً... مِمَّ كان خائفاً؟».

لم تجد ماريانا جواباً لهذا السؤال. هزّت رأسها فحسب. «لستُ متأكدة إن كان هو نفسُه يعرف ذلك».

رغم هذا الميراث، لم تنفق هي وسيباستيان أموالاً على أيّ شيء باذخ، باستثناء أمرٍ وحيدٍ: اشتريا البيت الأصفر الصغير عند سفح تل بْرِيمْروز هيل، بعد أن أُغرما به من أول نظرة. أما باقي المال فقد وُضع جانباً - تحت إصرار سيباستيان - من أجل المستقبل، ومن أجل أطفالهما.

مسألة الأطفال هذه كانت النقطة الوحيدة التي سبّبت لهما الصداع؛ كدمة لم يستطع سيباستيان منع نفسه عن حكّها من حين لآخر، فيفتح الموضوع بعد أن يسرف في الشرب، أو خلال إحدى المرات النادرة التي يتشاحنان فيها. كان يرغب في أن يكون له أطفال وبشدة - ولد وبنت - ليكمل صورة الأسرة المثالية التي كانت في ذهنه. ورغم أن ماريانا كانت ترغب أيضاً في إنجاب الأطفال،

إلا أنها آثرت الانتظار قليلاً. كانت تريد إنهاء تدريبها وإرساء مهنتها بثباتٍ - وهو الأمر الذي قد يتطلب بضع سنوات؛ ولكن ما الخطب في ذلك؟ لديهما كل الوقت الذي يحتاجان إليه، أليس كذلك؟

إلا أنه لم يكن لديهما الوقت. وقد كان ذلك ندمَ ماريانا الوحيد: كونها تصرفت بعناد وعجرفة، ولم تحمِ نفسها من مكر الزمان وغدره.مكتبة سُر مَن قرأ

وحين قررت وهي في بداية الثلاثينات من عمرها أن تشرع في محاولة الإنجاب، وجدت صعوبة في الحمل، وجعلتها هذه العقبة غير المتوقَّعة قلقةً متوترةً، وهو الأمر الذي نبّهها طبيبُها إلى أنه حتماً لن يساعد وضعها، بل سيزيده سوءاً.

كان د. بيك رجلاً كبير السن له هالة أبوية، وهو الأمر الذي طمأن ماريانا. وقبل الانخراط في تحاليل الخصوبة والعلاجات المحتملة، اقترح أن تذهب هي وسيباستيان في عطلةٍ، بعيداً عن كل توتر.

«استمتعا بوقتكما، استرخيا على الشاطئ لبضعة أسابيع... ولنرَ ما سيحدث بعدها. شيء من الاسترخاء قد يُحدث المعجزات»، قال د. بيك وهو يغمز لهما.

لكن سيباستيان لم يكن متحمساً؛ كان لديه الكثير من العمل ولم يرغب في مغادرة لندن. واكتشفت ماريانا لاحقاً أنه كان يرزح تحت وطأة ضائقة مالية خانقة، إذ إن العديد من مشاريعه كانت تعاني في فصل الصيف ذاك، وقد منعه كبرياؤه من أن يقصدها طلباً للمال، فلم يسبق له أن أخذ منها ملّيماً واحداً. شعرت بقلبها ينفطر عند اكتشافها، بعد وفاته، أنه خلال الأشهر الأخيرة من حياته كان يرزح تحت وطأة كل هذا الهمّ الذي لم يكن له داعٍ. كيف لم تلاحظ

ذلك؟ حقيقة الأمر أنها كانت بكل أنانية منهمكة في همومها الخاصة خلال ذلك الصيف، تفكر في الإنجاب.

فأرغمت سيباستيان على أخذ أسبوعَي عطلة في أغسطس من أجل رحلة إلى اليونان لزيارة منزل عائلتها الصيفي، وهو بيت يعلو منحدراً على جزيرة ناكسوس.

استقلّا طائرة إلى أثينا، ومن الميناء هناك استقلا زورقاً إلى الجزيرة. كان عبوراً ميموناً، فكرت ماريانا؛ لا سحابة واحدة في السماء، والمياه هادئة، وسطحها مستقر.

في ميناء ناكسوس، استأجرا سيارة ومضيا عبر الطريق الساحلية وصولاً إلى المنزل. كان المنزل ملكاً لوالدها وهو الآن، تقنياً، ملك لها ولسيباستيان، رغم أنه لم يسبق لهما استغلاله قطّ.

كان المنزل متداعياً ويكسوه الغبار، ولكن موقعه كان خلّاباً؛ أعلى منحدر، يطل على بحر إيجة. تم حفر درج في الصخور على الجهة الأمامية للمنحدر، يقود إلى الشاطئ. وهناك بالأسفل، على مدى ملايين السنين، تكسّرت ملايين القطع المرجانية الوردية واختلطت بحبّات الرمل، مُضفِيةً على الشاطئ لمعاناً وردياً رفقة السماء والبحر الأزرقين. كان مشهداً مثالياً، فكرت ماريانا، وسحرياً كذلك. شعرت بالارتياح يغمرها بالفعل، وأملت في سرها أن يحقق الإله ناكسوس المعجزة الصغيرة التي قدمت إليه من أجلها.

أمضيا أول يومين في استرخاءٍ وتكاسلٍ على الشاطئ. وقال سيباستيان إنهما حسناً فَعَلا بقدومهما، إذ كان ينعم بالاسترخاء لأول مرة منذ أشهرٍ طِوال. واعتاد منذ أيام المدرسة أن يقرأ روايات الغموض على الشاطئ، فاستلقى منهمكاً في قراءة رواية **جرائم**

الأبجدية[1] لأغاثا كريستي، بينما استسلمت ماريانا لنوم لذيذ تحت مظلة على الرمل.

ثم، في اليوم الثالث، اقترحت ماريانا الذهاب إلى التلال لرؤية المعبد القديم.

كانت تذكر زيارتها للمعبد وهي طفلة تطوف عبر الآثار وتُضفي عليها كل أنواع السحر في مخيلتها. أرادت أن يخوض سيباستيان تلك التجربة، فحزما لوازم التنزه وانطلقا. سلكا الطريق الجبلي القديم الذي يغدو أضيَق فأضيَق كلما صعدا نحو التلال، لينتهي على شكل طريق طيني يغطيه روث المعز.

وهناك في القمة، على أرض منبسطة، كانت ترقد آثار المعبد.

بُني المعبد الإغريقي القديم من الرخام الناكسِيّ، الذي كان لمّاعاً في السابق إلا أنه الآن مغطى بطبقة من غبار أبيض، آثار الزمن بادية عليه. وكل ما بقي منتصباً، بعد ثلاثة آلاف سنة، هو مجموعة من الأعمدة المكسورة على خلفية سماء زرقاء هائلة.

كان المعبد مخصصاً لديميتر، إلهة الحصاد والحياة؛ ولابنتها بيرسيفون، إلهة الموت، فلطالما كانت الإلهتان في الغالب تُقدّسان معاً، كوجهَي عملة: الأم وابنتها، الحياة والموت. في اللغة اليونانية القديمة، تعرف بيرسيفون باسم **كوري**، ومعناه: «البتول».

كانت بقعةً رائعةً من أجل نزهة. افترشا البطانية الزرقاء تحت ظلٍّ وفيرٍ أرقط لشجرة زيتون، ثم أفرغا محتويات صندوق التبريد: قنينة نبيذ سوفينيون أبيض، حبّة بطيخ، وقطع كبيرة من الجبن اليوناني المملّح. نسيا إحضار سكين، فكسر سيباستيان البطيخة على إحدى

---

(1) *The ABC Murders* by Agatha Christie - المترجم.

الصخور مثل جمجمة هشة، محطماً إياها إلى أجزاء. تناولا لبّها الحلو، وبصقا البذور خارجاً.

قبّلها سيباستيان بشفتين دبقتين: «أحبك»، همس لها. «إلى الأبد وما بعد الأبد...».

«... وإلى ما بعدَ بعد الأبد»، قالت وهي تقبّله بدورها.

بعد انتهاء نزهتهما، مضيا عبر الآثار. راقبت ماريانا سيباستيان يحثّ الخطى مثل طفلٍ متحمّسٍ. وهي تراقبه، تلت في سرّها دعاءً صامتاً للإلهتين ديميتر والبتول. دعت لها ولسيباستيان، لسعادتهما، ولحبهما.

وهي تهمس بذلك الدّعاء، تسللت سحابة أمام الشمس وحجبتها؛ وللحظةٍ، انسدل الظل على جسد سيباستيان الواقف أمام الزرقة الشاسعة للسماء. ارتجفت ماريانا، وشعرت بوجلٍ يتسلل إلى قلبها دون أن تدري سبب ذلك.

انقضت تلك اللحظة ومضت بعيداً بنفس السرعة التي أتت بها، وفي غضون ثانية، أشرقت الشمس من جديد ونسيت ماريانا كل شيء بخصوصها.

لكنها تذكرتها لاحقاً بالطبع.

صباح اليوم الموالي، استيقظ سيباستيان عند الفجر. ارتدى حذاءه الرياضي القديم الأخضر، وهمس لماريانا أنه ذاهب للجري على الشاطئ. قبّلها وخرج.

رقدت ماريانا على السرير، نصف نعسى ونصف صاحيةٍ، واعيةً بمرور الوقت، تستمع إلى صوت الرياح التي تعوي بالخارج. كان في البداية نسيماً بحريّاً، لكن سرعان ما بدأت قوته وسرعته تزدادان،

مبعثراً أغضان الزيتون، مُحدِثاً جلبةً ووَلْوَلةً، جاعلاً الأشجار تخبط على النوافذ مثل الأصابع على الزجاج.

تساءلت ماريانا فجأة عن حجم الأمواج، عما إذا كان سيباستيان قد ذهب ليسبح، فقد دأب على فعل ذلك بعد الجري. لكنها لم تكن قلقة، فهو سبّاح ماهر، ورجل قوي. إنه لا يُقهر، فكّرت في سرّها.

اشتدّت قوة الرياح أكثر فأكثر، قادمة من المحيط في دوامات، لكنه لم يعُد إلى المنزل.

بدأ القلق يساورها، وفي محاولتها لعدم الاستسلام لتلك التهيؤات، غادرت البيت.

نزلت السلالم على الجهة الأمامية للمنحدر الصخري، متشبثة - خلال نزولها - بالصخور بشدّة، مخافة أن تهبّ العاصفة فتلقي بها.

حين بلغت الشاطئ، لم يكن هناك أثر لسيباستيان. كانت دوامات الرياح الإعصارية تقذف بالرمال الوردية نحو وجهها، فكانت مضطرة لحجب عينيها بيديها وهي تبحث عنه. لم تلمحه داخل الماء كذلك. كل ما رأت كان أمواجاً سوداء هائلة بزبدها الذي يعلو البحر ويحجب الأفق.

شرعت في مناداته: «سيباستيان! سيباستيان! سيب. . .».

لكن الريح ردّت كلامها على وجهها. شعرت بالذعر يدبّ في نفسها. لم تعد قادرة على التفكير، والريح الشمطاء تعوي في أذنيها، وخلفها جوق من الزيزان اللانهائية، أصواتها مثل خفخفة ضباع.

وأخفُّ من ذلك، على بعد مسافة طويلة، أكان ذلكَ صوت ضحكةٍ؟

ضحكةٍ باردةٍ ساخرةٍ لإلهة؟

لا، لا، توقفي، توقفي، قالت في سرّها. كان عليها أن تركز، أن تشحذ تركيزها، أن تعثر عليه. أين كان؟ لا يمكن أن يكون قد ذهب ليسبح. ليس في طقس كهذا. لا يمكن أن يكون بهذا الغباء...

ثم رأته.

رأت الحذاء.

حذاءه الأخضر القديم، موضوعاً بعناية على الرمل... عند حافة الماء.

بعد ذلك، صار كل شيء ضبابياً. انطلقت ماريانا نحو الماء في هيستيريّة، تصرخ مثل العُقاب... تصرخ وتصرخ...

وبعدها... لا شيء.

بعد ذلك بثلاثة أيام، لفظ البحر جثة سيباستيان إلى الشاطئ.

11

كان قد مضى أربعة عشر شهراً على وفاة سيباستيان. لكن ماريانا كانت لا تزال - من عدة نواحٍ - محتجَزةً هناك، على شاطئ ناكسوس، وهناك ستظل إلى الأبد.

كانت عالقةً، مشلولةً، كما كانت الإلهة ديميتر ذات مرة، حين اختطف هاديس ابنتها المحبوبة، بيرسيفون، وأخذها إلى العالم السفلي لتكون عروسه. انهارت ديميتر، وغمرها الأسى. رفضت أن تتحرك أو يتم تحريكها. ظلت جالسة تبكي بكاءً مريراً فحسب، وكان العالم من حولها برمّته كميداً معها: استحال الصيفُ شتاءً، والنهارُ ليلاً. دخلت الأرض في حِدادٍ، أو الأصح: في ميلانخوليا.

كانت ماريانا تفهم ذلك الشعور جيداً. والآن، مع اقترابها من كلية سانت كريستوفر أكثر فأكثر، انتبهت إلى رجفةٍ متعاظمةٍ تغشاها، إذ إن الشوارع المألوفة صعّبت عليها إيقاف سيل الذكريات الجارف في ذهنها؛ كان طيف سيباستيان في انتظارها عند كل زاوية. أبقت رأسها مطأطأً ولم تنظر أمامها، كما لو كانت جندياً يحاول المرور خلسةً إلى أراضي العدو. كان عليها أن تتمالك نفسها إذا أرادت أن تكون ذات فائدة لزوي التي في حاجة إليها.

لذلك أتت إلى هنا أساساً، من أجل زوي. فما كانت لترغب أبداً في العودة إلى كامبريدج مجدداً، وبدا الأمر أصعب مما كانت تعتقد. لكنها ستفعل ذلك من أجل زوي. فزوي هي كل ما بقي لها.

انعطفت ماريانا عند شارع كينغز باريد نحو الجادة المفروشة بالحصى التي تعرفها جيداً، وواصلت طريقها بمحاذاة الحصى حتى بلغت بوابة خشبية عتيقة عند نهاية الشارع، فرفعت نظرها إليها.

كانت بوابة كلية سانت كريستوفر بضعف طولها على الأقل، تتوسط جداراً عتيقاً يعلوه طوبٌ أحمر. تذكرت أول مرة اقتربت فيها من هذه البوابة حين قدمت من اليونان من أجل مقابلات القبول، وهي لم تتجاوز السبعة عشر ربيعاً، يراودها شعور بالضآلة والتدليس، بالخوف والوحدة.

كم هو غريبٌ أن المشاعرَ نفسها تراودها مجدداً الآن، بعد ما يقارب العشرين سنة.

دفعت البوابة وولجت إلى الداخل.

12

كانت كلية سانت كريستوفر لا تزال كما تذكرها.

كانت ماريانا خائفة من رؤيتها مجدداً - كونها مسرح قصة حبها الحزينة - ولكن لحسن الحظ أن جمالَ الكلية أطل عليها فأنقذها. قلبها لم يَنفطر، بل شَدا طرباً.

كانت كلية سانت كريستوفر إحدى أقدم وأجمل كليات جامعة كامبريدج. صُمّمت من عدة ساحات وحدائق تمتد إلى الأسفل باتجاه النهر، وبُنيت بمزيج من أنماط الفن المعماري - القوطي، النيو كلاسيكي، ومعمار عصر النهضة - إذ تم بناؤها وتوسيعها على مدى قرون عديدة. وقد كانت في مجملها إضافات اعتباطية تناغمت بطريقة ما، ورأتها ماريانا بعين الرضا والجمال.

كانت تقف بالقرب من كوخ البوّابين في الساحة الرئيسية، وهي أولى وأكبر الساحات. امتد مرج أخضر مثالي أمام ناظريها، وصولاً إلى الحائط الأخضر الغامق المغطى بنبات الوستارية على الجهة المقابلة من الفناء. تدلّت الخضرة المرشوشة بالبياض على القرميد مثل نسيجٍ متقنٍ، وصولاً إلى جدران الكنيسة الصغيرة. كان زجاجها المزخرف يلمع بانعكاسات خضراء وزرقاء وحمراء تحت أشعة

الشمس، ومن الداخل، تناهى إلى مَسمَعها صوت جوقة الجامعة وهي تتدرب، والأصوات تتعالى في تناغم.

أخبر صوتٌ هامسٌ - صوت سيباستيان ربما؟ - ماريانا بأنها في أمانٍ هنا. بإمكانها أن تستريح وتجد السكينة الذي تصبو إليها.

ارتخى جسمها، وكادت تصدر عنها تنهيدة ارتياح. راودها شعورٌ غير مألوفٍ بالرضا: جعلها عمر هذه الجدران، هذه الأعمدة والأقبية، التي لم يُبلِها الزمان أو يغيّرها، ترى الأسى الذي تحمله بداخلها من زاوية جديدة. رأت أن هذا المكان السحري لم يكن ملكاً لها أو لسيباستيان؛ هذا المكان مِلك نفسه. وقصتهما لا تعدو كونها واحدة من قصص عديدة جرت أحداثها هنا، ليست أكثر أهمية من باقي القصص.

نظرت من حولها مبتسمة وهي تراقب نشاط المكان كما لو كانت داخل خلية نحل. ورغم أن الفصل الجامعي الأول قد انطلق منذ وقت قصير، إلا أن التجهيزات المرتجلة كانت تجري على قدم وساق، وكان هناك إحساسٌ ملموسٌ بنوعٍ من التّرقّب يسري في المكان، كما لو أنها خشبة مسرحٍ قُبيل عرضٍ ما. كان بستانيٌّ يجزّ العشب على الجهة الأخرى من المرج، وكان حارس - ببذلة وأُرصوصة سوداوين ومئزر أخضر طويل - ينظّف السوابيط والزوايا والشقوق بالأعلى، ويزيل شباك العناكب مستعملاً عصا طويلة في نهايتها منفضة غبار ريشيّة، كما قام بضعة حرّاس آخرين بصفّ المقاعد الخشبية على المرج، من أجل التقاط الصور الجامعية على الأرجح.

راقبت ماريانا مراهقاً في السنة الأولى بدا عليه التوتر يشق طريقه عبر الساحة، برفقة أبوين مشاحنَين ممسكَين بحقائب. ابتسمت ماريانا بحبورٍ لرؤية ذلك.

بعد ذلك، وعلى الجهة المقابلة من الساحة، لمحت شيئاً آخر: تجمّعُ بدلاتٍ داكنة اللّون لضبّاط شرطة، فتبدّدت الابتسامة عن شفتيها شيئاً فشيئاً.

كان ضباط الشرطة خارجين من مكتب العميد، يرافقهم هذا الأخير. وحتى من مسافتها تلك، استطاعت ماريانا أن ترى وجه العميد اليانع والمهتاج.

كان هذا يعني شيئاً وحيداً لا غير. أن الأسوأ قد وقع. كانت الشرطة هنا: كانت زوي محقة. كانت تارا ميتة، وكانت جثتها تلك التي اكتُشفت بجوار المستنقع.

كان على ماريانا العثور على زوي. الآن. استدارت وهرعت نحو الساحة التالية.

غارقةً في أفكارها، لم تسمع الرجل يناديها باسمها حتى كرّر نداءه.

«ماريانا! ماريانا!».

استدارت. كان رجل يلوّح لها. حشّفت عينيها، ولكنها لم تتعرف على هويته. لكنه بدا أنه يعرفها.

«ماريانا»، قال مجدداً، هذه المرة بثقة أكبر. «انتظري مكانك».

توقفت ماريانا، وانتظرت الرجل وهو يتخطى الحصى باتجاهها، بابتسامة عريضة.

بالطبع، فكّرت، إنه جوليان.

لقد تعرفت عليه من ابتسامته، وهي ابتسامة مشهورة هذه الأيام.

درس جوليان آشكروفت وماريانا تخصص العلاج النفسي معاً في لندن. لم تره منذ سنوات، باستثناء المرات التي رأته فيها على

التلفاز، إذ إنه كان يتردد كثيراً كضيفٍ على برامج الأخبار ووثائقيات الجرائم. تخصص جوليان في علم النفس الشرعي، وقد كتب أحد الكتب الأكثر مبيعاً عن القتلة المتسلسلين البريطانيين وأمهاتهم. بدا وكأنه يجد تلذّذاً شهوانيّاً في كل ما يتعلق بالجنون والموت، وهو أمر وجدته ماريانا بغيضاً.

تفحصته وهو يقترب منها. كان جوليان الآن في نهاية عقده الثالث، وبطول متوسط، يرتدي سترة زرقاء أنيقة، وقميصاً أبيض نظيفاً، وسروال جينز أزرق غامقاً. كان شعره أشعث بتفنّن (كما لو أنه رتّبه ليبدو غير مرتّب)، وكانت له عينان زرقاوان ثاقبتان، وابتسامة بيضاء مثالية، لا يتردد في استعمالها. كان هناك شيءٌ مصطَنَعٌ بخصوصه، فكرت ماريانا، وهو أمر جعله مناسباً تماماً للظهور على التلفاز.

«مرحباً، جوليان».

«ماريانا»، قال وهو يمد يده. «يا لها من مفاجأة سارّة! توقعت أن تكوني أنتِ. ماذا تفعلين هنا؟ لستِ هنا مع الشرطة، أليس كذلك؟».

«لا، لا. ابنة أختي تدرس هنا».

«أوه، حسن. سحقاً! ظننت أننا سنعمل معاً». كشف جوليان عن أسنانه النضيضة المثالية ثم خفض نبرة صوته، وكأنه يبوح بسرّ. «لقد استدعوني لأمد لهم يد العون».

حزرت ماريانا عماذا كان يتحدث، لكنها أوجست من الأمر خيفةً مع ذلك. لم تكن ترغب في تأكيد مخاوفها، لكن لم يكن أمامها خيار آخر.

«إنها تارا هامبتون، أليس كذلك؟».

تفاجأ جوليان لوهلة، ثم أومأ بالإيجاب. «هذا صحيح. لقد تم التعرف عليها للتو. كيف عرفت ذلك؟».

هزت ماريانا كتفيها: «لقد فُقدتْ منذ يومٍ أو ما يقرب من ذلك. ابنة أختي أخبرتني بذلك».

أدركت أن عينيها اغرورقتا بالدمع، فمسحتهما بسرعة. أبقت نظرها مثبّتاً على جوليان. «هل من خيوط في هذه المرحلة؟».

«لا». هزّ جوليان رأسه. «ليس بعد. لكن قريباً، نأمل ذلك. كلما كان أبكر، كان ذلك أفضل، صراحةً. لقد كان أمراً في منتهى الوحشية».

«أتظن أنها كانت تعرفه؟».

«يبدو ذلك محتملاً. فغالباً ما نخصّص هذا المستوى من الحنق لأعزّائنا والمقرّبين منا، ألا تظنين؟».

«ممكن». شرعت ماريانا تفكر في ذلك.

«أراهن أنه حبيبها».

«لا أعتقد أنه كان لها حبيب».

تفقّد جوليان ساعته. «يجب عليّ لقاء المفتش العام الآن، لكن سيسعدني أن أناقش معك هذا الموضوع أكثر... ربما حول مائدة؟». ابتسم لها. «كان من الرائع رؤيتك، يا ماريانا. لقد مضت سنين على آخر لقاء لنا... في الحقيقية، يجب أن نلتقي...».

لكن ماريانا كانت قد مضت مبتعدةً.

«آسفة، يا جوليان؛ عليّ إيجاد ابنة أختي».

مكتبة
t.me/soramnqraa

13

كانت غرفة زوي في ساحة إيروس، أحد الأفنية الصغيرة الذي يتكون من غرف للطلبة مبنية حول مرج مستطيل الشكل.

وسط المرج، انتصب تمثال لإيروس بألوان باهتة، يحمل قوساً وسهماً، وقد أبلَته قرون من المطر والصدأ، محوّلة إياه من مَلاك طفلٍ جميلٍ إلى رجلٍ أخضرَ طاعنٍ في السن.

صعدت سلالم عديدة حول الساحة، تقود إلى غرف الطلبة. وفي كل ركن انتصب برجٌ شاهقٌ من الصّخر الرمادي. وحين اقتربت ماريانا من أحدها، ألقت نظرة على إحدى نوافذ الطابق الثالث ولمحت زوي جالسة هناك.

لم ترَها زوي، فوقفت ماريانا هناك، تراقبها لبعض الوقت. كانت النوافذ مقوّسة، تتداخل عليها ألواح زجاجية ذات أشكال هندسية وإطارات من رصاص. كسّرت الألواح الصغيرة صورة زوي إلى قطع أحجية هندسية الشكل، ولبرهة، جمّعت ماريانا من قطع الأحجية صورة ليست لامرأة في العشرين من عمرها وإنما لفتاة في السادسة، شقية وحُلوة، بوجه متورّد وجدائل.

كانت ماريانا تُكنّ لتلك الفتاة الكثير من المودّة الممزوجة

بالقلق. فقد قاست تلك المسكينة زوي الأمرّين؛ خشيت ماريانا أن تُلحق بها مزيداً من الأذى بإلقاء هذا الخبر السيئ. هزّت رأسها، طاردةً تردّدها، وهرعت نحو السلالم.

تسلقّت السلالم الخشبية اللّولبيّة العتيقة وصولاً إلى غرفة زوي. كان الباب موارباً، فدخلت.

كانت غرفة صغيرة ومريحة، مبعثرة قليلاً في تلك اللحظة، إذ كانت الملابس ملقاة على الكراسي ذات مساند الذراعين، والأكواب المتسخة مكدسة في حوض المطبخ. كانت الغرفة تحوي مكتباً، ومدفئة صغيرة، ومقعداً مبطّناً عند مشربيّة النافذة، حيث كانت زوي جالسة الآن، تحيط بها الكتب.

حين رأت ماريانا، أطلقت صرخة صغيرة، ثم هبّت من مكانها وارتمت بين ذراعيها.

«لقد أتيتِ. لم أكن أظن أنك ستفعلين».

«حبيبتي، بالطبع أتيتُ».

حاولت ماريانا التراجع خطوة إلى الوراء، لكن زوي لم تفلتها، فلم يكن بوسع ماريانا سوى الاستسلام للعناق. شعرت بدفئه، وبحنانه، فلم يكن مألوفاً أن تُلمس بهذه الطريقة. أدركت كم كانت سعيدة برؤية زوي، واجتاحتها فجأةً عاطفة قوية.

بعد سيباستيان، كانت زوي أقرب شخص على قلب ماريانا. التحقت زوي بمدرسة داخلية في إنجلترا، فتبنّتها ماريانا وسيباستيان بطريقة غير رسمية، إذ كانت لها غرفة في البيت الأصفر، وكانت تأتي للمكوث معهما خلال العطل المدرسية والأعياد. لقد تلقّت دراستها بإنجلترا لأن والدها كان إنجليزياً، ما جعل من زوي ربع يونانية فقط. كان شعرها الفاتح مثل شعر والدها، وقد ورثت عنه

عينيه الزرقاوين، فلم يبدُ عليها في الحقيقة ذلك الربع اليوناني، وتساءلت ماريانا عما إذا كان سيظهر ذلك الجزء اليوناني منها يوماً؛ هذا في حال لم يخنقه التعليم الإنجليزي الخاص.

أفلتت زوي ماريانا من حضنها أخيراً، وألقت ماريانا، بكل ما أوتيت من رقة، خبر أن الجثة كانت لتارا فعلاً.

حدّقت فيها زوي، وانهمرت الدموع على خدّيها وهي تستوعب الخبر. احتضنتها ماريانا مجدداً، وتشبّثت بها زوي باكيةً.

«لا عليك»، همست لها ماريانا، «سيكون كل شيء على ما يرام».

قادتها ببطء إلى السرير وأجلستها، وحين تمكنت زوي من التوقف عن النشيج، أعدّت لها ماريانا بعض الشاي. غسلت كوبين من الحوض الصغير ووضعت الإبريق على النار.

كانت زوي طوال الوقت جالسة فوق السرير منتصبةً وركبتاها مضمومتان إلى صدرها، تحدّق في الفراغ، غير آبهةٍ بجدولَي الدموع اللذين يسيلان على خدّيها. كانت متشبّثةً بدميتها المحشوة القديمة، دمية حمار وحشي بالية مخططة بالأبيض والأسود. كانت تنقص الدميةَ عينٌ، وكانت مهترئةً عند الدّروز. وكونها رفيقة زوي منذ الطفولة، فقد عانت من سوء معاملة الطفلة لها أحياناً، وتلقّت فيض حنانها أحياناً أخرى. تشبّثت زوي بالدمية الآن، واعتصرتها في حضنها، متمايلة إلى الأمام والخلف.

وضعت ماريانا كوب الشاي الحلو فوق طاولة القهوة الفوضوية، ونظرت إلى زوي بقلقٍ، واستحضرت معاناة الفتاة من الاكتئاب الحادّ خلال مراهقتها. كانت تنتابها نوبات بكاء متكررة، تتخلّلها أمزجة باردة محايدة، خالية من المشاعر، كانت فيها مكتئبة

لدرجة لا تستطيع البكاء، وهي حالة وجدت ماريانا التعامل معها أصعبَ من التعامل مع الدموع. كان من الصعب جداً الوصول إلى زوي في تلك السنين، رغم أن مشاكلها لم تكن مفاجئة، كونها فقدت والديها الاثنين في سن مبكرة جداً.

كانت زوي تمكث معها ومع وسيباستيان خلال عطلتها المدرسية ذات شهر أبريل حين تلقّيا المكالمة الهاتفية التي ستغيّر حياتها إلى الأبد. كان سيباستيان مَن ردّ على الهاتف، وكان عليه إخبار زوي بوفاة والديها - شقيقة ماريانا وزوجها - في حادث سير. انهارت الفتاة فانحنى وضمّها إلى صدره. ومنذ تلك اللحظة، أغدقا على زوي حبّهما وحنانهما، ربما أكثر من اللازم قليلاً، لكن كون الطفلة فقدت والدتها، عقدت ماريانا العزم على توفير كل ما كانت هي ذاتها ترجوه في سن مبكرة: الحب الأمومي، والدفء، والحنان. وقد كانت المشاعر تسري في الاتجاهين، إذ شعرت بأن زوي تمنحها مقدارَ الحبِّ نفسَه الذي تتلقّاه منها.

في النهاية، وشيئاً فشيئاً، نجحت زوي في طيّ صفحة أساها وهي تكبر، وهو أمر أراحهما. بدأ اكتئابها يخفّ، واجتهدت في دراستها، مُنهيةً بذلك فترة مراهقتها على نحوٍ أفضل بكثير من الحال التي بدأتها بها. لكن كانت ماريانا وسيباستيان قلقَين بشأن قدرتها على التكيُّف مع الضغوط الاجتماعية في الجامعة، فشعرا بارتياح كبير حين عقدت صداقة مقرَّبة مع تارا. وبعد موت سيباستيان، كانت ماريانا ممتنة أن لزوي صديقةً مقرّبةً تشدّ أزرها، فلم يكن لماريانا صديق مقرب، إذ كانت قد فقدَته للتو.

ولكن كيف سيؤثر الآن فقدُ تارا - وهو فقدٌ مروّعٌ لصديقةٍ مقرّبةٍ - على زوي؟ لم يكن في وسعها إلا أن تنتظر وترى.

«زوي، هاكِ، اشربي بعض الشاي. إنه مفيد لتخفيف الصدمة».

لا استجابة.

«زوي؟».

بدا أن زوي تستطيع سماعها. نظرت إلى ماريانا بعينين باردتين شاردتين مغرورقتين بالدموع.

«إنه خطئي»، همست، «**إنه خطئي أنها ماتت**».

«لا تقولي ذلك. هذا ليس صحيحاً...».

«بل هو صحيح. اسمعيني. أنت لا تفهمين».

«ما الذي لا أفهمه؟».

جلست ماريانا عند حافة السرير وانتظرت أن تتابع زوي كلامها.

«إنه خطئي، يا ماريانا. كان عليّ أن أفعل شيئاً في تلك الليلة، بعد أن رأيت تارا... كان عليّ أن أخبر أحدهم... كان عليّ أن أتصل بالشرطة. فربما كانت ستظل على قيد الحياة...».

«الشرطة؟ لماذا؟».

لم تجب زوي. قطّبت ماريانا حاجبيها.

«بماذا أخبرَتكِ تارا؟ قلتِ إن ما قالته بدا ضرباً من الجنون».

اغرورقت عينا زوي بالدموع. تأرجحت إلى الأمام والخلف في صمتٍ وتجهّمٍ. كانت ماريانا تعلم أن أفضل مقاربةٍ للتعامل مع الوضع تتمثل في الوجود بقربها في صبرٍ، والسماح لها بتخفيف الحِمل عن نفسها بالوتيرة التي تريحها. لكن لم يكن هناك مُتّسَع من الوقت. تحدثت ماريانا بنبرةٍ خفيضة، مهدِّئة لكن حازمة.

«ماذا قالت لك، يا زوي؟».

«ما كان يجب أن أخبرك. لقد جعلتني تارا أقسم ألّا أخبر أحداً».

«أنا أفهم ذلك، أنتِ لا تريدين خيانة ثقتها بك. لكنني أخشى أن الأوان قد فات على ذلك».

حدّقت زوي في ماريانا. وحين نظرت هذه الأخيرة إلى وجهها، بخدّيها المحمرّين وعينيها الواسعتين، رأت فيهما عينَي طفلة: طفلة صغيرة، خائفة، بداخلها سرّ تتحرّق لإفشائه، لكنها خائفة من فعل ذلك.

استسلمت زوي في النهاية:

«الليلة قبل الماضية، أتت تارا إلى هنا للتحدث إليّ. كانت مضطربةً للغاية. كانت منتشيةً، تحت تأثير مخدرٍ ما، لا أدري ما هو. كانت حانقةً للغاية... وقالت... قالت إنها خائفة...».

«خائفة؟ ممَّ؟».

«قالت... إن أحدهم سيقتلها».

حدّقت ماريانا في زوي لوهلة. «تابعي. ماذا قالت أيضاً؟».

«جعلتني أقسم ألّا أخبر أحداً. قالت إنه في حال أخبرت أحدهم واكتشف هو الأمر، فسيقتلها».

«هو؟ من هذا الـ"هوَ" الذي تحدثت عنه؟ هل أخبرَتكِ بذلك؟».

أومأت زوي برأسها، لكنها لم تجب.

كررت ماريانا سؤالها. «من كان ذلك الشخص، يا زوي؟».

هزّت زوي رأسها في ترددٍ واضطرابٍ. «لقد بدت مجنونة...».

«لا يهم. أخبريني فحسب».

«قالت إنه أحد المدرّسين هنا. بروفيسور».

طرفت ماريانا بعينيها في صدمة. «هنا؟ في كلية سانت كريستوفر؟».

أومأت زوي برأسها. «أجل».

«حسناً. ما اسمه؟».

ترددت زوي. ثم تحدثت بنبرةٍ خفيضةٍ:

«إدوارد فوشكا».

14

بعد أقل من ساعة، كانت زوي تعيد كل ذلك على مسمع المفتش العام، سادو سانغا.

كان المفتش قد استولى على مكتب العميد واتخذ منه مقرّاً له. كانت غرفةً شاسعةً، تطل على الساحة الرئيسية، على أحد جدرانها خزانة كتبٍ من خشب الماهوغاني المنقوش تحتوي كتباً مجلدة، وكانت باقي الجدران مغطاة ببورتريهات للعُمداء السابقين، يراقبون ضباط الشرطة بأعين متوجّسة.

جلس سادو سانغا خلف المكتب العريض. فتح كظيمةً كان يحملها معه، وصبّ لنفسه كأس شاي. كان في بداية الخمسينات من عمره، ذا عينين داكنتين ولحية وشارب خفيفين، متأنقاً في سترة أنيقة رمادية اللون وربطة عنق. ولأنه كان سيخيّاً، فقد كان يضع عمامة، لونها أزرق ملكيّ يشدّ الأنظار. كان له حضورٌ قويٌّ وآمرٌ بالمكان، لكن كان هناك طيف طاقةٍ متوترةٍ يشعر بها المرء في صحبته - نظرة رشيقة ومتعطشة - وهو يهز قدمه أو ينقر بأصابعه طوال الوقت.

رأت ماريانا أنه انفعاليٌّ شيئاً ما. أعطى انطباعاً بأنه لا يصبّ

جام تركيزه على ما كانت تقوله زوي. لم يبدُ مهتماً. **إنه لا يأخذها على محمل الجد**، فكّرت ماريانا.

لكنها كانت مخطئة. فقد أخذها على محمل الجد.

وضع كوب الشاي من يده، وثبّت عينيه الداكنتين على زوي.

«وفيمَ فكّرتِ... حين أخبرَتكِ بذلك؟»، سأل زوي، «هل صدّقتِ كلامها؟».

«لا أدري...»، ردت زوي. «كانت مضطربةً تماماً. كانت... منتشِيةً. لكن كان ذلك حالَها على الدوام، لذا...». هزّت زوي كتفيها، وفكرت في الأمر لوهلة. «أقصد، بدا كلامها غريباً للغاية...».

«هل أخبرتك **لماذا** هدّد البروفيسور فوشكا بقتلها؟».

بدا على زوي عدم الارتياح. «قالت إنهما كانا على علاقة... وقد تشاجرا أو ما شابه... فهدّدته بأن تخبر الكلية بشأن علاقتهما، وأن تتسبّب في طرده. وقال إنها إذا فعلت...».

«سوف يقتلها؟».

أومأت زوي برأسها. بدا عليها الارتياح وقد انزاح ذلك الثقل الذي كان جاثماً على صدرها. «صحيح».

أخذ المفتش يتأمل ذلك لبعض الوقت، ثم انتصب واقفاً فجأة.

«سأذهب للتحدث إلى البروفيسور فوشكا. انتظريني هنا، هلا فعلتِ؟ وهناك أمر آخر، يا زوي: نحتاج منك أن تسجّلي إفادتك».

غادر الغرفة، وخلال غيابه، كرّرت زوي القصة على ضابط مبتدئ تولى كتابة أقوالها. انتظرت ماريانا بكَدَرٍ، متسائلةً عما يجري.

بعد حوالي الساعة، عاد المفتش سانغا، ثم جلس إلى المكتب من جديد.

«لقد كان البروفيسور فوشكا متعاوناً جداً. أخذتُ منه إفادته، وقال إن وقتَ وفاة تارا - في العاشرة مساءً - كان ينهي حصةً دراسيةً استمرت من الثامنة إلى العاشرة ليلاً، وحضرتها ستُّ طالبات. أخبرني بأسمائهن، فتحدثنا إليهن، وكلهن أكّدن أقواله».

تمعّن المفتش في زوي مطولاً. «ونتيجة لذلك، لن أتّهم البروفيسور بارتكاب أي جرم، وأنا راضٍ تماماً عن كونه غير مسؤول عن موتها - رغم ما قالته تارا».

«مفهوم»، قالت زوي بصوت خافت، مطأطئة رأسها.

«ماذا يمكنك أن تخبريني بخصوص كونراد إليس؟»، سأل المفتش. «هو ليس طالباً هنا... إنه يسكن في البلدة على ما أعتقد. هل كان حبيب تارا؟».

هزت زوي رأسها. «كلا. كانا يمضيان بعض الوقت معاً من حين لآخر، هذا كل ما في الأمر».

تفقّد المفتش ملاحظاته. «يبدو أن لديه إدانتين سابقتين: الاتجار في المخدرات، والاعتداء...». نظر إلى زوي. «وسمع الجيران شجارات عنيفة دارت بينهما».

هزّت زوي كتفيها. «إنه مضطربٌ للغاية، حاله كحالها... لكنه ما كان ليؤذيها أبداً، إذا كان هذا قصدَك. هو ليس ذلك النوع من الناس. إنه شابٌّ لطيفٌ».

«امممم...». لم يبدُ المفتش مقتنعاً بكلامها. أفرغ محتوى كأسه، ثم أغلق الكظيمة.

أُغلقت القضية، فكرت ماريانا.

«أتعلم، أيها المفتش»، قالت بامتعاض نيابةً عن زوي، «أظن أنه عليك الإصغاء إليها».

«عذراً؟». طرَف المفتش سانغا بعينيه. بدا متفاجئاً لسماع صوت ماريانا. «هلّا ذكّرتني مجدّداً، من تكونين؟».

«أنا خالة زوي، ووليّة أمرها. وكذلك - إذا اقتضى الأمر - مناصرتُها».

بدا المفتش سانغا مستمتعاً بالأمر وهو يقول: «إن ابنة أختكِ تبدو قادرةً تماماً على تولي أمرها ومناصَرة نفسها، على ما أظن».

«في الواقع، إن لِزُوي حُكماً سَديداً على طبيعة الناس. ولطالما كانت كذلك. فإذا كانت تعرف كونراد - وتظن أنه بريء - فيجب عليك أخذ رأيها على محمل الجد».

تبخّرت الابتسامة من على شفتَي المفتش. «حين أستجوبه، سأكوّن رأيي الخاص بي، إذا كنتِ لا تمانعين. وحتى تكون الأمور واضحة، يا ماريانا، أنا المسؤول هنا، ولا يروق لي أن يتم إخباري بما يجب أن أفعله...».

«أنا لا أخبرك بما يجب...».

«... أو أن تتم مقاطعتي. لذا سأوصيك بشدّةٍ أن تبقي بعيدة عن طريقي. وعن تحقيقي. مفهوم؟».

كانت ماريانا على وشك مجادلته، لكنها ألجمت لسانها، وأجبرت نفسها على الابتسام.

«تماماً»، ردّت.

15

بعد أن غادرتا مكتب العميد، عبرت زوي وماريانا الأعمدة في آخر الساحة - سلسلة من اثنَي عشر عموداً رخاميّاً ارتكزت عليها المكتبة، عتيقة وباهتة اللون، تتخلّلها تشقّقات بدت كالعروق، ألقت بظلالها الطويلة على الأرض وأغرقت المرأتَين في ظلامٍ مؤّقتٍ وهما تسيران بينها.

أحاطت ماريانا زوي بذراعها. «عزيزتي، هل أنت بخير؟»، سألتها.

هزّت زوي كتفَيها. «أنا... لا أدري».

«هل تظنين أن تارا... ربما... كانت تكذب عليك؟».

بدا الأسى على محياها. «أنا... لا أدري».

ثم توقفت وتسمّرت في مكانها فجأة. كان رجلٌ قد ظهر أمامهما من خلف أحد الأعمدة.

وقف هناك يسدّ طريقهما، وحدّق فيها.

«مرحباً، زوي».

«بروفيسور فوشكا»، ردّت زوي وهي تلتقط أنفاسها.

«كيف حالكِ؟ هل أنتِ بخير؟ لا أصدّق أن هذا حصل حقاً... أنا في حالة صدمة».

كانت لكنته أمريكية، لاحظت ماريانا، ما أضفى إيقاعاً ناعماً على كلامه، حتى وإن بدت طفيفةً بحكم تأثّرة باللكنة الإنجليزية المحليّة.

«أيتها المسكينة. أنا آسف حقاً، يا زوي. لا بدّ أنكِ مفجوعةٌ...».

تحدّث بنبرةٍ مَشوبةٍ بالعاطفة، وبدا مكروباً فعلاً. مدّ يده نحو زوي، إلا أنها تراجعت قليلاً إلى الوراء في حركةٍ لاإرادية. لاحظت ماريانا ذلك، وكذلك فعل البروفيسور، فحدّج زوي بنظرة استغرابٍ.

«اسمعي»، قال لها، «سأخبرك بما قلته للمفتش بالضبط. من المهم أن تسمعي ذلك مني - الآن».

تجاهل فوشكا ماريانا، مخاطباً زوي وحدها، فدقّقت فيه ماريانا النظر مليّاً وهو يتكلّم. كان أصغر سنّاً مما توقعت، وأكثر وسامةً بكثير. كان في بداية عقده الرابع، طويلاً، ذا بنية جسدية رياضية، وعظام خدين بارزة، وعينين غامقتين حادتين. كان كلُّ شيءٍ فيه داكناً: عيناه، لحيته، وملابسه، وشعره الأسود الطويل مربوطاً في حزمة مبعثرة خلف رأسه، وكان يرتدي ثوباً أكاديمياً أسود اللون، وقميصاً فضفاضاً، وربطةَ عنقٍ مرتخيةً، ما أعطى انطباعاً عاماً بالكاريزما أو حتى بالبيرونية[1].

---

(1) نسبة إلى الشاعر لورد بيرون (1788-1824) أو أشعاره، وينطوي هذا الوصف في الإنجليزية على مجموعة صفات منها الجاذبية، والغموض، والغطرسة، وغالباً ما يستعمل لوصف الرجال - المترجم.

«في الحقيقة»، تابع قائلاً، «قد أكون تعاملتُ مع الأمر على نحوٍ سيّئ، ويمكنك تأكيد كلامي، يا زوي. كان أداءُ تارا الأكاديميّ دون المستوى، بل كان أداؤها مريعاً، رغم محاولاتي الحثيثة لمساعدتها على تحسين سجلّ حضورها وإكمال دوراتها. لم تترك لي خياراً آخر. لقد تحدّثتُ إليها بصراحة مؤخراً، وقلت إنني لا أعلم ما إذا كان الأمر متعلقاً بالمخدرات، أو بمشاكل عاطفية، لكنها لم تبذل ما يكفي من جهد لتحسين درجاتها هذه السنة، وأخبرتها أنها سترسب. فإما أن ترسب وتعيد السنة، أو تُفصل من الجامعة».

هزّ رأسه بحسرة. «وحين قلتُ لها ذلك، كانت ردّة فعلها هستيرية تماماً. قالت إن والدها سيقتلها، وترجّتني أن أغيّر رأيي، إلا أنني رفضتُ رفضاً قاطعاً. فتغيّر سلوكها بعد ذلك، وأصبحت عدوانية. لقد هدّدتني. قالت إنها ستدمّر مسيرتي المهنية وتتسبّب في طردي». تنهّد بأسى. «ويبدو أن هذا ما حاولتْ فعله بالضبط. فكلُّ ما قالته لكِ - تلك الادعاءات الجنسية الكاذبة - ليست سوى محاولات مباشرة لتشويه سمعتي».

خفض صوته. «ما كنت لأقيم علاقة مع إحدى طالباتي أبداً، يا زوي، فهذه أبغض أنواع خيانة الثقة واستغلال النفوذ. فكما تعلمين، كانت تارا عزيزةً جدّاً عليّ، لذا كان سماعُ هذه الادعاءات على لسانها أمراً مؤلماً بالنسبة إليّ».

لم يسع ماريانا إلا أن تجد فوشكا مقنعاً، فلم يكن هناك شيء في كلامه يشي بأنه يكذب، وكل ما قاله كان له وقعُ الحقيقة على مسمعها. فلطالما تحدثت تارا عن والدها برعبٍ شديدٍ، كما نقلت زوي بعد زيارتها لعزبتهم في اسكتلندا أن والد تارا كان مضيفاً متشدّداً، بل قاسياً جداً. كان بإمكان ماريانا تصوّر ردّ فعله حيال

رسوب تارا في سنتها الجامعية، كما كان بإمكانها تصوّر أن فكرة إخباره بالأمر قد تجعل تارا هيستيرية ويائسة.

ألقت ماريانا نظرة خاطفة إلى زوي لترى وطأة تلك المحادثة عليها، إلا أنه صَعُب عليها تحديد ذلك. بدت متوترةً، تحدّق في الأرضية الصخرية في حرجٍ واضحٍ.

«آمل أن يوضّح هذا الأمور ويزيل أيّ لُبسٍ»، قال فوشكا. «المهم الآن هو أن نساعد الشرطة على القبض على المجرم - أيّاً كان. وقد اقترحتُ على الشرطة التحقيق في أمر كونراد إليس، ذلك الرجل الذي كانت تتسكع معه تارا. فهو شخصٌ كريهٌ».

لم تنبس زوي بكلمةٍ. حدّق فيها فوشكا.

«زوي؟ هل الأمور سليمة بيننا؟ لدينا ما يكفي للتعامل معه حالياً، دون أن تشتبهي فيَّ في أمرٍ كهذا».

رفعت زوي ناظريها إليه، وأومأت برأسها ببطءٍ. «أجل، إنها سليمة».

«جيّد»، علّق قائلاً، إلا أنه لم يبدُ راضياً تماماً. «عليّ أن أذهب الآن. سأراك لاحقاً. اعتني بنفسكِ، اتفقنا؟».

ثم نظر فوشكا إلى ماريانا لأول مرة، معترفاً بوجودها بإيماءة طفيفة من رأسه، ثم استدار ومشى مبتعداً، ليختفي خلف أحد الأعمدة.

خيّم الصمتُ لوهلة، ثم التفتت زوي إلى مارينا وقد بدا عليها التوجس.

«حسناً؟»، قالت وهي تطلق تنهيدةً خفيفةً. «ماذا الآن؟».

فكّرت ماريانا للحظة. «سأتحدّث إلى كونراد».

«لكن كيف ستفعلين ذلك؟ لقد سمعتِ ما قاله المفتّش».

لم ترد ماريانا، إذ لمحت جوليان آشكروفت مغادراً مكتب العميد، وراقبته وهو يعبر الساحة.

أومأت لنفسها، ثم قالت: «لديّ فكرة».

16

لاحقاً بعد زوال ذلك اليوم، وجدت ماريانا نفسها جالسة أمام كونراد إليس وهو في مركز الشرطة.

«مرحباً كونراد. اسمي ماريانا».

كان كونراد قد اعتُقِل فور نهاية استجوابه من طرف المفتش سانغا، إذ كانت الشرطة متيقّنةً أنه الجاني، رغم غياب ما يدينه، سواء كانت أدلّةً ظرفيّةً أو غيرها.

لقد شوهدت تارا على قيد الحياة من قِبل البوّاب الرئيسي، السيد موريس، على الساعة الثامنة تماماً، حين رآها تغادر الكلية عبر البوابة الرئيسية. وقال كونراد إنه كان ينتظرها في شقته، إلا أنها لم تبلغها أبداً. وقد كانت كلمته هي كل ما يملك، إذ لم تكن لديه أي حجة غيابٍ طوال ذلك المساء.

لم يُعثر على سلاح الجريمة في شقته، رغم قيام الشرطة بتفتيشٍ شاملٍ. وتم أخذ ملابسه ومقتنياتٍ أخرى من أجل فحوص الطب الشرعي، على أمل العثور على شيءٍ يربطه بالجريمة.

لقد تفاجأت ماريانا أن جوليان ساعدها بصدرٍ رحب على رؤية كونراد.

«أستطيع إدخالك معي. يجب أن أُجري التقييم النفسي على أية حال، ويمكنك المراقبة، إذا شئتِ». ثم غمز لها وأضاف: «على ألا يمسك سانغا بنا متلبِّسَين».

«شكراً لك. أنا مدينة لك».

بدا جوليان مستمتعاً بهذه الحيلة الماكرة. دخلا مركز الشرطة وغمز لها بعينيه بعد أن طلب إحضار كونراد إليس من زنزانته.

دقائق قليلة بعد ذلك، كانا جالسَين رفقة كونراد في غرفة الاستجواب. كانت غرفة باردةً، لا نوافذ لها ولا هواء. كان مكاناً لا يرغب المرء أن يكون فيه، والمفترض أن تكون هذه هي الغاية منه بالضبط.

«أنا معالجة نفسية، يا كونراد، وخالة زوي»، قالت ماريانا. «أنت تعرف زوي، أليس كذلك؟ من كلية سانت كريستوفر؟».

بدا كونراد مشتّتاً للحظة، ثم التمع في عينيه ضوءٌ خافتٌ فأومأ برأسه، بذهن شارد. «زوي، رفيقة تارا؟».

«هذا صحيح. هي تريدك أن تعرف كم هي آسفة حقاً... لما جرى لتارا».

«إنها فتاةٌ لطيفةٌ، زوي... تروقني. إنها ليست مثل الأخريات».

« الأخريات؟».

«رفيقات تارا». اعتلت سحنتَه نظرةُ امتعاض. «الساحرات! هكذا أدعوهن».

«حقاً؟ لا تروقك صديقاتها؟».

«بل أنا الذي لا أروقهن».

«ولمَ ذلك؟».

هزّ كونراد كتفيه، بوجهٍ محايدٍ خالٍ من التعابير. كانت ماريانا تأمل الحصول على استجابة عاطفية منه، على أي شيء يساعدها على قراءته بشكل أفضل، إلا أنها لم تحصل على شيء. تذكّرت مريضها هنري. كانت تعلو وجهَه نفسُ النظرة المكفهرّة، جرّاء سنين من إدمان الكحوليات والمخدرات.

كان مظهر كونراد في حد ذاته يُحسب ضده، وكان هذا جزءاً من المشكلة. كان ضخم الجثة، متثاقلاً، تغطي جسدَه الأوشام. ولكن زوي كانت محقة: كان بداخله شيء من اللطافة والطّيبة. حين تكلّم، كان كلامه بطيئاً ومتداخلاً، ولم يبدُ مدركاً تماماً لما كان يحدث له.

«أنا لا أفهم... لمَ يظنون أنني آذيتها؟ أنا لم أؤذها. أنا أحب... كنت أحبها».

ألقت ماريانا نظرة صوب جوليان لترى ردة فعله. لم يبدُ عليه التأثر بتاتاً، وباشر بطرح مختلف أنواع الأسئلة التطفلية عن حياة ونشأة كونراد؛ وكلما طال الاستجواب، صار الأمر أكثر تعذيباً لكونراد، وبدا وضعه أكثر تورّطاً.

إلا أن ماريانا شعرت أنه بريء. لم يكن يكذب؛ ذاك الرجل أمامها كان مفطورَ القلب بالفعل. وفي لحظة ما، مُرهقاً من استجواب جوليان المكثَّف، انهار تماماً، فأمسك برأسه بين يديه وبكى في صمت.

عند نهاية الاستجواب، تحدثت ماريانا مجدداً.

«هل تعرف البروفيسور فوشكا؟ مدرّس تارا؟»، سألته.

«نعم».

«وكيف عرفته؟ عن طريق تارا؟».

أومأ برأسه. «لقد جلبتُ له البضاعةَ بضع مرّاتٍ».

طرفت ماريانا بعينيها، ثم نظرت باتجاه جوليان. «أتقصد المخدرات؟».

«أيَّ نوعٍ منها؟»، سأل جوليان.

هزّ كونراد كتفيه. «أي نوعٍ يطلبه مني».

«إذاً فقد كنت تلتقيه بانتظام؟ البروفيسور فوشكا؟».

هزّ كونراد كتفيه مجدداً. «كنت ألتقيه ما يكفي من مرات».

«كيف بدت لك علاقته بتارا؟ هل بدت لك غريبة بأي شكل من الأشكال؟».

«في الواقع، كان مفتوناً بها، أليس كذلك؟»، قال كونراد وهو يهزّ كتفيه.

تبادلت ماريانا نظرةً مع جوليان.

«أكان فعلاً؟».

كانت ماريانا على وشك حثّه على المضي أبعد من ذلك، إلا أن جوليان أوقف الاستجواب فجأة، قائلاً إن لديه ما يكفي من أجل إعداد تقريره.

«آمل أن تكوني قد وجدتِ ذلك تثقيفياً»، قال جوليان بعد أن غادرا المركز. «أداء رائع، ألا تعتقدين ذلك؟».

نظرت إليه ماريانا مندهشةً. «لم يكن يتظاهر. إنه ليس قادراً على تزييف الأمور».

«صدقيني، يا ماريانا، تلك الدموع كلها تمثيل. أو لعلّها كانت نابعةً من إشفاقه على نفسه. لقد رأيت ذلك من قبل».

نظرت إليه. «ألا تظن أن الأمر مقلقٌ: كونه باع المخدرات للبروفيسور فوشكا؟».

هزّ جوليان كتفيه قائلاً: «شراء بعض الماريجوانا من حين لآخر لا يجعل من المرء قاتلاً».

«وماذا عن قوله إن فوشكا كان مفتوناً بها؟».

«وماذا لو كان فعلاً؟ لقد كانت فاتنةً حقاً على أية حال. كنتِ تعرفينها، أليس كذلك؟ ما الذي كانت تفعله مع هذا الأحمق؟».

هزّت ماريانا رأسها في أسى. «أتصور أنه كان وسيلةً لغايةٍ محددة».

«المخدرات؟».

تنهّدت ماريانا وأومأت برأسها.

نظر إليها جوليان. «هيا بنا. سأوصلك؛ إلا إذا كنت ترغبين في احتساء كأس؟».

«لا أستطيع، عليّ العودة إلى الكلية. سيقيمون حفل تأبينٍ لتارا على الساعة السادسة».

«حسنٌ، ماذا عن مساء آخر؟». غمز لها. «أنت مدينة لي، أتذكرين؟ غداً؟».

«لن أكون هنا، سأغادر غداً».

«لا بأس، سنجد وسيلة ما. سأطاردك في لندن لو اقتضى الأمر».

ضحك جوليان لكن ليس بعينيه لاحظت ماريانا، إذ ظلّت عيناه باردتين، وقاسيتين، وخاليتين من الطيبة. كان هناك شيء بشأن الطريقة التي نظر بها إليها جعلتها تشعر بعدم الارتياح.

تنفست الصعداء حين وصلا إلى كلية سانت كريستوفر، حيث استطاعت أن تفلت منه أخيراً.

17

عند الساعة السادسة مساء، كان حفل تأبين تارا قد بدأ في الكنيسة.

لقد تم بناء كنيسة الكلية من الحجارة والخشب عام 1612. كانت أرضيتها من الرخام الأسود، ونوافذها من الزجاج المزخرف ذي ألوان زاهية - زرقاء وحمراء وخضراء - عليها رسوم تمثل مشاهد من حياة القديس كريستوفر؛ وكان السقف شاهقاً ومزيّناً بدروع جيوش ونبلاء من قرون خلت، وكذا بشعارات لاتينية مصبوغة بالذهب.

كانت المقاعد مكتظة عن آخرها بالرفاق والطلبة. جلست ماريانا وزوي قريباً من المقدمة، فيما جلس والدا تارا مع العميد والقيّم على الكنيسة.

استقل والدا تارا - اللورد والليدي هامبتون - الطائرة من اسكتلندا ليتعرّفا على الجثة. تخيّلت ماريانا العذاب الذّهنيّ الذي مرا به طوال الطريق من منزلهما الريفي النائي: الطريق الطويلة، ثم مطار إدنبرة، ثم الرحلة الجوية إلى ستانستيد حيث مُنحا وقتاً طويلاً للتفكير - أمل وخوف وقلق - قبل رحلتهما الأخيرة إلى المشرحة، والتي

أنهت ترقّبهما بقسوة: لقد جمعتهما بابنتهما فرأيا ما حدث لها.

جلس اللورد والليدي هامبتون بتصلّبٍ. كان وجهاهما شاحبَين، منقبضَين، متجمّدَين. راقبتهما ماريانا بافتتان؛ كانت تذكر ذلك الشعور: هو أشبه بالدخول إلى ثلاجة؛ برد جليديٌّ وصدمة تخدّر الجسم والذهن. إلا أن هذه الحالة لا تستمر طويلاً - وهي حالة مباركة مقارنة بما يتليها، حين يذوب الجليد وتتلاشى الصدمة - فيبدأ الشعور بجسامة الفقد في التبلور.

رأت ماريانا البروفيسور فوشكا الذي حضر بدوره. تقدّم عبر الممشى، تتبعه مجموعةٌ فتياتٍ شابات متميّزات: كنّ كلهنّ جميلات للغاية، ويرتدين فساتين بيضاء طويلة. مشَين بطريقة توحي بالثقة بالنفس، وكنَّ أيضاً واعياتٍ تمام الوعي وقع الأعين عليهن. وقد حدّق فيهن باقي الطلبة حين مررن.

هل كانت هذه الفتيات صديقات تارا - تساءلت ماريانا - صديقات تارا اللاتي كرِهَهُنّ كونراد؟ «الساحرات»؟

حين بدأت المراسم، خيّم على المكان صمتٌ مهيبٌ وقاتمٌ. شرع موكب قُرّاء القدّاس - في أثواب كهنة حمراء اللون ذات ياقات بيضاء عريضة - في ترتيل ترنيمة لاتينية تحت ضوء الشموع الخافت، فتصاعدت أصواتهم الملائكية في الظلام.

لم تكن هذه هي الجنازة، فالدفن كان سيتم باسكتلندا. لم تكن هناك جثة لرثائها. ذهب ذهن ماريانا إلى تلك الفتاة الممزّقِ جسدُها، الراقدة وحيدةً في المشرحة.

وتذكرت كيف رجع حبيبها إليها، على صفيحة اسمنتية في المستشفى بناكسوس. كان جسد سيباستيان لا يزال مبللاً حين رأته، الماء يقطر منه فوق الأرضية، والرمل يملأ شعره وعينيه. كانت هناك

حفر صغيرة على جسده، قطع لحم صغيرة نهشتها الأسماك، كما كان أحد أنامله مفقوداً، استولى عليه البحرُ.

وما إن رأت تلك الجثة المشمّعة التي لا حياة فيها حتى أدركت أنه لم يكن سيباستيان. كانت مجرد قوقعة خارجية. كان سيباستيان قد رحل - لكن إلى أين؟

في الأيام التي تلت وفاته، ظلت ماريانا خدِرة؛ في حالة صدمة مطوّلَة، غير قادرةٍ على تقبّل ما حصل، أو حتى تصديقه. بدا مستحيلاً تصديق أنها لن تراه مجدداً أبداً، أنها لن تسمع صوته، ولن تشعر بلمسته.

أين هو؟ ظلّت تفكر. **إلى أين ذهب؟**

ثم، وحين بدأت الحقيقة تلقي بثقلها، اختبرت نوعاً من الانهيار المتأخر، ومثل سدٍّ يتحطّم، انهمرت دموعها كلها دفعةً واحدةً، على شكل شلّالٍ من الأسى.

وبعد ذلك، أتى الغضب.

حنق عارمٌ ومحتدمٌ، غيضٌ أعمى كاد يلتهمها، هي وكلَّ مَن حولها. ولأول مرة في حياتها، أرادت ماريانا أن تُلحِق أذى جسدياً، أرادت أن تطلق جموحها وتؤذي شخصاً ما؛ نفسها، أكثر من أي أحد.

لامت نفسها. بالطبع فعلت. كانت هي من أصرّ على الذهاب إلى ناكسوس؛ فلو أنهما بقيا في لندن كما أراد سيباستيان، لكان الآن على قيد الحياة.

ولامت سيباستيان أيضاً. كيف كان بمثل هذا التهور؟ كيف جرُؤ على الذهاب للسباحة في ذلك الجو العاصف؟ على المغامرة بحياته... وحياتها؟!

كانت أيام ماريانا عسيرةً، وكانت لياليها أعسر. في البداية، منحها الجمع بين الحبوب المنومة والكحول نوعاً من الملاذ الطبّي المؤقت، رغم أنها وجدت نفسها داخل كوابيس مِلؤها الكوارث، من سفن غارقة، وحوادث قطارات، وفيضانات. كانت تحلم برحلات لانهائية، بعثات استكشاف في أراضي القطب الشمالي النائية المهجورة، حيث تشق طريقها عبر الريح المتجمدة والثلوج، في بحثٍ أزلي عن سيباستيان، لكنها لا تجده أبداً.

ثم بدأت الحبوب المنومة تفقد مفعولها شيئاً فشيئاً، فتظل صاحية حتى الثالثة أو الرابعة فجراً - ممدّدة على سريرها، تحِنّ وتئِن دون أن يروي شيء ظمأها سوى ذكرياتها المعروضة على شاشة من الظلام: صور مومِضة لأيامهما، ولياليهما، وشتاءاتهما، وأصيافهما معاً. وفي النهاية، تكالب عليها الأسى وقلة النوم وشعرت أنها تفقد صوابها، فعادت إلى طبيبها مجدداً. وحيث كان من الجلي أنها أفرطت في تعاطي الحبوب المنومة، رفض د. بيك أن يمنحها وصفة طبية جديدة، واقترح أن تغير إطار حياتها عوض ذلك.

«أنت امرأة ثرية»، قال لها، مضيفاً بخشونة: «دون أطفال لإعالتهم. فلمَ لا تذهبين إلى الخارج؟ تسافرين؟ ترين العالم؟».

ونظراً إلى أن الرحلة الأخيرة التي أرسلها فيها قد انتهت بموت زوجها، ارتأت ماريانا عدم اتباع نصيحته، ولجأت إلى مخيّلتها عوض ذلك.

كانت تغمض عينيها وتفكر في معبد ناكوس - الأعمدة البيضاء المنتصبة أمام السماء الزرقاء الشاسعة - وتتذكّر صلاتها الهامسة إلى البتول طلباً لسعادتهما ودوام حبّهما.

أكانت هذه غلطتها؟ أشعرت الإلهة بالإهانة بطريقة ما؟ هل

غارت بيرسيفون؟ قد تكون وقعت في حبّ ذلك الرجل الوسيم من أول نظرة، فأخذته إلى العالم السفلي - كما أُخذت هي نفسها ذات مرة؟

بدا تحمُّلُ ذلك أسهل عليها شيئاً ما - إلقاء اللوم في وفاة سيباستيان على قوى خارقة، على نزوةٍ متقلّبةٍ لإحدى الإلهات. أما الاحتمال البديل - أن الأمر كان عبثيّاً، وعشوائياً، ولا معنى له... فكان أكثر مما يمكنها تحمُّله.

توقفي عن ذلك، قالت في سرّها. **توقفي! توقفي!** شعرت بعينيها تبتلّان بدموع تنم عن الشفقة الذاتية. مسحتها. لم تكن ترغب في الانهيار، ليس هنا. كان عليها الخروج من هنا، من الكنيسة.

«أنا بحاجة إلى بعض الهواء الطّلق»، همست لزوي.

أومأت زوي برأسها، ووضعت يدها على يد ماريانا وشدّت عليها.

نهضت ماريانا وهرعت إلى الخارج. وما إن غادرت الكنيسة المكتظة خافتة الإضاءة وخرجت إلى الساحة الخالية حتى غمرها شعور آني بالارتياح.

لم يكن هناك أحد على مرمى البصر. كانت الساحة الرئيسية صامتة ساكنة. كان المكان مظلماً، باستثناء أعمدة الإنارة الفارعة المتفرقة عبر الساحة، التي شعّت فوانيسها وسط الظلام وأحاطت بها الهالات. زحف ضباب كثيف قادم من النهر على المكان، وغطى فضاء الجامعة.

مسحت ماريانا دموعها، ثم نظرت إلى السماء. ظهرت كل النجوم - التي لا أثر لها في سماء لندن - جليّة برّاقة كملايين النقط الألماسية وسط حُلكة لانهائية.

لا بد أنه هناك، في مكان ما.

«سيباستيان»، همست. «أين أنت؟».

أصغت وراقبت، وانتظرت علامةً ما - مذنّباً، أو سحابةً تمر أمام القمر - شيئاً ما؛ أي شيء.

لكن لم يكن هناك شيء.

سوى الظلام.

18

بعد حفل تأبين تارا، اختلط الحضور بالخارج في الساحة، يتحدثون في مجموعات صغيرة. وقفت ماريانا وزوي بعيداً عن الآخرين، وأخبرت ماريانا زوي باقتضابٍ عن زيارتها لكونراد، وأنها توافقها رأيها فيه.

«أترين؟»، قالت زوي. «كونراد بريء. لم يفعلها. يجب علينا مساعدته بطريقة ما».

«لا أعلم ما يسعنا القيام به»، قالت ماريانا.

«علينا فعل شيء ما. أنا متأكدة أن تارا كانت على علاقةٍ بشخصٍ آخر. ليس كونراد. لقد لمّحت إلى ذلك بضع مرات... قد يكون هناك دليلٌ ما على هاتفها ربما؟ أو على حاسوبها المحمول؟ سأحاول الدخول إلى غرفتها...».

هزّت ماريانا رأسها رافضة الفكرة. «لا يمكننا فعل ذلك، يا زوي!».

«لمَ لا؟».

«أظن أنَّ علينا ترك كل ذلك للشرطة».

«لكنك سمعت المفتش. هم لا يبحثون، لقد حسموا أمرهم.

يجب علينا أن نفعل شيئاً». أطلقت تنهيدة عميقة. «أتمنى لو كان سيباستيان هنا. كان سيعلم ما يجب فعله».

تقبّلت ماريانا تأنيب ابنة أختها المبطّن. «أنا أيضاً أتمنى لو أنه كان هنا»، قالت ثم ترددت قبل أن تضيف: «كنت أفكر... لم لا ترجعين معي إلى لندن لبضعة أيام؟».

وعلمت، ما إن غادرت الكلمات شفتيها، أنها قالت الشيء الخطأ. حدّقت فيها زوي باندهاش.

«ماذا!؟».

«قد يساعد ذلك، أن تبتعدي قليلاً...».

«لا يمكنني أن أهرب فحسب. لن يغيّر ذلك شيئاً. أتظنين أن هذا ما كان سيريده لي سيباستيان؟».

«لا!»، ردت ماريانا، وقد توترت أعصابها فجأة. «لكنني لست سيباستيان».

«لا!»، قالت زوي، مقلِّدة نبرتها المهتاجة. «لستِ هو!».

لم تتكلم ماريانا لوهلة، ثم قررت أن تبوح بشيءٍ، بقلقٍ كان يراودها منذ اتصالهما الهاتفي ليلة أمس.

«زوي... هل أنت متأكدة... أنك أخبرتني بكل شيء؟».

«بخصوص ماذا؟».

«لا أعلم. بخصوص هذا الأمر برمته؛ بخصوص تارا. ظللتُ أفكر... لا أستطيع طرد هذا الشعور... بأنك تخفين عني شيئاً».

هزّت زوي رأسها نافية. «لا، لا شيء».

نظرت زوي بعيداً. واستمرّ شعور ماريانا بالشك. كانت قلقةً.

«زوي، أتثقين بي؟».

«أهذا سؤال؟!».

«اسمعيني إذاً. هذا مهم. هناك شيء لم تخبريني به. أشعر بذلك. لذا ثقي بي. أرجوك...».

ترددت زوي، ثم ضعُفت.

«ماريانا، اسمعي...».

لكن، وهي تنظر فوق كتف ماريانا، رأت زوي شيئاً... شيئاً أخرسها. علَتْ عينَيها فجأة نظرةُ خوفٍ غريبة، ثم تلاشت. التفتت نحو ماريانا مجدداً، وهزّت رأسها. «ليس هناك شيءٌ. صدقاً».

التفتت ماريانا لترى ماذا رأت زوي. وهناك، عند مدخل الكنيسة، كان البروفيسور فوشكا واقفاً مع حاشيته: الحسناوات في فساتينهن البيضاء، منهمكون في وَشوَشةٍ وهمسٍ.

كان فوشكا بصدد إشعال سيجارة. التقت عيناه بعينَي ماريانا عبر الدخان، فحدّقا في بعضهما لوهلة، ثم غادر البروفيسور المجموعة وتقدم نحوها، مبتسماً. سمعت ماريانا زوي تطلق تنهيدةً خافتةً مكتومةً بينما كان فوشكا يقترب منهما.

«مرحباً»، قال حين بلغهما. «لم تسنح لي الفرصة لتقديم نفسي سابقاً. أدعى إدوارد فوشكا».

«أنا ماريانا... أندروس». لم تقصد ذكر كنيتها قبل الزواج. خرجت الكلمة هكذا، من تلقاء نفسها. «أنا خالة زوي».

«أعلم من تكونين. لقد أخبرتني زوي عنك. تعازيّ الحارّة بشأن زوجك المرحوم».

«أوه»، علّقت ماريانا وقد فاجأها سماعُ ذلك. «شكراً لك».

«وآسف بخصوص زوي»، قال فوشكا وهو يلقي نظرة صوبها. «لقد فقدتْ زوج خالتها، والآن يُترحها مجدّداً فقدُ تارا».

لم تردّ زوي. هزّت كتفيها فحسب، متفادية النظر إليه.

كان هناك شيء تخفيه زوي، شيء تتفاداه. **إنها خائفة منه،** فكرت ماريانا فجأة. **لكن لماذا؟**

لم يبدُ لماريانا أن فوشكا يشكّل أدنى تهديدٍ، بل بدا صادقاً ومتعاطفاً. وجّه إليها نظرة ملؤها التأثر. «يؤسفني حال كل الطلبة. لا بد أن هذا الأمر سيلقي بظلاله على السنة بأكملها، إن لم يكن الكلية برمتها».

التفتت زوي فجأة إلى ماريانا. «يجب أن أذهب... سألتقي ببعض الأصدقاء في الحانة. أتريدين المجيء؟».

هزّت ماريانا رأسها. «كنت أعتزم المرور لزيارة كلاريسا. سألتقيك لاحقاً».

أومأت زوي برأسها ثم مضت إلى حال سبيلها.

التفتت ماريانا إلى حيث كان فوشكا واقفاً، لكنها تفاجأت بأنه غادر، يذرع الساحة مبتعداً.

لم يبق في المكان إلا أثرٌ طفيف لدخان سيجارته حيث كان واقفاً، يدور في شكلٍ لولبيٍّ متصاعدٍ ويتلاشى نحو العدم.

19

«أخبريني عن البروفيسور فوشكا»، قالت ماريانا.

حدّجتها كلاريسا بنظرةِ فضولٍ وهي تصبّ شاياً أصفر اللون من إبريق فضي في فنجانين فخاريين ناعمين. قدّمت إلى ماريانا الفنجان وصحنه.

«البروفيسور فوشكا؟ ولمَ تسألين عنه؟».

ترددت ماريانا، ثم قررت أنه من الأفضل ألا تخوض في التفاصيل. «ما من سبب محدد. لقد ذكرته زوي».

هزّت كلاريسا كتفيها. «أنا لا أعرفه جيداً، فلم يمض على وجوده هنا سوى سنتين. ذهن راقٍ. أمريكي. أجرى بحث الدكتوراه تحت إشراف روبرتسون في هارفارد».

جلست في مقابل ماريانا، على المقعد ذي مسند الذراعين واللون الأخضر الحمضي الباهت، بجوار النافذة. ابتسمت لماريانا بحنان. كانت البروفيسورة كلاريسا ميلر في أواخر السبعينات من عمرها، ذات وجه لا يشيخ، يعلوه شعر رمادي أشعث. كانت ترتدي قميصاً حريريّاً أبيض وتنورة من التْويد، مع بلوزة من الصوف الأخضر يتجاوز عمرُها عمرَ معظم طلابها بكثير.

كانت كلاريسا المشرفة على أبحاث ماريانا حين كانت هذه الأخيرة طالبة، إذ معظم التعليم في كلية سانت كريستوفر كان يتم بشكل فردي، بين المعلّم والطالب، وغالباً ما يتم ذلك في إقامة المعلّمين الجامعيّة. وخلال أي وقت بعد منتصف النهار - أو حتى قبل ذلك - وبحسب رغبة المعلّم، كانت تُقدَّم المشروبات الكحولية: نبيذُ بوجولي ممتاز في حالة كلاريسا، من قبو النبيذ الشبيه بالمتاهة بالأسفل، إذ إنها كانت تعلّم طلّابها عن الكحوليّات كما تعلّمهم عن الأدب.

وعنى ذلك أيضاً أن البرامج التعليمية كانت لها نكهة شخصية، وكانت الحدود بين المعلّم والطالب ضبابية، إذ تبادلا الأسرار والأخبار الخاصة. وقد رقّ قلب كلاريسا وربما انتابها الفضول بخصوص هذه الفتاة اليونانية الوحيدة يتيمة الأم، فظلّت ترعى ماريانا بعينِ أم حنون خلال دراستها في سانت كريستوفر. ومن جهتها، وجدت ماريانا كلاريسا مصدر إلهام، ليس فقط بسبب إنجازات البروفيسورة المبهرة على المستوى الأكاديمي في مجال يطغى عليه الرجال، بل بسبب معرفتها، والحماس الذي كانت تنشر به تلك المعرفة. وقد ساهم صبر كلاريسا ولطفها - وطبعها الحاد من حين لآخر - في أن تعلمت ماريانا منها أكثر من أيّ معلّم صادفته.

ظلّتا على تواصل بعد أن تخرجت ماريانا، تتبادلان الرسائل وبطاقات المعايدة من حين لآخر، إلى أن وصلت ماريانا رسالةٌ من كلاريسا على بريدها الإلكتروني في أحد الأيام، معلنة أنها انضمت إلى عصر الإنترنت، عكس كل التوقعات. وقد أرسلت لماريانا رسالةً جميلةً ومفعمةً بالمشاعر بعد وفاة سيباستيان، حرّكت مشاعر ماريانا لدرجة أنها احتفظت بها وأعادت قراءتها مرات عديدة.

«سمعتُ أنه درّس تارا»، قالت ماريانا.

أومأت كلاريسا برأسها. «أجل، هذا صحيح. مسكينة... أعلم أنه كان قلقاً بشأنها».

«هل كان فعلاً كذلك؟».

«نعم. قال إن تارا كانت بالكاد تنجح في اختباراتها الأكاديمية». تنهدت وحركت رأسها في أسى. «يا له من أمرٍ فظيعٍ. فظيعٍ حقاً».

«أجل. أجل، إنه كذلك».

ارتشفت ماريانا بعض الشاي وراقبت كلاريسا وهي تملأ غليونها بالتبغ. كان شيئاً جميلاً، مصنوعاً من خشب الكرز الداكن.

كان تدخين الغليون عادة اكتسبتها كلاريسا من زوجها المرحوم. كانت تطفو في سكنها رائحةُ الدخان وتبغ الغليون الحِرِّيف اللاذع. فعلى مدار السنين، تغلغلت الرائحة داخل الجدران، وداخل أوراق الكتب، وداخل كلاريسا نفسها. كانت الرائحة طاغية أحياناً، وكانت ماريانا تعلَم أن بعض الطلبة في السابق اعترضوا على تدخين كلاريسا خلال الحصص، حتى وجدت كلاريسا نفسها مرغمة على الامتثال بمقتضيات الصحة والسلامة الحديثة، ولم يعد مسموحاً لها فرضُ عادتها على طلبتها.

لكن ماريانا ما كانت تمانع، بل على العكس. في الواقع، وهي جالسة هنا الآن، أدركت كم كانت تفتقد هذه الرائحة. ففي المرات النادرة التي صادفت فيها شخصاً يدخن الغليون في العالم الخارجي، كانت تشعر بالاطمئنان في الحال، إذ ربطت الرائحة القوية للدخان المتصاعد بالحكمة والتعلم، وباللّطف كذلك.

أشعلت كلاريسا الغليون ونفثت، لتختفي خلف سحابة دخانٍ

كثيفٍ، ثم قالت: «إنه لمن الصعب فهم الأمر. أشعر بالضياع، بصراحة، ويجعلني ذلك أدرك كم الحياة التي نحظى بها في هذا المكان محصَّنة، وكم نحن سذج، نجهل - عمداً ربما - الفظائع التي تحدث في العالم الخارجي».

وافقتها ماريانا الرأي ضمنيّاً. فالقراءة عن الحياة لم تكن قطّ تحضيراً كافياً لخوض غمار عيشها، فهي تعلّمت ذلك بالطريقة القاسية. لكنها لم تفصح عن ذلك. أومأت برأسها فحسب.

«هذا الكم من العنف مثيرٌ للرعب. يصعب على أيّ كان فهمه».

أشارت كلاريسا بالغليون ناحيةَ ماريانا، فهي غالباً ما كانت تستخدمه كعصا للإشارة، فيتطاير التبغ ويترك على السجاد بقعاً سوداء محترقة في مكان سقوط الفُتات الوابِص. «أتعلمين، كانت للإغريق كلمة لوصف ذلك. . . ذاك النوع من الغضب».

أثار ذلك انتباه ماريانا. «حقاً؟».

«Menis، ولا مرادف للكلمة في الإنجليزية. فكما تذكرين، يبدأ هوميروس **الإلياذة** كالتالي:

‘μῆνιν ἄειδε θεὰ Πηληϊάδεω Ἀχιλῆος’

- ’’ترنمي، أيتها الإلهة، بغضب أخيل‘‘».

«آه، وماذا تعني الكلمة بالضبط؟»، سألتها ماريانا.

بدت كلاريسا مستغرقةً في أفكارها لوهلة. «أظن أن أقرب ترجمةٍ لها هي نوع من الغضب المحتدم - غيظ مرعب - نوبة هيجان».

أومأت ماريانا برأسها. «نوبة هيجان، أجل. . .».

وضعت كلاريسا الغليون في منفضة فضّيّة، وعلت شفتيها

ابتسامةٌ صغيرةٌ وهي تنظر إلى ماريانا. «أنا سعيدة جداً بوجودك هنا، يا عزيزتي. ستكونين عوناً كبيراً».

«أنا هنا هذه الليلة فقط؛ أنا هنا من أجل زوي فحسب».

بدت البروفيسورة خائبةَ الأمل. «أهذا كل شيء؟».

«يجب أن أعود إلى لندن، لديّ حصص علاجيّةٌ مع مرضَاي...».

«بالطبع، ولكن...»، ترددت كلاريسا، «ألا يمكنك البقاء لبضعة أيام؟ من أجل الكلية؟».

«لا أرى كيف يمكنني المساعدة، فأنا معالجةٌ نفسيّةٌ، ولست محققةً».

«أنا أعي ذلك تماماً. أنتِ معالجة نفسية متخصصة في العلاج الجماعي... وما لدينا هنا في واقع الأمر هو أمر يخصّ الجماعة».

«أجل، ولكن...».

«لقد كنتِ طالبة في سانت كريستوفر. سيمنحك ذلك درجةً عاليةً من التبصّر وفهماً جيداً للوضع، وهو الأمر الذي لا تملكه الشرطة، مهما بلغ اهتمامهم بالأمر وإتقانهم لعملهم».

هزّت ماريانا رأسها. لقد أزعجها أن تُحشر في الزاوية مجدداً. «أنا لست خبيرة في علم الجريمة. هذا ليس اختصاصي».

بدت كلاريسا خائبة الأمل، لكنها أحجمت عن التعليق، وراقبت ماريانا لبعض الوقت عوض ذلك، ثم تحدثت بنبرة أكثر رقّة.

«اعذريني، يا عزيزتي. تبادر إلى ذهني أنني لم أسألك ولو لمرةٍ واحدةٍ عن شعورك».

«أي شعور؟».

«عن كونك هنا... من دون سيباستيان».

كانت هذه أول مرة تشير فيها كلاريسا إلى سيباستيان، وأخذ ذلك ماريانا على حين غرة. لم تعرف كيف تردّ.

«لا أعلم بماذا أشعر بالضبط».

«شعورٌ **بالغرابة**؟».

أومأت ماريانا برأسها. «نعم، **الغرابة** كلمةٌ مناسبةٌ».

«لقد شعرت بالغرابة ذاتها بعد أن مات تِيم. لقد كان دوماً هنا... ثم، فجأة، لم يعد كذلك. ظللتُ أترقّب أن يقفز من وراء أحد الأعمدة ليفاجئني... وما زلت».

كانت كلاريسا متزوجة من البروفيسور تيموثي ميلر لثلاثة عقود. كانا غريبَي أطوار كامبريدج، يراهما الناس وهما يتجولان حول البلدة معاً، يتأبّطان كتباً، شعرهما أشعث، يرتديان جوارب غريبة الشكل، ومستغرقَين في محادثةٍ ما. كانا زوجَين من أسعد الأزواج الذين التقتهم ماريانا في حياتها على الإطلاق، إلى أن تُوفي تيم قبل عشر سنوات.

«سيغدو الأمر أسهل»، قالت كلاريسا.

«حقاً؟».

«من المهم أن تُبقي نظرك موجهاً إلى الأمام. ألّا تنظري أبداً إلى الوراء، من فوق كتفك. فكّري في المستقبل».

هزّت ماريانا رأسها. «في الحقيقة، أنا لا أستطيع أن أرى مستقبلاً... لا أرى الكثير. كل ما أراه...». سرحت في محاولتها البحث عن كلمات، ثم تذكرت: «خلف الحجاب! كلمات من كانت؟ خلف الحجاب، خلف الحجاب...».

«تنيسون»، ردت كلاريسا دون تردد. «في قصيدته **في ذكرى أ. هـ. هـ.**، المقطع السادس والخمسون، إذا لم تخنّي الذاكرة».

ابتسمت ماريانا. كانت لمعظم المعلّمين هنا موسوعةٌ محلّ الدماغ، لكن كانت كلاريسا تملك مكتبةً كاملةً داخل رأسها. أغمضت البروفيسورة عينيها وشرعت في استظهار القصيدة:

«آهٍ يا دنيا! تافهةٌ ثم تصيرين يَباب!
ليكون في صوتكِ طمأنينةٌ ومناص!
أي أملٍ لديَّ في جوابٍ أو خلاص؟
خلف الحجاب، خلف الحجاب. . .».

أومأت ماريانا برأسها في حزنٍ. «أجل. . . أجل، تلك هي».

«يبدو لي أن تنيسون لا يحظى بالأهمية التي يستحقها في هذه الأيام». ابتسمت كلاريسا ثم ألقت نظرة إلى ساعتها. «إذا كنتِ ستمكثين هنا هذه الليلة، فيجب أن نجد لك غرفةً. دعيني أنادي البوّاب».

«شكراً لك».

«انتظري لحظة».

نهضت المرأة العجوز من مقعدها بصعوبة ثم توجّهت نحو مكتبتها. مرّرت أناملها على الكتب واحداً تلو الآخر إلى أن عثرت على مرادها، فسحبت الكتاب من الرّف ودسّته في يدَي ماريانا.

«خذيه. لقد كان مصدرَ سلوانٍ عظيمٍ لي بعد وفاة تيمي».

كان كتاباً رفيعاً، مجلَّداً بالأسود، مكتوبٌ على غلافه بحروفٍ ذهبيّة باهتة:

في ذكرى أ. هـ. هـ. بقلم ألفريد تنيسون.

رمقتها كلاريسا بنظرة حازمة. «اقرئيه».

20

وجد السيد موريس غرفةً لماريانا. كان رئيس البوابين في الكلية.

تفاجأت ماريانا بلقائه في غرفة البوّاب. كانت تذكر السيد موريس جيداً: رجل عجوز دائم البشاشة، محبوب من الجميع في الجامعة، صَفوح عَطوف في تعامله الأبويّ مع الطلبة.

لكن السيد موريس هذا كان شابّاً، لم يبلغ الثلاثين بعد، طويلٌ وذو بنيةٍ قويةٍ. له فكٌّ بارز وشعرٌ بنيٌّ غامقٌ، ممشوطٌ إلى جهةٍ واحدةٍ ومُمَلَّسٌ بالمرطّب الدهني. يرتدي بذلة سوداء، ربطة عنق جامعية في الأزرق والأخضر، وقبّعة سوداء.

ابتسم حين رأى أمارات المفاجأة على وجه ماريانا.

«تبدين كما لو أنك توقعت رؤية شخص آخر، يا آنسة».

تلعثمت ماريانا في حرجٍ وهي تقول: «أجل، في الواقع... السيد موريس...».

«... إنه جدّي، لقد توفي قبل بضع سنوات».

«أوه، أنا آسفة...».

«لا عليك. يحدث ذلك طوال الوقت. أنا نسخةٌ باهتةٌ عنه، أو

على الأقل هذا ما يذكّرني به باقي البوّابين طوال الوقت». غمز لها وهو يمسك بحافة قبّعته، ثم قال: «من هنا، يا آنسة. اتبعيني».

فكّرت ماريانا أن سلوكه المؤدّب والرسمي ينتمي إلى زمنٍ مضى، زمنٍ أفضلَ ربما.

أصرّ على حمل حقيبتها، رغم احتجاجاتها. «هذه هي الطريقة التي نقوم بها بالأمور هنا. تعلمين ذلك. فسانت كريستوفر هي أحد الأماكن التي لا تتأثر بمرور الوقت».

ابتسم لها. بدا على سجيته تماماً، واثقاً من نفسه، سيداً في ميدانه - وهو أمر ينطبق على جميع بوّابي الكلية بحسب تجربة ماريانا، فمن دون وجودهم وتدبيرهم أمور الكلية على نحوٍ يوميٍّ، كان كل شيء لينهار في وقتٍ وجيزٍ.

قادها موريس إلى غرفةٍ في ساحة غابرييل. كانت الساحة نفسها حيث أمضت سنتها الأخيرة كطالبةٍ. ألقت نظرة إلى الدرج العتيق وهما يمرّان بجواره، إلى سلالم الحجر التي مضت هي وسيباستيان عليها صعوداً ونزولاً مراتٍ لا تُعَدُّ ولا تحصى.

فتح موريس القفل، ثم فتح الباب، وسلّم ماريانا المفتاح.

«تفضلي، يا آنسة».

«شكراً لك».

دخلت ونظرت من حولها. كانت غرفةً صغيرة بنافذة ناتئة ومدفأة، وسرير من خشب الصنوبر ذي أعمدة منقوش عليها حبالٌ مفتولةٌ. كان سديل السرير من قماش الشينتز وذا ستائر جعلته أقرب إلى الخيمة، شعرت ماريانا بأنه خانق شيئاً ما.

«إنها إحدى أجمل الغرف المتوفرة لدينا للطلبة القدامى»، قال موريس، «رغم أنها قد تبدو صغيرةً شيئاً ما». ثم أضاف بعد أن

وضع حقيبة ماريانا على الأرض بجوار السرير: «آمل أن تجديها مريحةً».

«شكراً لك. أنت لطيف جداً».

ترددت. لم تستحضر خبر جريمة القتل، لكنها شعرت بأنه يجب عليها أن تشير إليه بطريقةٍ ما، لا سيما أن الفكرة لم تفارق ذهنها لحظة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«أمرٌ مريعٌ ذاك الذي حدث».

أومأ موريس برأسه. «مريعٌ حقاً».

«لا بد أنه صدم الجميع هنا في الكلية».

«أجل، صحيح. أنا ممتنٌّ أن جدّي لم يشهد ذلك، كان هذا ليقضي عليه».

«أكنت تعرفها؟».

«تارا؟». هزّ موريس رأسه. «فقط من خلال سُمعتها. لقد كانت... فلنَقُل: معروفةً! هي وصديقاتها».

«صديقاتها؟».

«صحيح. لقد كنّ... مجموعة فتياتٍ مستفِزّاتٍ».

«"مستفِزّات"؟ هذه كلمة مثيرة للاهتمام».

«أحقاً هي كذلك، يا آنسة؟».

تظاهر بالخجل عن قصد، وتساءلت ماريانا عن سبب ذلك.

«ماذا تقصد بها؟».

ابتسم موريس. «فقط أنهن كنّ شيئاً ما... صاخبات، إذا كنت تفهمين قصدي. وجب علينا تتبّعهن بصرامةٍ، هنّ وحفلاتهن، التي اضطررتُ لتفريقها بضع مراتٍ: اختلاطٌ، وهَرَجٌ ومَرَجٌ».

«مفهوم».

صَعُب على ماريانا قراءةُ تعابير وجهه، وتساءلت عمّا يكمن وراء سَمته الحسن وسلوكه الدّمِث. ماذا كان رأيه في الموضوع حقاً؟

ابتسم موريس. «إذا كان موضوع تارا يهمك، فعليك التحدث إلى إحدى عاملات تنظيف الغرف. إنهن على دراية بما يجري داخل أسوار الكلية. كل النميمة والأخبار».

«سآخذ ذلك بعين الاعتبار. شكراً لك».

«إذا كان هذا كل شيء، يا آنستي، فسأتركِك لترتاحي. ليلةً طيبةً!».

توجّه موريس نحو الباب ثم انسلّ خارجاً وأغلق الباب خلفه بصمت.

صارت ماريانا وحدها أخيراً، بعد يومٍ شاقٍّ وطويلٍ. جلست على السرير، خائرة القوى.

نظرت إلى ساعتها: التاسعة مساءً. يجدر بها أن تنسلّ تحت لحاف السرير، لكنها عرفت أن النوم سيجافيها. كان ذهنها مشوَّشاً ومشاعرها مضطربةً.

بعد ذلك، وهي تفرغ حقيبتها، وجدت ديوان الشعر الرفيع الذي أعطتها إياه كلاريسا.

في ذكرى أ. هـ. هـ.

جلست على السرير وفتحته. كانت صفحاته قد جفّت بمرور السنين، ما جعلها صلبة ومتموِّجة، فتحسّستها ماريانا برؤوس أصابعها.

ماذا قالت عنه كلاريسا؟ أنها ستغيّر منظورَها له الآن. لماذا؟ بسبب سيباستيان؟

تذكّرت ماريانا قراءتها القصيدة وهي طالبة جامعية. ومثل معظم الناس، لقد نفرت من طولها الهائل - ثلاثة آلاف بيت شعر - وشعرت بأنها قامت بإنجاز عظيم لمجرد أنها أنهت قراءتها. لم تحرّك فيها تلك الأبيات شيئاً آنذاك، لكنها كانت أصغر سنّاً، وسعيدةً، وعاشقةً، ولا حاجة لها بالشعر الحزين.

في مقدمة الكتاب بقلم أحد الباحثين، قرأت ماريانا أن ألفريد تنيسون عاش طفولةً بائسةً، في أسرة معروفة بـ«دمها الداكن»، إذ كان والده سكّيراً ومدمنَ مخدّرات ومعتدياً عنيفاً، فعانى أشقّاؤه من الاكتئاب والأمراض العقلية، فدخل بعضهم المصحات، فيما انتحر البعض الآخر. وفي سن الثامنة عشرة، فرّ ألفريد من المنزل و - مثل ماريانا - صادف عالماً من الحريّة والجمال في كامبريدج، كما أنه وجد الحبّ أيضاً. وبغضّ النظر عن طبيعة العلاقة التي جمعته بآرثر هنري هالام، إلا أنه كان من الجليّ أنها رومانسية بامتياز: فمنذ التقيا في نهاية سنتهما الأولى، قضيَا كل أوقاتهما معاً، وغالباً ما كانا يمشيان يداً في يد. . . إلى أن توفّي هالام إثر تمدّدٍ في الأوعية الدّمويّة بعد ذلك بسنوات، سنة 1833.

قيل إن تنيسون لم يتعافَ قطّ من فقْده لهالام - فظلّ مكتئباً، أشعثَ، لا يغتسل، واستسلم لحزنه وانهار. فعلى مدار السنوات السبع عشرة التالية، ظلّ الحزن مسيطراً عليه، ولم يكتب سوى قصاصات متفرّقةٍ من الشِّعر - سطورٌ، أبياتٌ، ومرثيّاتٌ - تتعلّق جميعها بهالام. وفي نهاية المطاف، تم تجميع تلك الأبيات في قصيدة واحدة ضخمة، نُشرت تحت عنوان **في ذكرى أ. هـ. هـ.**، وسرعان ما تم تتويجها كإحدى أفضل القصائد المكتوبة باللغة الإنجليزية على مدار التاريخ.

استقرت ماريانا على السرير وشرعت في القراءة، وسرعان ما اكتشفت كيف أن صوته بدا مألوفاً وأصيلاً على نحوٍ مؤلم، لدرجة أنه راودها إحساسٌ غريبٌ بالخروج من الجسد، كما لو أن ذلك كان صوتَها هي، وليس صوتَ تنيسون، كما لو أنه عبّر عن مشاعرها هي، عن عواطفها الوجدانية العميقة التي لا يمكن التعبير عنها.

تبدو لي أحياناً صياغةُ حُزني
في كلماتٍ أمراً أقربَ إلى الخطيئة
لأن الكلمات، مثل الطبيعة، تكشف جزءاً
وتخفي جزءاً من الروح بالداخل.

وتماماً مثل ماريانا، بعد عام من وفاة هالام، قام تنيسون برحلة العودة إلى كامبريدج، وسار في الشوارع نفسها التي مشى فيها رفقة هالام، ووجد «أنها بدت نفسها، إلا أنها لم تكن نفسها»، ووقف خارج غرفة هالام، فرأى «اسماً آخر على الباب».

ثم وقعت ماريانا على هذه الأبيات التي ذاع صيتها لدرجة أنها اندمجت في اللغة الإنجليزية نفسها - إلا أن وجودها هنا، مدفونة وسط مئات الأبيات الأخرى، جعلها تحافظ على قدرتها على التسلل خلف ظهرها، وأخذها على حين غرّة، وخطف أنفاسها:

أؤمن بصحة المقولة أنه مهما وقع،
وفي لحظات الحزن القصوى،
من الأفضل أن تكون قد أحببت وخسرت
من ألا تحب أبداً على الإطلاق...

اغرورقت عينا ماريانا بالدّموع. وضعت الكتاب جانباً ونظرت

عبر النافذة، إلّا أن المكانَ كان مظلماً في الخارج، فانعكست صورة وجهها على الزجاج. حدّقت في نفسها، فيما انهمرت دموعها على خديها.

ما العمل الآن؟ إلى أين أنتِ ذاهبة؟

ماذا تفعلين؟

كانت زوي محقة: لقد كانت تهرب. ولكن إلى أين؟ إلى لندن؟ إلى ذلك المنزل المسكون عند تلّ بريمروز؟ لم يعد ذلك منزلاً، بل مجرد حفرةٍ تختبئ فيها.

كما أن زوي كانت بحاجةٍ إليها هنا، سواء اعترفت بذلك أم لم تفعل، فلم يكن بإمكان ماريانا التخلي عنها، كان ذلك غير وارد على الإطلاق.

تذكّرت فجأة ما قالته زوي خارج تلك الكنيسة: أن سيباستيان كان سيطلب من ماريانا البقاء هنا. كانت زوي على حق.

كان سيباستيان سيرغب في أن تقف ماريانا بثباتٍ، وتحارب.

حسنٌ، ما العمل إذاً؟

راحت تفكّر في أداء البروفيسور فوشكا حين اعترض طريقهما في الساحة. قد تكون كلمةُ «أداء» مناسبةً. ألم يكن هناك شيء من التصنّع في إلقائه؛ ألم يكن قد تدرّب عليه؟ وإن يكن، فقد كانت لديه حجة غياب. إلا إذا كان قد أقنع طالباته بالكذب من أجله، وهو ما بدا مستبعَداً، ما يعني أنه بريء...

ومع ذلك...؟

كان هناك شيءٌ غريبٌ في كل هذا... شيءٌ غير منطقيّ...

لقد اتهمت تارا فوشكا بتهديدها بالقتل. ثم... ساعات بعد ذلك، عُثر عليها ميّتةً.

لا ضرر في أن تبقى هنا لبضعة أيامٍ وتطرح بعض الأسئلة عن علاقة تارا بالبروفيسور، فقد يأتي التحرّي عن فوشكا بالفائدة.

وإذا كانت الشرطة لن تطارده، فيمكن لماريانا - كدَين شرفٍ تجاه صديقة زوي - أن تصغي إلى قصة هذه الشابة المسكينة. . . وتأخذها على محمل الجد.

خاصة وأن لا أحد آخر قام بذلك.

الجزء الثاني

إن جدالي بخصوصِ معظم ما جاء به التحليل النفسيُّ راجع إلى التّصوّر المُسبَق المتمثل بأن المعاناة خطأٌ، أو أنها علامةٌ على الضّعف، بل وحتّى المرض، في حين أن أعظم الحقائق التي نعرفها جاءت، في واقع الأمر، نتيجةَ معاناةِ النّاس.

ـــ آرثر ميلر

لا الصقاليب ولا العمالقة آكلة البشر،
ولا بُوسايْدون العاصِف،
لن تُصادِفَ أيّاً منهُم في طريقك أبداً،
ما لم تحملهم في روحِك،
ما لم تضعهم روحُك نصبَ عينَيك.

ـــ من قصيدة **إيثاكا**، لقسطنطين كافافي

1

لم أستطعِ النوم هذه الليلة مجدداً. كنت أشعر بفائض من الطاقة، بالتوتر. فائض من الحماس، كانت والدتي لتقول.

لذا توقف عن المحاولة، ورُحت أتمشّى.

وأنا أمضي عبر شوارع المدينة الخالية، صادفت ثعلباً. لم ينتبه إليّ وأنا أقترب منه، فرفع رأسه باتجاهي فَزِعاً.

لم يسبق لي أن كنت على مقربة من ثعلبٍ إلى تلك الدرجة. يا له من مخلوق بديع! ذاك الفراء، ذاك الذيل، وتانك العينان الغامقتان، تحدّقان فيّ مباشرةً.

نظرت داخلهما... فماذا رأيت؟

يصعب وصف ذلك. رأيت كل عجائب الخلق، عجائب الكون، هناكَ في عينَي ذلك الحيوان، وفي تلك اللحظة. كان الأمر أشبه برؤية الخالق في خَلقِه. ولثانيةٍ، راودني إحساس غريبٌ، حضورٌ ما. كما لو أن الرب كان هناك، في الشارع، على مقربة مني، ممسكاً بيدي.

شعرت بالأمان فجأة. شعرت بالهدوء والسلام يغمرانني، كما لو أن حنقاً محتدماً قد خمد، كما لو أن اهتياجاً قد خبا وتلاشى. شعرت بالجزء الآخر من نفسي، الجزء الصالح، ينبثق ويسمو مع الفجر الوليد...

لكن بعدها، اختفى الثعلب. انسل نحو الظلال، وأشرقت الشمس... رحل الرب. كنت وحيداً، منشطِراً شطرَين.

أنا لا أريد أن أكون شخصين اثنَين! أريد أن أكون شخصاً واحداً. أريد أن أكون مكتمِلاً. لكن يبدو أن لا خيار لدي.

وأنا واقف هناك في الشارع، وفيما كانت الشمس تشرق، غمرني شعورٌ مقيتٌ باستعادة ذكرى بعيدةٍ: فجر آخر، قبل سنين طويلة. صباح آخر... مثل هذا بالضبط.

الضوء الأصفر ذاته. الشعور بالانشطار إلى نِصفَين ذاته.

لكن أين؟

ومتى؟

أعلم أنني أستطيع التذكر لو حاولت. لكن، هل أرغب حقّاً في ذلك؟ راودني شعورٌ بأنني حاولت جاهداً أن أنسى. ما الذي أخشاه؟ أهو والدي؟ أما زلت أعتقد أنه سيخرج من بابٍ سحريٍّ كشريرٍ أشِرٍ، وينقضّ عليّ؟

أم أنها الشرطة؟ هل أخشى أن تحطّ يدٌ مفاجئةٌ على كتفي: اعتقالاً، عقاباً، أو تكفيراً عن ذنوبي؟

لمَ أنا خائف لهذه الدرجة؟

لا بد أن الإجابة كامنةٌ في مكانٍ ما.

وأعرف أين عليّ أن أبحث.

2

باكراً صباح اليوم الموالي، ذهبت ماريانا لرؤية زوي.

كانت زوي قد استيقظت لتوها ولا تزال مترنّحة، تحيط دميتها - زيبرا - بإحدى يديها، وتزيل قناع النوم عن عينيها باليد الثانية.

طرفت بعينيها وهي تنظر إلى ماريانا التي فتحت الستائر لتُدخل ضوء النهار إلى الغرفة. لم تبدُ زوي على ما يرام: كانت عيناها محتقنتين بالدم، وبدت منهكة.

«آسفة، لم أحظَ بنوم كافٍ. ظلّت الكوابيس تقضّ مضجعي».

مدّت إليها ماريانا كوب قهوة قائلةً: «بخصوص تارا؟ أظن أنني حلمت بها أيضاً».

أومأت زوي برأسها بالإيجاب واحتست قهوتها. «يبدو كل هذا أشبه بالكابوس. لا أصدق أن هذا حصل فعلاً. لا أصدّق أنها... رحلت».

«أعلم، يا عزيزتي».

جادت عينا زوي بالدموع. لم تدرِ ماريانا إن كان عليها مواساتها أم تشتيت انتباهها. قررت فعل الأمر الثاني. حملت

مجموعة الكتب من فوق المكتب ونظرت إلى عناوينها: **دوقة مالفي**[1]، **مأساة المنتقم**[2]، **المأساة الإسبانية**[3].

«دعيني أحزر، أنت تدرسين التراجيديا هذا الفصل؟».

«تراجيديا الانتقام»، ردت زوي مع تأوه طفيف. «وقد كان ذلك غباءً مني».

«لماذا؟ ألا تستمتعين بالقراءات؟».

«قصة **دوقة مالفي** لا بأس بها... إنها مضحكةٌ شيئاً ما، أقصد، إنه جنون».

«أذكر ذلك: أناجيل مسمّمةٌ وذئاب ضارية. ولكن مع ذلك، العمل ناجح بطريقة ما، أليس كذلك؟ أو لطالما ظننتُ ذلك، على الأقل». نظرت ماريانا إلى غلاف **دوقة مالفي**. «لم أقرأها منذ سنواتٍ».

«سيؤدّونها على خشبة مسرح ADC[4] خلال هذا الفصل. يجب أن تحضري لمشاهدتها».

«سأفعل. إنه دورٌ جيّدٌ. لماذا لا تتقدمين لتجارب الأداء؟».

«لقد فعلت. ولم أنجح». تنهدت زوي مضيفة: «مثلما يحدث دوماً. إنها قصة حياتي!».

ابتسمت ماريانا. تهاوت تلك الواجهة، ذلك الادّعاء بعدم وجود خطب ما. حدّقت فيها زوي مقطبة حاجبيها.

---

(1) *The Duchess of Malfi* by John Webster.

(2) *The Revenger's Tragedy* by George Eld.

(3) *The Spanish Tragedy* by Thomas Kyd.

(4) ADC Theatre: مسرح للهواة تابع لجامعة كامبريدج، وهو اختصار لـ Amateur Dramatic Club - المترجم.

«هل ستغادرين الآن؟ هل أتيت لتوديعي؟».

«لا، لقد قررت البقاء - لبضعة أيام على الأقل - وطرح بعض الأسئلة. سأرى ما إذا كان باستطاعتي المساعدة».

«حقاً؟». أشرقت عينا زوي وانبسطت جبهتها. «هذا رائعٌ! شكراً لكِ». ترددت قليلاً، ثم قالت: «اسمعي... ما قلتُه مساء أمس... أمنيتي أن يكون سيباستيان هنا بدلاً منك... أنا آسفةٌ بشأن ذلك». مكتبة سُر مَن قرأ

«لا داعي للاعتذار. لطالما كان سيباستيان أفضل مني بكثير في التعامل مع الأزمات».

«لطالما أشعرنا بأنه يعتني بنا. والآن...». هزت زوي كتفيها دون أن تنهي جملتها.

ابتسمت لها ماريانا في حُنوٍّ ومساندةٍ. «والآن سنعتني إحدانا بالأخرى. اتفقنا؟».

«اتفقنا». أومأت زوي برأسها، ثم تحدثت بنبرة أكثر صرامةً، وهي تستعيد رباط جأشها. «امنحيني عشرين دقيقة لأستحم وأستعد. يمكننا أن نضع برنامجاً...».

«ماذا تقصدين؟ أليست لديك محاضرات اليوم؟».

«أجل، ولكن...».

«لن أقبل منكِ أيّةَ "ولكن"»، ردت ماريانا بحزمٍ. «يجب أن تحضري دروسك. لا تفوّتي أيّاً من محاضراتك. سأراكِ عند الغداء. يمكننا أن نتحدث حينها».

«أوه، ماريانا...».

«لا تتأفّفي. أنا أعني ذلك. أن تُبقي ذهنكِ منشغلاً الآن أمرٌ أكثرُ أهميةً من أيّ وقتٍ مضى. ركّزي على عملك. اتفقنا؟».

تنهدت زوي بعمقٍ لكنها لم تحتجّ أكثر من ذلك. «اتفقنا».
«تمام»، قالت ماريانا. «سأراك لاحقاً».

غادرت ماريانا غرفة زوي واتجهت صوب النهر.

تجاوزت مرفأ الجامعة حيث كانت صفوف من قوارب سانت كريستوفر راسيةً، مربوطةً إلى الضفة، تتمايل في الماء بخفّةٍ.

وهي في الطريق، اتصلت بمرضاها لإلغاء حصص ذلك الأسبوع.

لم تخبرهم بما حصل. كل ما قالته هو أن لديها حالة عائلية طارئة، ومعظمهم تقبّل الأمر بسهولة... عدا هنري. توقعت ماريانا منه ردة فعل غاضبةً، وذلك ما حصل بالفعل.

«شكراً جزيلاً»، قال بتهكّم. «مرحى، يا صاح. أقدّر ذلك كثيراً».

حاولت ماريانا أن تشرح له أن هناك حالة طارئة، لكنه لم يُبدِ أيّ اهتمامٍ بما قالته. فمثل الطّفل تماماً، لم يكن هنري قادراً على رؤية شيء عدا احتياجاته هو، وكان كل اهتمامه منصبّاً على معاقبتها.

«هل تبالين لأمري؟ ألديك أدنى ذرة اهتمامٍ تجاهي؟».

« الأمر خارجٌ عن سيطرتي، يا هنري...».

«وماذا عني؟ أنا بحاجة إليك، يا ماريانا. هذا خارجٌ عن سيطرتي. هناك أشياء تحدث لي... أنا... أنا أغرق هنا...».

«ما الأمر؟ ما الخطب؟».

«لا أستطيع التحدث عن ذلك عبر الهاتف. أنا بحاجة إليك... لماذا لستِ في المنزل؟».

تسمّرت ماريانا في مكانها. كيف علم أنها ليست هناك؟ لا بد أنه كان يراقب المنزل مجدداً.

شعرت فجأة بانطلاق صافرة إنذار في رأسها؛ كان هذا الوضع مع هنري لا يُحتَمل. شعرت بالغضب من نفسها لأنها سمحت للأمر أن يصل إلى هنا. سيتوجب عليها التعامل مع الأمر - التعامل مع هنري - لكن ليس الآن. ليس اليوم.

«يجب أن أذهب الآن»، قالت له.

«أعلم مكانك، يا ماريانا. لا تعلمين ذلك، أليس كذلك؟ أنا أراقبك. إني أراك...».

أقفلت ماريانا الخط. شعرت بالوهن. نظرت من حولها إلى ضفة النهر والطريق من الجهتين، لكن لا أثر لهنري في المكان.

بالطبع لم يكن له أثر. لقد كان يحاول تخويفها فحسب. تضايقت من نفسها لابتلاعها الطعم.

هزّت رأسها في سخطٍ، ثم واصلت طريقها.

3

كان صباحاً جميلاً. كانت أشعة الشمس تتخلّل أغصان شجر الصفصاف على طول النهر، جاعلةً الأوراق تلمع بلونٍ أخضر متوهّج فوق رأس ماريانا، ونما أسفل قدميها نبات السيكلامين البريّ على طول الطريق في بقع متفرقة مثل فراشاتٍ ورديّةٍ صغيرةٍ. كان من الصعب عليها إقران كل هذا الجمال بسبب وجودها هناك، أو بأفكارها التي تمحورت حول القتل والموت.

ما الذي أفعله هنا بحق الجحيم؟ تساءلت. **هذا الأمر جنوني!**

كان من الصعب تفادي التفكير بسلبيةٍ في شأن كل ما هو خفيّ عنها. لم تكن لديها أدنى فكرةٍ عن كيفية الإمساك بقاتل. لم تكن خبيرة في علم الجريمة ولا طبيبة نفسية شرعية مثل جوليان. كانت معرفتُها الغريزية بالطبيعةِ البشرية وسلوكِها كلَّ ما لديها، بناءً على سنواتٍ من العمل مع مرضاها. ولا بد أن يُثمر ذلك. يجب عليها مَحقُ شعور التشكيك بالذات ذاك، وإلا سيعوقها. يجب عليها أن تثق بغرائزها. راحت تفكر لبرهة.

من أين تبدأ؟

حسناً، أولاً - وهو الأهم - يجب أن تفهم تارا: من كانت

كشخص؟ من أحبّت؟ من كرهت؟ ممن كانت تخاف؟ شكّت ماريانا أن جوليان كان على حق: كانت تارا تعرف قاتلها. لذا كان يتوجب على ماريانا أن تكشف أسرارها. لن يكون الأمرُ صعباً. ففي مجموعاتٍ كهذه - مجموعات صغيرة ضيقة - تتفشّى النميمة ويعرف كلٌّ واحد عن كثب تفاصيل الحياة الحميمة للآخرين. فإذا كانت هناك ذرة حقيقةٍ في العلاقة المُدَّعاة بين تارا والبروفيسور فوشكا، مثلاً، فلا بد أن تكون هناك شائعات عن ذلك. ستعرف الكثير إذا استمعت للآخرين في الجامعة. من هنا ستبدأ ماريانا: بطرح الأسئلة.

وبالإصغاء، وهو الأهم.

كانت قد بلغت مكاناً من النهر أكثر اكتظاظاً، عند شارع مِيل لين. كان الناس من حولها يتمشّون، ويركضون، ويركبون دراجاتٍ هوائية. تأمّلتهم ماريانا لوهلةٍ. قد يكون القاتل أياً من هؤلاء الناس. قد يكون واقفاً هناك في هذه اللحظة.

قد يكون يراقبها.

كيف ستتعرف عليه؟ في الواقع، الإجابة البسيطة هي أنها لن تفعل. ورغم كل ادعاءات جوليان بالخبرة، فهو لن يتعرف عليه أيضاً. كانت ماريانا تعلم أنه في حال سُئل جوليان عن الاعتلال النفسي، فسيشير إلى ضررٍ جسيمٍ أو مؤقّتٍ في الفصّ الجبهي، أو سيقوم باقتباس سلسلة من التسميات التي لا معنى لها - اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع، اختلال النرجسية الخبيثة - إضافةً إلى مجموعةٍ من الصفات المرتجَلةِ مثل الذكاء العالي، والجاذبية السطحية، وتضخم الأنا، والكذب المرَضيّ، والازدراء للأخلاق، جميعها لا تشرح الكثير. لا تشرح كيف - أو لماذا - قد ينتهي

المطاف بشخصٍ في أن يصبح وحشاً بلا رحمة ولا شفقة، يستغل البشر كما لو كانوا دمى محطّمة يمزّقها إلى أشلاء.

قديماً، كان الاعتلال النفسي يدعى «شرّاً». وقد كُتب عن الأشخاص «الأشرار» - أولئك الذين يستمتعون بإيذاء وقتل الآخرين - منذ أن حملت ميديا[1] فأسها في وجه أطفالها، وربما قبل ذلك بكثير. وقد ابتكر طبيبٌ نفسيٌّ ألماني مصطلحَ «معتل نفسي» (Psychopath) سنة 1888 - السنة نفسها التي أرعب فيها «جاك السفّاح» لندن - من الكلمة الألمانية Psychopastiche التي تعني حرفياً: «روحٌ معذَّبةٌ». واستلهمت ماريانا من الإشارة إلى العذاب فكرة أن هؤلاء الوحوش كانوا أيضاً يعيشون في عذابٍ ومعاناةٍ، واعتبارُهم ضحايا مكّنها من أن تكون أكثر عقلانية في مقاربتها وأكثر تعاطفاً. لا يظهر الاعتلال النفسي أو السادية من العدم، فهو ليس فيروساً يظهر ليصيب شخصاً ما فجأة، بل له ماضٍ طويل في مرحلة الطفولة.

تعتقد ماريانا أن الطفولة تجربةٌ تفاعليّةٌ، بمعنى أنه كي نتعاطف مع كائنٍ بشريٍّ آخر، يجب أن يكون أحدٌ ما قد **أبدى تعاطفاً تجاهنا** - والدانا أو من قدموا لنا الرعاية. فإن الرجل الذي قتل تارا كان طفلاً يوماً ما، طفلاً لم يعرف التعاطف، ولا اللطف. لقد عانى، وعانى بشدة.

في هذه الحالة، شكت ماريانا أنه لم يكن هناك أحد - لا جدّة حنونة، ولا عمّ مفضَّل، ولا جار ولا معلمٌ طيّب ليرى ألمه،

---

(1) ميديا: ساحرة في الأساطير الإغريقية، تزوج عليها زوجها امرأة ثانية لأنها همجية ومخادعة، فقتلت الزوجة الثانية هي وأولادها في نوبة غضب وهربت في عربة تقودها التنانين - المترجم.

ويسميه، ويجعله حقيقةً. كانت الحقيقة الوحيدة في يد الشخص المعتدي عليه، ومشاعر الطفل الصغير بالخزي والخوف والغضب كانت أخطر مما يمكنه استيعابه لوحده - لم يكن يعلم كيف يقوم بذلك - لذا لم يستوعب تلك المشاعر، ولم يشعر بها، فضحّى بنفسه الحقيقية وبكل ذلك الألم والغضب اللذين لم يشعر بهما ووهبها للعالم السفلي، عالم اللاوعي الضّبابي الحالك.

لقد فقد الاتصال بذاته الحقيقية. والرجل الذي استدرج تارا إلى تلك البقعة النائية كان غريباً عن ذاته بقدر ما كان غريباً عن الآخرين. شكّت ماريانا بأنه كان ممثّلاً بارعاً: مهذّباً جداً، فذّاً، وجذّاباً. لكن تارا استفزّته بطريقةٍ ما، فأطلق العنان للطّفل المكلوم بداخله، واستلّ خنجره.

لكن ما الذي استفزّه؟

كان هذا هو السؤال الأهم. لو كان فقط بإمكان ماريانا رؤية ما في ذهنه وقراءة أفكاره - أينما كان.

«مرحباً».

جعلها الصوت القادم من خلفها تقفز في مكانها. التفتت باتجاهه بسرعة.

«آسف. لم أكن أنوي إفزاعك».

كان الشخص هو فْريد، الشاب الذي التقته على متن القطار. كان يدفع دراجةً هوائيةً، ويتأبّط حزمة أوراق، ويقضم تفاحةً. علت وجهَه ابتسامةٌ عريضةٌ.

«أتتذكرينني؟».

«أجل، أتذكرك».

«قلتُ إننا سنلتقي مجدداً، أليس كذلك؟ توقعت ذلك. لقد أخبرتك، لدي شيء من القوة التنبؤية».

ابتسمت ماريانا. «كامبريدج مكانٌ صغيرٌ. إنها مصادفةٌ».

«خذي ذلك مني، بصفتي عالم فيزياء. لا وجود لشيء اسمه ''مصادفة''، والورقة البحثية التي أنا بصدد كتابتها تثبت ذلك».

أومأ فْريد برأسه باتجاه كومة الأوراق التي انسلّت من تحت ذراعه، فتبعثرتِ المعادلات الرياضية في المكان برمته.

«أحمق!»، علّق مخاطباً نفسه.

ألقى دراجته على الأرض وهَروَل محاولاً جمع الأوراق، جثت ماريانا على ركبتيها لمساعدته.

«شكراً»، قال وهما يجمعان آخر الأوراق.

كان على بعد إنشاتٍ قليلةٍ منها، يحدّق في عينيها. تبادلا النظرات لبعض الوقت. عيناه جميلتان، فكّرت ماريانا في سرها، قبل أن تطرد الفكرة من ذهنها وتقف من جديد.

«أنا سعيدٌ لأنك ما زلتِ هنا»، قال حين استقام. «هل ستطيلين البقاء؟».

هزّت ماريانا كتفيها. «لا أدري! أنا هنا من أجل ابنة أختي... لقد... لقد تلقّت خبراً سيئاً».

«أتقصدين جريمة القتل؟ ابنة أختك في كلية سانت كريستوفر، أليس كذلك؟».

طرفت ماريانا بعينيها، وقد التبس عليها الأمر. «أنا... لا أذكر أنني أخبرتك بذلك».

«أوه، لقد فعلتِ»، استرسل فريد في كلامه. «الجميع يتحدثون عن ذلك، عما حصل. لقد أمعنتُ التّفكير في ذلك كثيراً، ولديّ بضع فرضيات».

«أي نوع من الفرضيات؟».

«عن كونراد». تردد فريد ونظر إلى ساعته. «يجب أن أسرع الآن، لكنني لا أفترض أنك قد ترغبين في احتساء كأس معي؟ لنقل... هذا المساء؟ يمكننا أن نتحدث». نظر إليها وكلّه أمل. «أقصد، إذا كنت ترغبين في ذلك طبعاً، لا ضغوط، ليس بالأمر الجلل...».

كان بحديثه ذاك يلفّ الحبل حول نفسه، فأوشكت ماريانا على الرفض وتخليصه من معاناته إلا أن شيئاً ما منعها من فعل ذلك. ما الذي كان يعرفه عن كونراد؟ قد تستطيع ماريانا سبر أفكاره، وقد تكون هناك معلوماتٌ مفيدةٌ. كان الأمر يستحق المحاولة.

«حسناً»، ردت.

بدت المفاجأة والحماس على وجهه. «حقاً؟ رائع! عند الساعة التاسعة؟ في حانة ذي إيغل؟ دعيني أعطيك رقمي».

«لا داعي لإعطائي رقمك. سأكون هناك».

«حسناً»، قال بابتسامة عريضة على وجهه. «إنه موعد غرامي».

«إنه ليس موعداً غرامياً».

«لا، بالطبع لا. لا أعلم لماذا قلتُ ذلك. حسناً... أراكِ لاحقاً».

ركب درّاجته ومضى.

شاهدت ماريانا فريد وهو يمضي مبتعداً على الطريق المحاذية للنهر، ثم التفتت وعادت أدراجها إلى الكلية.

لقد حان الوقت للبدأ في التحريات. حان الوقت للتشمير عن ساعدَيها، والانخراط في العمل.

4

هرعت ماريانا عبر الساحة الرئيسية ونحو مجموعة نساء في متوسط العمر، يحتسين جميعهن شاياً من أكوابٍ يتصاعد منها البخار، يتشاركن قطع البسكويت، ويدردِشْن. كانت أولئك عاملات تنظيف الغُرف، يتمتعن باستراحة الشاي.

لمئات السنين، وُظِّفت جيوشٌ من النساء في الكليات لترتيب الأسرّة، وإفراغ سلال القمامة، وتنظيف الغرف، إلا أنه يجدر القول إن احتكاكهن اليومي مع الطلبة كان يعني أن دورهن كان يتخطى خدمات التنظيف ويصل إلى الرعاية أحياناً. ففي حالة ماريانا، كانت عاملة تنظيف غرفتها الشخص الوحيد الذي تحدثت إليه بشكل يومي، إلى أن التقت بسيباستيان.

شكّلت عاملات تنظيف الغُرف مجموعةً مهيبةً، فشعرت ماريانا بشيء من الخشوع وهي تقترب منهن. وتساءلت - ليس للمرة الأولى - عن رأيهن الفعلي في الطلبة، هؤلاء النسوة من الطبقة العاملة اللاتي لم يكنّ يتمتّعن بأيٍّ من المزايا التي يتمتع بها هؤلاء الطلاب المحظوظون، والمدلّلون في أغلب الأحيان.

ربما كنّ يكرهننا جميعاً، فكرت ماريانا فجأةً. وما كانت لتلومهنّ إذا كان واقع الأمر كذلك.

«صباح الخير، يا سيدات!»، حَيّتهُنّ ماريانا.

خفتت محادثاتهن ثم تلاشت. حَدّجَتِ النسوة ماريانا بنظرات فضوليّة وشيءٍ من التّوجس. ابتسمت لهنّ ماريانا.

«ربما يمكنكنّ مساعدتي. أنا أبحث عن عاملة تنظيف غرفة تارا هامبتون».

التفتت عدة رؤوس نحو امرأةٍ كانت تقف في الخلف، تشعل سيجارةً.

كانت المرأة في أواخر الستينات من عمرها أو أكبر بقليل، ترتدي مئزراً أزرق وتحمل سطلاً فيه مواد تنظيف مختلفة ومنفضة غبارٍ ريشيّةٍ. لم تكن بدينةً، لكنها كانت ذات بِنيةٍ قويةٍ ووجهٍ دائريٍّ. كان شعرها مصبوغاً بالأحمر وأبيض عند الجذور، وكانت قد رسمت حاجبيها المصبوغين بشكل يوميّ عالياً على جبهتها، ما جعلها تبدو مندهشةً. بدت منزعجة لكونها تمّت الإشارة إليها. ابتسمت لماريانا ابتسامة مصطنعة.

«هذه أنا، يا عزيزتي. أدعى إلسي. كيف يمكنني مساعدتك؟».

«اسمي ماريانا. لقد كنتُ طالبةً هنا. وأنا...»، واصلت مرتجلة: «أنا معالجة نفسية، وقد طلب مني العميد التحدث إلى مختلف أعضاء الكلية عن تأثير وفاة تارا عليهم. هل يمكننا أن ندردش قليلاً؟».

لم يبدُ ذلك مقنعاً، فلم يكن أملها كبيراً في أن تبتلع إلسي الطعم. وكانت محقةً.

زمّت إلسي شفتيها. «لستُ بحاجةٍ إلى معالجٍ نفسيٍّ، يا عزيزتي. عقلي على ما يرام، شكراً لك».

«أنا لم أقصد ذلك. . . إن الأمر لمصلحتي أنا، في الواقع. إنه. . . أنا أقوم ببحث».

«ليس لديّ وقت لأضيعه. . .».

«لن آخذ من وقتك الكثير. ربما أستطيع أن أدعوك إلى كوب شاي؟ وقطعة كعك؟».

عند الإشارة إلى الكعك، التمع وميضٌ في عينَي إلسي، ولانت حِدّتها. هزّت كتفيها وأخذت نَفَساً من سيجارتها.

«حسنٌ إذاً. لكن يجب أن يكون الأمر سريعاً. لديّ سلالم أخرى لأنظفها قبل الغداء».

سحقت إلسي عقب سيجارتها على الحصى، ونزعت مئزرها ورمته لإحدى زميلاتها التي أخذته دون أن تنبس بكلمة.

ثم خطت نحو ماريانا.

«اتبعيني، يا عزيزتي. أعرف أفضل مكانٍ لجلسة شايٍ».

انطلقت إلسي وتبعتها ماريانا، وفي اللحظة التي أدارت فيها ظهرها، سمعت وَشْوَشات محمومةً بين النسوة خلفها.

5

تبعت ماريانا إلسي على طول شارع كينغز باريد. مرّتا عبر ساحة ماركيت سكوير بسرادقاتها الخضراء والبيضاء والأكشاك التي تبيع الزهور، والكتب، والملابس، ومبنى سنت هاوس الأبيض الناصع خلف سياج أسود لمّاع، ثم مرّتا بجوار محل لبيع الحلوى ومن بابه المفتوح خرجت روائح حلوة للسكر وللحلوى الساخنة.

توقفت إلسي في الخارج عند خيمة بيضاء وحمراء تعلوها لافتة كتب عليها ذي كوبر كيتل.

«هذا محلّي المعتاد»، قالت إلسي.

أومأت ماريانا برأسها وهي تتذكر قاعة الشاي تلك من أيام دراستها الجامعية، ثم قالت: «تفضلي».

تبعت إلسي إلى الداخل. كان المكان ممتلئاً بمزيج من الطلبة والسيّاح، يتحدثون بلغاتٍ عديدةٍ.

توجهت إلسي رأساً إلى المنضدة الزجاجية التي تحوي الكعك، وراحت تتأمل البْراونيز، وكعك الشوكولاتة، وقطع حلوى جوز الهند، وفطائر التفاح، وحلوى الميرانغ بالليمون الحامض. تَمْتَمت إلسي في حيرةٍ: «لا يجب... حسنٌ... ربما واحدةٌ فقط».

التفتت نحو النادلة العجوز ذات الشعر الأشيب خلف المنضدة وقالت: «قطعةٌ من الكعك بالشوكولاتة. وإبريق شاي». ثم أشارت لماريانا برأسها وأضافت: «هي من سيدفع».

طلبت ماريانا شاياً، وجلستا إلى طاولةٍ قرب النافذة.

خيّم الصمت للحظة. ابتسمت ماريانا. «هل تعرفين ابنة أختي، زوي؟ كانت صديقة تارا».

تنحنحت إلسي. لم تبدُ معجبةً بزوي. «أوه، إنها ابنة أختك؟ نعم، أنا من يشرف على غرفتها. إنها تتعامل معي مثل سيّدة صغيرة».

«زوي؟! ماذا تقصدين؟».

«لقد عاملتني بفظاظة، في أكثر من مناسبة».

«أوه، أنا آسفة لسماع ذلك. هذا ليس من طبعها. سأتحدّث إليها في هذا الخصوص».

«شكراً، يا عزيزتي».

قاطعهما ظهورُ نادلة - شابة، جميلة، من أوروبا الشرقية - تحمل الشاي والكعك، فأشرق وجه إلسي وهي ترى الطبق يحط على الطاولة.

«بولينا. كيف حالك؟».

«أنا بخير، يا إلسي. ماذا عنك؟».

«أولم تسمعي عمّا حصل؟». اتسعت عيناها واختلجت صوتَها مشاعرٌ مفتعَلة. «إحدى بناتي تعرضت للقتل، لقد قُطّعت إرباً إرباً، بجوار النهر».

«أجل، أجل، لقد سمعت الخبر. أنا آسفة على ما حصل».

«يجب أن تنتبهي جيداً إلى أين تذهبين من الآن فصاعداً، فالمكان ليس آمناً. . . خاصة لفتاةٍ جميلة مثلك، وهي في الخارج ليلاً».

«سأتوخى الحذر».

«جيد». ابتسمت إلسي وراقبت النادلة وهي تمضي مبتعدةً، ثم وجّهت كلّ اهتمامها إلى الكعكة التي ما لبثت أن انقضّت عليها بتلذّذٍ. «ليست سيئةً»، قالت إلسي بين قضمتَين. كانت هناك مشحات من الشوكولاتة حول شفتيها. «أترغبين ببعض منها؟».

هزّت ماريانا رأسها. «لا، شكراً لكِ».

كان للكعكة وقع السحر، إذ تحسّن مزاج إلسي فوراً. راقبتها ماريانا بتمعّنٍ وهي تمضغ طعامها. «والآن، يا عزيزتي. آمل أنك لا تتوقعين منّي أن أصدّق أيّاً من ذلك الهراء حول العلاج النفسي. . . بحثٌ هو هذا بالفعل!».

«أنت حادّة الذهن، يا إلسي».

أصدرت إلسي ضحكةً خافتةً ثم رمت بقطعة سكر في كوبها. «إلسي لا يفوتها الكثير».

كانت لإلسي هذه العادة الشاذة بالإشارة إلى نفسها بصيغة الغائبة. وجّهت إلى ماريانا نظرة ثاقبة. «حسنٌ إذاً، أخبريني بماذا يتعلّق الأمر».

غيّرت ماريانا نبرتها ليطبعها شيء من السرّية وهي تسألها: «لقد كنتِ مقرّبة من تارا، أليس كذلك؟».

علت عَينَي إلسي نظرةٌ تشي بشيءٍ من التعب. «من أخبرك بذلك؟ زوي؟».

«لا. لقد افترضت أنك بصفتك عاملة تنظيف غرفتها، تسنّت

لك رؤيتها بانتظام، فقد كانت تجمعني علاقة طيبة مع عاملة تنظيف غرفتي خلال إقامتي هنا».

«أهذا صحيح، يا عزيزتي؟ يا له من أمر لطيف!».

«في الواقع، إن الخدمة التي تقدِّمنها بالغة الأهمّيّة... ولا أظن أنكنّ تحظين دوماً بالتقدير اللازم».

أومأت إلسي برأسها في حماس وردّت: «أنت محقةٌ بخصوص ذلك. إن الناس يظنون أن مهمة عاملة تنظيف الغُرف لا تنطوي سوى على مسح بضعة أسطُح وإفراغ سلال النفايات. لكن هؤلاء الصغار يكونون بعيدين عن المنزل لأول مرة في حياتهم - ولا يمكن أن يُتركوا لتدبّر أمورهم بأنفسهم - فيحتاجون إلى الرعاية». ابتسمت بحنوٍّ ثم تابعت: «إلسي هي من ترعاهم. إلسي هي من تتفقدهم كل يوم، إلسي هي من توقظهم كل صباح... أو تجدهم قد فارقوا الحياة، إذا كانوا قد شنقوا أنفسهم ليلاً».

ترددت ماريانا، مندهشة بهذا الكلام. «متى كانت آخر مرة رأيتِها فيها؟».

«في اليوم التي توفيت فيه، طبعاً... لن أنسى ذلك ما حَييت. لقد رأيتُ تلك المسكينة ذاهبة إلى حتفها».

«ماذا تقصدين؟».

«لقد كنت في الساحة أنتظر زميلاتي، فنحن دائماً ما نستقلّ الحافلة معاً. فرأيت تارا تغادر غرفتها. بدت منزعجةً جدّاً. لوحتُ لها بيدي وناديتها... لكنها لم تسمعني لسببٍ ما. ثم رأيتها تعبر الساحة... ولم تعُد أبداً...».

«كم كانت الساعة؟ هل تذكرين»؟.

«الثامنة إلّا ربعاً بالضبط. أذكر ذلك لأنني تفقّدت ساعتي لحظتها خوفاً من أن تفوتنا الحافلة». تأتأت إلسي، ثم أردفت في انزعاج: «هي لم تعد تأتي في الوقت أصلاً كما في السابق».

صبّت ماريانا لإلسي مزيداً من الشاي من الإبريق. «أتعلمين... كنت أتساءل بشأن صديقاتها. ما انطباعك عنهن؟».

رفعت إلسي حاجبيها. «أوه، أنت تقصدينَهنّ... **هُنَّ**، أليس كذلك؟».

«هُنَّ؟».

ابتسمت إلسي، لكنها لم تجب. ارتشفت فنجانها في صمت، فتابعت ماريانا بحذر.

«حين تحدثتُ إلى كونراد، دعاهنّ ''**الساحرات**''».

«أحقاً فعل؟». ضحكت إلسي. «بل ''**العاهرات**'' كلمةٌ أدق، يا عزيزتي».

«ألا يَرُقنَكِ؟».

هزت إلسي كتفيها. «لم يكنّ صديقاتها، لا، ليس فِعلاً. كانت تارا تكرههنّ. كانت ابنة أختك الوحيدة التي عاملتها بلطف».

«وماذا عن الأخريات؟».

«أوه، هنّ تنمّرن عليها، حبيبتي المسكينة! اعتادت البكاء على كتفي بشأن ذلك. أجل، كانت تفعل. ''أنت صديقتي الوحيدة، يا إلسي!''، كانت تقول. ''أنا أحبك، يا إلسي''».

مسحت إلسي دمعة خيالية من على خدّها. شعرت ماريانا بالغثيان: كان أداء إلسي مبالغاً فيه ومُشبَعاً بالتصنع بمقدار حلاوة تلك الكعكة المشبعة بالسكّر التي التهمتها لتوها، فلم تصدّق ماريانا أي شيء مما قالته. فإما أن إلسي كانت حالمةً أو أنها كانت كذّابة

على الطريقة البدائية. في كلتا الحالتين، شعرت ماريانا بعدم ارتياح متزايدٍ في صحبتها. لكنها ثابرت.

«لماذا كنّ يتنمّرن على تارا؟ أنا لا أفهم».

«لقد كنّ غيورات. لأنها كانت فائقة الجمال».

«فهمت... أتساءل عما إذا كان الأمر أبعد من ذلك...».

«حسناً، أظن أنه يجدر بك أن تسألي زوي عن ذلك، ألا تعتقدين؟».

«زوي؟»، تفاجأت ماريانا. «ما قصدك؟ ما دخل زوي بذلك؟».

ردت إلسي بابتسامة مشفّرة. «هذا سؤال وجيه، أليس كذلك، يا عزيزتي؟».

لم توضّح كلامها أكثر من ذلك، ما أزعج ماريانا. «وماذا عن البروفيسور فوشكا؟».

«ماذا عنه؟».

«قال كونراد إنه كان مفتوناً بتارا».

«حقاً؟». لم تبد متفاجئة. «إن البروفيسور رجلٌ، أليس كذلك؟ مثله مثل بقية الرجال».

«ما يعني؟!».

تنفّست إلسي عميقاً، لكنها لم تعلّق. شعرت ماريانا أن المحادثة أوشكت على نهايتها، ودفعُها أبعد من ذلك لن يُقابل إلا بالاستهجان. لذا، حاولت قدرَ استطاعتها أن تبدو تلقائية في عرض السبب الحقيقي الذي جاءت بإلسي من أجله إلى هنا ورشتْها بالإطراء والكعك.

«إلسي، أتظنين... أنه يمكنني رؤية غرفة تارا؟».

«غرفتها؟». بدت وكأنها سترفض، لكنها هزت كتفيها بعد ذلك. «أفترض أنه لا ضير في ذلك. لقد انتهت الشرطة من فحصها، وكنت سأنظّفها غداً. . . أتعلمين؟ دعيني أُنهي كوبي هذا ثم نذهب إلى هناك معاً».

ابتسمت ماريانا في سرور. «شكراً إلسي».

6

فتحت إلسي باب غرفة تارا. دخلت ثم أشعلت الضوء. تبعتها ماريانا.

كانت الغرفة مثل غرفة أية فتاةٍ مراهقةٍ أخرى، لكن أكثر فوضويةً من معظمها. كانت الشرطة قد فتشت حاجياتها لكن دون أن تترك لذلك أثراً، بحيث بدا كما لو أن تارا خرجت لتوها وقد تعود في أيّة لحظةٍ. كان هناك أثرٌ لعطرها في جو الغرفة ورائحة ماريجوانا طفيفة عالقة بالأثاث.

لم تكن ماريانا تعلم ما كانت تبحث عنه بالضبط. كانت تبحث عن **شيءٍ ما** - شيء لم تنتبه إليه الشرطة - لكن ما هو هذا الشيء؟ لقد أخذوا كل الأجهزة التي علّقت عليها زوي آمالها في إيجاد أدلة: حاسوب تارا، وهاتفها، وجهاز الآيباد. ظلت ملابسها في المكان، في الدولاب وملقاةً على الأريكة وفي أكوامٍ على الأرض؛ ثيابٌ باهظة الثمن ملقاةٌ كما لو كانت أسمالاً باليةً. ولم تسلم الكتب أيضاً من هذه المعاملة الخالية من الاحترام، إذ أُلقيت مفتوحةً على الأرض ومهملة.

«هل كانت دوماً فوضويّةً إلى هذا الحد؟»، سألت ماريانا.

«أوه، أجل، يا عزيزتي». امتعضت إلسي ثم أطلقت ضِحكةً صَفوحةً. «كان حالها ميؤوساً منه! لا أعلم ماذا كانت ستفعل من دون رعايتي لها».

جلست إلسي على السرير وبدا أنها انفتحت على ماريانا، فلم تعد محادثتها متحفّظة كما كانت، بل عكس ذلك تماماً.

«سيأتي والداها ليجمعا حاجياتها اليوم»، قالت. «لقد عرضتُ عليهما القيام بذلك لأوفر عليهما العناء، لكنّهما لم يرغبا في ذلك، لسببٍ ما. إنهما صَعْبا المراس، وهذا لم يفاجئني، فأنا أعلم رأي تارا فيهما. لقد أخبرتني. الليدي هامبتون تلك غانيةٌ فخورةٌ متعاليةٌ، وهي ليست بالليدي البتّةَ، خذيها مني. أما عن زوجها...».

كانت ماريانا تستمع إليها نصف شاردةٍ، تتمنّى لو أنها تذهب بعيداً حتى يتسنّى لها التركيز. توجهت نحو منضدة تزيين صغيرة، وتمعنت فيها. كانت عليها مرآة مع بضع صور محشورة في جانب الإطار. كانت إحدى الصور لتارا ووالديها، وكانت تارا فائقة الجمال فعلاً: بهيّة الطلّة، مشرِقة. كان شعرها الأصهب طويلاً وملامحها جذابةً، أشبه بإلهة إغريقية.

نظرت ماريانا إلى باقي الأغراض على المنضدة. قنّينتا عطر، بعض مواد التجميل، وفرشاة شعر. نظرت إلى الفرشاة حيث كانت هناك خصلات شعر أصهب لا تزال عالقة بها.

«كان شعرها جميلاً»، قالت إلسي وهي تراقبها. «كنت أمشّطه لها، وكانت تحبّ ذلك».

ابتسمت لها ماريانا بأدبٍ، ثم حملت دمية صغيرة - أرنباً محشواً كان بجانب المرآة. وبخلاف زيبرا، دمية زوي المهترئة

والممزقة جرّاء سنين من المعاملة السيئة، بدا ذلك الأرنب جديداً، كما لو أن أحداً لم يلمسه.

بادرت إلسي بفك اللغز.

«لقد اشتريتُ لها هذه الدمية. لقد شعرت بالوحدة أول ما جاءت إلى هنا وكانت بحاجة إلى شيء لطيف لتعانقه، فأهديتها هذا الأرنب».

«هذا لطف منك».

«إن إلسي عبارة عن قلبٍ كبير. لقد أهديتها كيس التدفئة ذاك أيضاً، إذ يكون البرد قارساً هنا ليلاً وتلك البطانية التي يعطونهم إياها لا تَقيهم البرد، فهي رقيقة مثل الكرتون». تثاءبت وبدت عليها علاماتُ الملل. «هل ستطيلين البقاء هنا، يا عزيزتي؟ أنا مضطرة إلى المغادرة فعلاً. لديّ سلالمُ أخرى لأنظفها».

«لا أريد أن أؤخِّرك أكثر من ذلك. ربما... ربما أستطيع أن أغادر بنفسي بعد بضع دقائق؟».

ترددت إلسي. قلّبت الأمر في عقلها، ثم هزّت كتفيها قائلة: «حسناً، سأخرج لتدخين سيجارة. أغلقي الباب جيداً حين تخرجين».

«شكراً لك».

غادرت إلسي الغرفة وأغلقت الباب خلفها. أطلقت ماريانا تنهيدة. حمداً لله على ذلك! نظرت من حولها. لم تجده بعد، أيّاً كان ما تبحث عنه. أمِلت أن تتعرف إليه حين تراه؛ دليلٌ ما، إدراك لحالة تارا الذهنية. شيءٌ سيساعد ماريانا على الفهم؛ لكن ما هو هذا الشيء؟

مضت تفتّش الدواليب. فتحت كل درج وفحصت محتواه.

كانت مهمةً مثيرةً للحزن والكآبة. شعرت كما لو أنها تُجري عمليّةً جراحيةً، كما لو أنها تفتح جسد تارا وتدقّق النظر في أعضائها الحيوية. تفحّصت ماريانا كلَّ حاجياتها الخاصة: ملابسها الداخلية، مستحضرات التجميل والعناية بالشعر، جواز سفرها، رخصة سياقتها، بطاقاتها الائتمانية، صور طفولتها، صور لها حين كانت لا تزال رضيعةً، بعض التنبيهات والملاحظات التي كتبتها لنفسها، فواتير تسوق قديمة، سدّادات قطنية، قوارير كوكايين صغيرة، تبغ للف السجائر، وبقايا ماريجوانا.

يا له من أمر غريب؛ كانت تارا قد اختفت، تماماً مثل سيباستيان، تاركةً وراءها كل أغراضها. **بعد أن نموت**، فكرت ماريانا، **كل ما يبقى منّا هو الغموض، وممتلكاتنا ليأخذها غرباءُ.**

قررت الانسحاب. أيّاً كان ما تبحث عنه، فهو لم يكن هناك. ربما لم يكن هناك شيء من الأساس. أغلقت آخر درجٍ، ومضت في طريقها لمغادرة الغرفة.

لكن حين بلغت الباب، جعلها شيء ما تتوقف... وتلتفت. نظرت في الأرجاء مجدداً.

وقع نظرُها على لوحة فلّين معلّقة على الحائط فوق المكتب، تحمل ملاحظات، ومنشورات، وبطاقات بريديّة، وبضع صور.

كانت إحدى البطاقات البريدية صورةً تعرفها ماريانا: **تارْكْوينْ ولُوكْريشا**(1)، وهي لوحة زيتية لتيتيان.

اقتربت ماريانا لإلقاء نظرةٍ عن كثبٍ.

---

(1) Tarquin and Lucretia: لوحة زيتية رسمها تيتيان وأكملها عام 1571، وهي حالياً ضمن مجموعة متحف فيتزويليام في كامبريدج - المترجم.

كانت لوكريشا في غرفة نومها، على السرير، عاريةً وعزلاء، فيما وقف تاركين فوقها، يرفع خنجراً يلمع سنا الضوء عليه، مستعدٌّ للانقضاض عليها. كانت لوحةً جميلةً، لكنها مثيرةٌ للقلق ومزعجة نوعاً ما.

سحبت ماريانا البطاقة البريدية من لوحة الفلّين وقلبتها.

على ظهرها، كانت هناك جملٌ مكتوبةٌ بخط اليد، بالحبر الأسود.

أربعة أسطر باليونانية القديمة:

ἓν δὲ πᾶσι γνῶμα ταὐτὸν ἐμπρέπει:
σφάξαι κελεύουσίν με παρθένον κόρῃ
Δήμητρος, ἥτις ἐστὶ πατρὸς εὐγενοῦς,
τροπαῖά τ᾽ ἐχθρῶν καὶ πόλει σωτήριαν.

حدّقت فيها ماريانا مذهولة.

7

وجدت ماريانا كلاريسا جالسةً على أريكتها عند النافذة والغليون بيدها، تحيط بها سحبٌ من الدّخان. كانت تصحح كومة أوراقٍ متراكمة فوق حِجرها.

«هل لي بكلمةٍ سريعةٍ؟»، قالت ماريانا وهي واقفة عند الباب.

«أوه، ماريانا؟ أما زلتِ هنا؟ تفضلي بالدخول». لوحت لها كلاريسا بيدها. «اجلسي».

«ألا أقاطعكِ عن عملك؟».

«إن أي شيء يُبعدني عن تصحيح مقالات طلبة السنوات الأولى هو إرجاء مُرحّبٌ به». ابتسمت كلاريسا ووضعت الأوراق جانباً. وجهت إلى ماريانا نظرةً فضوليةً وهي تجلس على الكنبة. «لقد قررتِ البقاء إذاً؟».

«لبضعة أيام فقط. زوي بحاجة إليّ».

«هذا جيد، جيد جداً! يسرّني ذلك كثيراً». أشعلت كلاريسا غليونها مجدداً وأخذت نفساً، ثم نفثت الدخان عالياً. «والآن أخبريني، كيف أستطيع مساعدتك؟».

أدخلت ماريانا يدها في جيبها وأخرجت البطاقة البريدية، ثم

مدّتها لكلاريسا. «وجدت هذه في غرفة تارا. أود أن أعرف رأيك فيها».

تأملت كلاريسا الصورة لوهلة، ثم قلبتها. رفعت حاجبيها وقرأت ما كُتب على ظهر البطاقة.

“ἓν δὲ πᾶσι γνῶμα ταὐτὸν ἐμπρέπει: / σφάξαι κελεύουσίν με παρθένον κόρῃ / Δήμητρος, ἥτις ἐστὶ πατρὸς εὐγενοῦς, / τροπαῖά τ’ ἐχθρῶν καὶ πόλει σωτήριαν.”

«ما هذا؟»، سألت ماريانا. «أتعرفين هذه الأبيات؟».

«أظن... أنه يوربيديس[1]. مسرحية **هرقل**[2]، إن لم أكن مخطئة. أتعرفينها؟».

شعرت ماريانا بشيء من الخجل لعدم سماعها بتلك المسرحية، ناهيك عن قراءتها. «هلّا ذكّرتني بها؟».

«تجري أحداثها في أثينا»، قالت كلاريسا وهي تلتقط غليونها. «يستعد الملك ديموفون للحرب، لحماية المدينة من الموكيانيّين». وضعت الغليون عند حافة فمها، شحذت عود ثقابٍ، وأشعلته. واصلت حديثها وهي تنفث الدخان: «ذهب ديموفون إلى العرّاف... ليستفسر عن حظوظه في الانتصار... الاقتباس هو من ذلك الجزء من المسرحية».

«فهمت».

«هل يساعدكِ هذا بشيء؟».

---

(1) Euripides: روائي مسرحي يوناني من أثينا الكلاسيكية، ولد في سالاميس سنة 480 قبل الميلاد - المترجم.

(2) Ἡρακλεῖδαι, Hērakleidai: ترجمت إلى الإنجليزية بعنوان *The Children of Heracles* (أي: أبناء هرقل) أو *Heracleidae* (الهيرقليون) - المترجم.

«ليس فعلاً».

«لا؟». بدّدت كلاريسا سحابة دخان بيدها. «أين مَكمنُ الصعوبة؟».

ابتسمت ماريانا للسؤال. كانت ألمعيّةُ كلاريسا تُربكها أحياناً وتجعلها بطيئةَ الفهم. «أخشى أن تكون لغتي اليونانية القديمة صدئة من قلة الاستعمال».

«آه... أجل. بالطبع. اعذريني...». نظرت كلاريسا إلى البطاقة البريدية وترجمتها. «بمعنى تقريبي، تقول هذه الكلمات... "**اتفق العرّافون: من أجل قهر العدو وإنقاذ المدينة... يجب أن يُضحَّى بفتاة بتولٍ - فتاة بتولٍ من أصولٍ نبيلةٍ...**"».

طرفت ماريانا بعينيها. «من أصول نبيلة؟ أهذا ما تقوله الكلمات؟».

أومأت كلاريسا برأسها مؤكدة. «ابنة πατρὸς εὐγενοῦς، أي ابنة رجلٍ نبيلٍ... يجب أن يُضحَّى بها لـ κόρῃ Δήμητρος...».

'Δήμητρος'?

«إنها الإلهة ديميتر. و'κόρῃ'، تعني...».

«ابنة».

«هذا صحيح». أومأت كلاريسا برأسها. «يجب أن يُضحَّى بفتاةٍ بتولٍ من أصولٍ نبيلةٍ لابنة ديميتر، أي بيرسيفون».

شعرت ماريانا بدقات قلبها تتسارع. **إنها مصادفة فحسب**، فكرت. **هذا لا يعني شيئاً**.

مدّت لها كلاريسا البطاقة البريدية بابتسامة على شفتيها. «كانت بيرسيفون إلهةً توّاقة للانتقام، كما تعلمين بكل تأكيد».

لم تعلم ماريانا ما إذا كانت قادرة على الكلام، فأومأت برأسها فحسب.

حدّقت فيها كلاريسا. «هل أنت بخير، يا عزيزتي؟ تبدين كما لو أنكِ...».

«أنا بخير... كل ما في الأمر...».

فكرت للحظة في أن تشرح مشاعرها لكلاريسا، لكن ماذا عساها أن تقول؟ إنه تهيّأ لها ذات مرة أن لهذه الإلهة الانتقامية يداً في موت زوجها؟ كيف يمكنها أن تقول شيئا كهذا بصوتٍ عالٍ، دون أن تبدو مجنونةً تماماً؟ عوض ذلك، هزت كتفيها وقالت:

«يا لها من سخرية قدر! هذا كل شيء».

«ماذا؟ أوه، أتقصدين كون تارا من أصول نبيلة... وأنه تمّت التضحية بها، إذا جاز القول؟ فعلاً، إنها سخرية قدر شنيعةٌ».

«أوَلا تظنين أنه يمكن أن يكون الأمر أكبر من ذلك؟».

«ماذا تقصدين؟».

«لا أعلم... ما سبب وجودها هناك؟ في غرفتها؟ من أين أتت هذه البطاقة البريدية؟».

لوحت كلاريسا بغليونها. «أوه، هذا سهل... كانت تارا تعمل على ورقةٍ بحثيّةٍ موضوعها التراجيديا الإغريقية خلال هذه الدورة الدراسية، فمن الممكن تماماً أن تكون قد نقلت هذه الأبيات عن إحدى المسرحيات، ألا تعتقدين؟».

«لا... لا أعتقد ذلك».

«إنه لأمر غريب، أقرّ لك بذلك... كما قد يشهد على ذلك البروفيسور فوشكا».

طرفت ماريانا بعينيها. «البروفيسور فوشكا؟».

«هو من درّسها التراجيديا الإغريقية».

«امـمـم. . . هـكـذا إذاً». حـاولـت مـاريـانـا أن تـبـدو عـفـويـة قـدر الإمكان. «حقاً؟».

«أوه، أجل. هو الخبير في الموضوع في الحقيقة. إنه بارعٌ. يجب أن تحضري له محاضرة أثناء تواجدك هنا. إنه مثيرٌ للإعجاب حقّاً. أتعلمين أن محاضراته هي الأكثر حضوراً في الكلية وبفارقٍ شاسعٍ؟ يمتد طابور الطلبة إلى الأسفل ويجلسون على الأرض حين لا تبقى مقاعد شاغرة. هل سبق لك أن سمعت بشيءٍ كهذا؟». ضحكت كلاريسا، ثم أضافت بسرعة: «بالطبع، إن محاضراتي تعرف إقبالاً جيّداً جداً، وقد كنتُ محظوظةً في هذا الصّدد. لكن ليس إلى تلك الدرجة بصراحة. . . أتعلمين، إذا كنت تشعرين بالفضول بشأن فوشكا، يجب عليك أن تسألي زوي. إنها أفضل من يعرفه».

«زوي؟». أخذتها هذه المعلومة على حين غرة. «حقاً؟ لماذا؟».

« إنه المشرف على أبحاثها».

«أوه، فهمت». أومأت ماريانا برأسها وهي غارقة في أفكارها. «أجل، بالطبع».

8

اصطحبت ماريانا زوي للغداء في أحد المطاعم الفرنسية الذي كان قد فتح أبوابه مؤخراً. كان المكان يضجّ بالطلبة الجائعين ممن زارهم أقرباؤهم.

كان أكثر رقياً من المطاعم التي تذكرها ماريانا من أيام دراستها. كان مكتظاً، واختلطت فيه أصوات الأحاديث والضحك ونقر السكاكين والشوك على الصحون. كانت تفوح في المكان رائحة الثوم والنبيذ واللحم. وجّههما نادل أنيق - يرتدي بذلة وربطة عنق - إلى طاولة في الركن مغطاة بثوب أبيض وتحيط بها مقاعد من الجلد الأسود.

بشيء من البذخ، بدأت ماريانا بطلب نصف قنينةِ شمبانيا رُوزيه. لم يكن ذلك من عاداتها، فرفعت زوي حاجبيها مستغربة.

«لِمَ لا؟»، قالت ماريانا وهي تهزّ كتفيها. «بعض البهجة لا يَضير!».

«أنا لا أحتجّ!»، ردت زوي.

حين وصلت قنينة الشمبانيا، حَسّنتِ الفقاقيع الوردية الفوّارة - المقدَّمة في أكواب من الكريستال السميك - مزاجَيهما بشكل

ملحوظ. لم تتحدثا عن تارا أو جريمة القتل في البداية، بل عما فاتهما من أخبار منذ آخر لقاءٍ جمعهما. تكلمتا عن دراسة زوي في سانت كريستوفر، وعن شعورها وهي مقبلة على السنة الثالثة، وعن عدم تكوينها رؤية واضحة لحياتها ومستقبلها.

ثم تحدثتا عن الحب، فسألت ماريانا زوي عما إذا كانت تواعد أحداً.

«بالطبع لا. هؤلاء هنا مجرد **أولاد**». هزّت رأسها في ضجرٍ، ثم أردفت: «أنا سعيدة تماماً بكوني رفيقة نفسي. لن أُغرم بأحدٍ أبداً».

ابتسمت ماريانا. بدت زوي مثل طفلة صغيرة حين تكلمت بتلك الطريقة. **الهدوء الذي يسبق العاصفة!** علّقت ماريانا في سرها، إذ توقعت أنه رغم احتجاجات زوي، حين ستحب أحدهم، ستحبّه بقوةٍ وشغفٍ.

«يوماً ما»، قالت ماريانا، «سترين. سيحدث ذلك».

«لا». هزّت زوي رأسها نافية. «لا، شكراً. فبحسب ما أرى، فإن الحب لا يجلب إلا الأسى».

ضحكت ماريانا على مضض. «لمَ كل هذا التشاؤم؟».

«لعلّك تقصدين **الواقعية**؟».

«بالكاد تكون كذلك».

«ماذا عنك وعن سيباستيان؟».

لم تكن ماريانا مستعدة لتلقي هذه الضربة الموجعة، تحت الحزام، والمسدّدة بهذه التلقائية. تطلّب منها الأمر وهلةً لتستعيد صوتها.

«لقد جلب لي سيباستيان أكثر من الأسى بكثير».

بادرت زوي بالاعتذار على الفور. «آسفة، لم أقصد إزعاجك... أنا...».

«أنا لست منزعجةً. أنا بخير».

لكنها لم تكن بخير. فوجودهما هنا، في هذا المطعم الجميل، تحتسيان الشمبانيا، مكّنهما من التظاهر ولو لوهلة بالابتعاد عن شبح جريمة القتل وكل ما يحيط بها من مشاعر سوداوية، والتواجد بسرورٍ في فقاعة اللحظة الراهنة الصغيرة. لكن زوي فقأت الآن تلك الفقاعة، فشعرت ماريانا بمشاعر الحزن، والقلق، والخوف تغمرها من جديد.

واصلتا تناول الطعام في صمت لبعض الوقت، إلى أن قالت ماريانا بصوت خفيض:

«زوي. كيف حالك...؟ أقصد، بعد ما حصل لتارا؟».

ظلت زوي صامتة لوهلة، ثم هزت كتفيها. لم ترفع رأسها.

«في الواقع، لستُ على ما يرام، فما زالت الكوابيس تقضّ مضجعي... ولا أستطيع الإحجام عن التفكير في الأمر، عن الطريقة التي ماتت بها. لا أستطيع... طرد الموضوع من ذهني».

نظرت زوي إلى ماريانا، فشعرت الأخيرة بتعاطفٍ محبِطٍ - يكاد يكون مؤلماً - تجاهها. كانت ترغب في جعل كل شيء على ما يرام، في إبراء ألم زوي، كما كانت تفعل وهي طفلة: تضع ضمادة على الجرح وتقبّله كي يطيب، لكنها كانت تعلم أنه لم يكن باستطاعتها فعل ذلك. مدّت يدها واعتصرت يد زوي.

«أعلم أنه يصعب تصديق ذلك الآن... لكن سيغدو الأمر أسهل».

«حقّاً؟». هزت زوي كتفيها. «لقد مضت سنةٌ على وفاة سيباستيان، ولم يغدُ الأمر أسهل. الألم لا يزال حاداً».

«أعلم ذلك». أومأت ماريانا برأسها، عاجزةً على حمل نفسها على معارضتها. كانت زوي محقة، فلا فائدة ترجى من المحاولة. «كل ما بوسعنا القيام به... هو محاولة تكريم ذكراهما، بأفضل طريقة ممكنة».

حدّقت زوي في عينيها، ثم أومأت برأسها. «حسناً».

«وأفضل طريقة لتكريم ذكرى تارا...»، واصلت ماريانا...

«هي إلقاء القبض عليه؟».

«أجل. وسنفعل».

بدا أن الفكرة أراحت زوي. أومأت برأسها. «إذاً، هل أحرزتِ أيّ تقدّمٍ؟».

«لقد فعلتُ، في حقيقة الأمر». ابتسمت ماريانا. «لقد تحدثتُ إلى إلسي، عاملة تنظيف غرفة تارا...».

«يا إلهي!». قلبت زوي عينيها. «لمعلوماتك، إلسي كذّابة ومريضة نفسية. وكانت تارا **تكرهها**».

«أوه، حقاً؟ ليس هذا ما قالته لي. قالت إنهما كانتا مقرّبتين... وقالت أيضاً إنك تعاملينها بفظاظة».

«لأنها مريضة نفسية. إنني أشمئز منها».

ما كانت ماريانا لتستعمل مصطلح «مريضة نفسية»، إلا أنها لم تختلف تماماً في الراي مع زوي. «على أية حال، ليست الفظاظة من سماتك». ترددت، ثم واصل: «لقد لمّحتْ أيضاً إلى أنك على علم ببعض الأمور، وأنك تُخفين عني أكثر مما تخبرينني به».

نظرت إلى زوي مليّاً وهي تقول ذلك، إلا أن زوي هزّت كتفيها فحسب.

«كلام فارغ. هل أخبرَتكِ كيف أن تارا منعتها من دخول غرفتها؟ لأنها كانت تدخل دون استئذانٍ، وتحاول رؤيتها وهي خارجة من الحمام. لقد كانت تتعقّبها تقريباً».

«وماذا عن هذه؟».

أدخلت ماريانا يدها في جيبها وأخرجت البطاقة البريدية التي وجدتها في غرفة تارا. ترجمت المقولة وسألت زوي عن رأيها. «هل تعتقدين أنه من الممكن أن تكون تارا من كتبتها؟».

هزّت رأسها. «أشك في ذلك».

«ما الذي يدعوكِ لقول ذلك؟».

« لم تكن تارا تهتم البتّةَ بالتراجيديا الإغريقية، بصراحة».

لم يسع ماريانا إلا أن تبتسم. «هل لديك فكرة عمّن يكون قد أرسلها إليها؟».

«ليس فعلاً. إنه لأمر غريبٌ. ويا لها من مقولة مُريبة!».

«ماذا عن البروفيسور فوشكا؟».

«ماذا عنه؟».

«أتظنين أنه يمكن أن يكون هو مُرسِلها؟».

هزت زوي كتفيها. لم تَبدُ مقتنعةً. «ممكن. . . لكن لمَ قد يرسل رسالةً باليونانية القديمة؟ ولمَ تلك الرسالة؟».

«لماذا بالفعل؟». أومأت ماريانا لنفسها. حدّقت في زوي للحظة ثم قالت: «أخبريني عنه. عن البروفيسور».

«عمّ أخبرك؟».

«كيف يبدو؟».

هزت زوي كتفيها، وقد ارتسم على جبهتها عبوسٌ خفيفٌ.

«أتعلمين يا ماريانا؟ لقد أخبرتك عنه حين شرع في تدريسي. أخبرتك عنه أنت وسيباستيان».

«حقاً؟! أوه...». أومأت ماريانا برأسها وقد تذكرت ذلك.

«أجل، بالطبع. المعلّم الأمريكي... أذكر الآن».

«أحقاً تذكرين؟».

«نعم، أذكر أنك أخبرتني عن معلّمك الجديد. لقد ظلّ ذلك عالقاً في ذهني لسببٍ ما. وأذكر أن سيباستيان سألكِ ما إذا كنت مغرومة به».

علا وجه زوي تكشيرة. «حسنٌ، لقد كان مخطئاً، فأنا لم أكن كذلك».

قالت زوي ذلك بطريقة دفاعية غريبة، وبحدة فجائية، ما دفع ماريانا إلى التساؤل عما إذا كانت زوي مغرومة به **فعلاً**. وماذا لو كانت كذلك؟ فأن يُغرَم الطلبة بمدرّسيهم كان أمراً اعتيادياً، خصوصاً إذا كان شخصاً بمثل كاريزما ووسامة إدوارد فوشكا.

لكنها قد تكون تقرأ زوي بشكل خاطئ... قد تكون تلك العلامات مؤشراً على شيءٍ مختلفٍ تماماً.

قررت ماريانا التغاضي عن الأمر، مؤقتاً على الأقل.

9

بعد الغداء، عادتا أدراجهما إلى الكلية مشياً بمحاذاة النهر.

اشترت زوي مثلجات بالشوكولاتة وانهمكت في تناولها، فواصلتا طريقهما في صمتٍ لبعض الوقت.

وطوال الوقت، كان ذهن ماريانا مشغولاً ومنشطِراً: كانت ترى صورة مزدوجة؛ صورة أخرى باهتة تُعرض فوق الصورة الحالية: ذكرى لزوي وهي طفلة صغيرة، تمشي على الطريقِ نفسها ذاتِ الحجارة المتشققة، تتناول مثلجات أخرى. وحصل خلال تلك الزيارة، وماريانا لا تزال طالبةً هنا، أن التقت الطفلة زوي بسيباستيان لأول مرة. تذكّرت خجلَ زوي، وكيف أن سيباستيان تغلّب عليه بخدعةٍ سحريّةٍ بسيطةٍ، إذ أخرج قطعةً نقديةً من خلف أذن زوي، وهي خدعة ظلّت تثير بهجتها لسنوات طويلة.

وكان سيباستيان أيضاً يمشي معهما الآن، وهي بالطبع صورة شبحيّة أخرى ظهرت لها وعُرضت فوق اللحظة الراهنة.

يا لغرابة الأمور التي نتذكّرها، قالت ماريانا في سرّها. ألقت نظرة على مقعد خشبي بالٍ وهما تمرّان بمحاذاته. لقد جلسا عليه - هي وسيباستيان - بعد أن اجتازت ماريانا آخر امتحاناتها، في جوٍّ

من البهجة والاحتفال، يشربان نبيذ بروسيكو الإيطالي ممزوجاً مع كريمة التوت البري ويدخّنان سجائر غولواز زرقاء كان سيباستيان قد سرقها من إحدى الحفلات الليلةَ السابقة. تذكّرت أنها قبّلته، وكم كان طعم قبلاته حلواً، مع أثر الخمرة والتبغ على شفتيه.

نظرت إليها زوي. «لقد التزمتِ الصمت طوال الطريق. هل أنت بخير؟».

أومأت ماريانا برأسها وقالت: «هلّا جلسنا لبرهة؟»، ثم أضافت بعدها سريعاً: «لا، ليس على هذا المقعد»، وأشارت إلى مقعد آخر أبعد بقليل. «هناك، ذاك المقعد».

بلغتا المقعد وجلستا.

كان مكاناً هادئاً، تحت الظل الأرقط لشجرة صفصاف، عند الضفة بالضبط. تمايلت أغصان الشجرة مع النسيم، وتعقبتها أطرافها بكسلٍ في الماء. راقبت ماريانا قارباً يمر من تحت الجسر.

ثم مرّت بَجَعَةٌ، فتابعتها ماريانا بعينيها.

كان منقار البجعة برتقاليَّ اللون، ولها هالات سوداء حول عينيها. بدا حالها رثّاً، إذ غدا ريشها الذي كان لمّاعاً في السابق متسخاً وباهتاً حول العنق، مع بقع خضراء اللون من أثر مياه النهر، إلا أنها كانت كائناً مثيراً للإعجاب رغم ذلك: شعثاء ولكن هادئة، وذات جلال مهيب. أدار الطائر عنقه، ونظر باتجاه ماريانا.

أكان هذا خيالها فحسب؟ أم أن الطائر كان ينظر إليها مباشرة؟

للحظة، ظل نظر البجعة مثبّتاً على ماريانا، وبدا كما لو أن عينيها السوداوين تُقيّمانها، بذكاء بارد.

ثم انتهى التقييم، وأشاحت البجعة بنظرها بعيداً. خرجت

ماريانا من دائرة اهتمامها، منسيّة. راقبتها ماريانا وهي تمضي مبتعدة أسفل الجسر.

«أخبريني...»، قالت وهي تلقي نظرة إلى زوي. «أنتِ لا تستلطفينه، أليس كذلك؟».

«البروفيسور فوشكا؟ لم أقل ذلك أبداً».

«إنه مجرد انطباعٍ. هل هو مبرَّر؟».

هزّت زوي كتفيها. «لا أعلم. إن البروفيسور... اممم... يُبهرني، على ما أعتقد».

تفاجأت ماريانا بسماع ذلك، ولم تكن متأكدة من قصد زوي. «ولا يروقك أن تُبهَري؟».

«بالطبع لا». هزّت زوي رأسها. «أحب أن أرى إلى أين أنا ماضية. وهناك شيء بخصوصه... لا أعرف كيف أصف ذلك... الأمر كما لو أنه يمثّل... كما لو أنه ليس الشخصَ الذي يتظاهر بأنه هو. لكن قد أكون مخطئة... فالجميع يظنون أنه رائع».

«أجل، قالت كلاريسا إنه يحظى بشعبية واسعة».

«تماماً، فالأمر أشبه بالطائفة. ولدى الفتيات على وجه الخصوص!».

تذكرت ماريانا فجأة الفتيات في فساتينهن البيضاء، المتحلّقات حول فوشكا خلال حفل تأبين تارا. «أتقصدين صديقات تارا؟ تلك المجموعة من الفتيات؟ ألسن صديقاتك أنت أيضاً؟».

هزّت زوي رأسها بحدةٍ. «كلّا، إطلاقاً. أنا أتفاداهنّ كما يتفادى المرءُ الطاعون».

«حسنٌ، لا يبدو أن لهنّ شعبيةً بين الطلبة».

حدّجتها زوي بنظرة حادة. «هذا يعتمد على من تسألينه عنهنّ».

«ما قصدك؟».

«إنهن... طالبات البروفيسور فوشكا المفضّلات... إنهن يشكّلن نادي معجباته».

«ماذا تقصدين بنادي معجباته؟».

هزّت زوي كتفيها. «إنهن ينتمين إلى مجموعة دراسة خاصة. مجتمع سريٌّ من نوعٍ ما».

«لمَ هو سريّ؟».

«إنه يخصّهن وحدهنّ؛ طالباته "المميّزات".» قلبت زوي عينيها. «إنه يدعوهنّ البُتُل. أليس هذا أغبى شيءٍ سمعتِه في حياتك؟».

«البُتُل؟». قطّبت ماريانا حاجبيها. «هل جميعهن فتيات؟».

«آه، نعم».

«فهمت».

وبدأت ماريانا تفهم فعلاً - أو بدأت على الأقل تستجمع ما قد يعني كل هذا، وسبب تكتّم زوي عنه.

«وهل كانت تارا إحدى هذه البُتُل؟».

«أجل». أومأت زوي. «كانت كذلك».

«حسن، وماذا عن الأخريات؟ هل أستطيع لقاءهن؟».

عبست زوي. «أترغبين في ذلك حقاً؟ إنهن لسنَ لطيفاتٍ البتّةَ».

«أين هنّ الآن؟».

«الآن؟». نظرت زوي إلى ساعتها. «اممم، سيلقي البروفيسور فوشكا محاضرةً بعد نصف ساعة. سيكون الجميع هناك».

أومأت ماريانا برأسها. «وسنكون نحن كذلك».

10

وصلت ماريانا وزوي إلى كلية الأدب الإنجليزي قبل بداية المحاضرة بدقائق.

تفقّدتا لوحة الإعلانات الإدارية خارج مبنى المحاضرات بحثاً عن جدول محاضرات ذلك اليوم: كانت محاضرة البروفيسور فوشكا ستُلقى في القاعة الكبيرة بالطابق العلوي. توجهتا صعوداً.

كانت قاعة المحاضرات شاسعةً ومضاءةً بشكل جيد، ومجهّزة بصفوف من المكاتب الخشبية غامقة اللّون، من الأعلى نزولاً إلى الخشبة حيث كانت منصّةٌ وميكروفون.

كانت كلاريسا محقة بخصوص الشعبية الواسعة لمحاضرات فوشكا، إذ كان المكان مكتظّاً، وبالكاد وجدتا مقعدين شاغرين بعيداً في الأعلى. سرى إحساسٌ ملموسٌ بالترّقب بين الحاضرين، كما لو أنهم ينتظرون انطلاق حفلٍ موسيقيّ أو أداءٍ مسرحيٍّ، وليس محاضرةً عن التراجيديا الإغريقية.

دخل البروفيسور فوشكا.

كان يرتدي بذلة سوداء أنيقة، وشعره مربوط خلف رأسه بإحكام. تقدّم نحو المنصة عبر الخشبة، حاملاً ملفّ ملاحظات.

تفقّد الميكروفون وعدّله، جال ببصره على الغرفة لوهلة، ثم انحنى وطأطأ رأسه تحيّةً للحضور.

سرَت بين الحاضرين موجةٌ من الحماس. تلاشت الوشوشة وخيّم الصمت على المكان. شعرت ماريانا بالارتياب بشأن كل ذلك، إذ عرفت من خبرتها في العلاج النفسي الجماعي أن عليها، كقاعدةٍ عامّةٍ، أن تحذر المجموعات المغرَمة بأستاذها، فنادراً ما كانت هذه الحالات تنتهي على خير. وفي نظر ماريانا، بدا فوشكا أقرب إلى نجم موسيقى البوب منه إلى مُحاضرٍ جامعيٍّ، وتوقّعت منه أن يشرع في الغناء في أي لحظة، إلا أنه نظر عالياً ولم يُغنِّ، وفاجأها أن عينيه كانتا مغرورقتَين بالدموع.

«اليوم»، قال فوشكا، «أود أن أتحدث عن تارا».

تناهى إلى سمع ماريانا الهمسات ورأت رؤوساً تلتفت ونظراتٍ يتم تبادلها؛ هذا ما كان الطلبة يأملونه. ولاحظت حتى أن بعض الطلبة شرعوا في البكاء.

جادت عينا فوشكا بالدمع وسال على خدّيه جدولان رقيقان، دون أن يكلّف نفسه عناء مسحهما. ظلّ صوته هادئاً وثابتاً، بحيث فكّرت ماريانا أنه ليس بحاجةٍ حتى إلى الميكروفون.

ماذا قالت زوي؟ إنه كان يمثل طوال الوقت؟ إذا كان الأمر كذلك فعلاً، فكان أداؤه جيداً لدرجة أن ماريانا - كباقي الحضور - تأثّرت به حقاً.

«كما يعلم الكثير منكم»، قال فوشكا، «لقد كانت تارا واحدةً من طلّابي. وأنا أقف هنا الآن في حالة من... القلب المفطور، وكدت أقول ''اليأس''. كنت أرغب في إلغاء محاضرة اليوم، لكن أكثر ما أحببت في تارا هو قوّتها وجسارتها؛ فما كانت لترغب أن

نستسلم لليأس، وأن يهزمنا الكره. يجب أن نمضي قدماً. هذا هو دفاعنا الوحيد ضد الشر. . . وأفضلُ طريقةٍ لتكريم ذكرى صديقتنا. فأنا اليوم هنا من أجل تارا. وكذلك أنتم».

اصطخبت القاعة بتصفيقاتٍ اهتزّت لها الجدران، وبالصيحات والهتاف. شَكرهم البروفيسور بانحناءة رأس طفيفة، جمع ملاحظاته، ثم نظر إلى أعلى مجدداً. «والآن سيداتي، سادتي، إلى العمل».

كان البروفيسور فوشكا متحدّثاً بارعاً ومثيراً للإعجاب، فهو نادراً ما قام بتفقد ملاحظاته، وأعطى انطباعاً بأنه ارتجل المحاضرة بأكملها. كان مفعماً بالحيوية، ممتعاً، فذّاً، متّقداً، والأهم من ذلك كله، كان حاضراً، بحيث بدا وكأنه يتواصل بشكل مباشرٍ مع كل فرد من الحضور.

«اعتقدتُ أنها ستكون فكرة جيدة أن نتحدث اليومَ عن **الحَدّيّة** في التراجيديا الإغريقية، من بين مواضيع أخرى. ما معنى ذلك؟ حسناً، فكِّروا في أنتيغون التي وجدت نفسها مدفوعةً لاتخاذ أحد خيارين أحلاهما مُرٌّ: الموت أو العار؛ أو في إيفيجينيا التي حضّرت نفسها للموت من أجل اليونان؛ أو أوديب الذي قرر أن يصير أعمى ويهيم على وجهه في الطرقات. **الحدّيّة** هي البرزخ بين عالمين - على حافة ما يعنيه أن تكون إنساناً - حيث يُسلَب منك كل شيء؛ حيث تسمو فوق هذه الحياة، وتختبر شيئاً ما وراءها. وحين تكون المآسي في أوج عملها، فإنها تعطينا لمحةً عن هذا الشعور».

ثم شغّل فوشكا جهاز العرض، فظهر على الشاشة الكبيرة خلفه نقشٌ رخاميٌّ ناتئ لامرأتين تقف كل منهما على أحد جانبَي رجلٍ شابٍّ عارٍ، وكل منهما تمد يدها اليمنى نحوه.

«هل يعرف أحدكم هاتين السيدتين؟».

هزّ الحاضرون رؤوسهم في قلة حيلة. كانت لماريانا فكرة عمّن قد تكونان، وأملت بشدة أن تكون مخطئة.

«هاتان الإلهتان هنا على وشك ضمّ هذا الشاب إلى طائفة سرّية تدعى **إيلوسيس**. إنهما، بالطبع، ديميتر وابنتها بيرسيفون».

التقطت ماريانا أنفاسها، وحاولت جاهدة ألا تشتّت انتباهها. حاولت أن تركز قدر الإمكان.

«هذه هي الطائفة الإيلوسيّة»، تابع البروفيسور، «طقس إيلوسيس السّرّي الذي يمنحك تلك التجربة الحدّيّة في أن تكون بين الحياة والموت، وأن تسمو فوق الموت. ما كانت هذه الطائفة؟ في الواقع، إن **إيلوسيس** هي قصة بيرسيفون - **البَتول** كما كانت تُعرف - إلهة الموت، ملكة العالم السفلي...».

وهو يتكلم، التقت نظرة فوشكا بنظرة ماريانا للحظة، فابتسم ابتسامةً طفيفةً.

إنه يعلم، فكّرت في سرّها. **يعلم ما حدث لسيباستيان، لذلك يفعل ذلك. ليعذبني.**

لكن كيف... كيف له أن يعلم؟ ما كان ليعلم. لم يكن ذلك ممكناً. هي لم تخبر أحداً، ولا حتى زوي. إنها محض مصادفة ليس إلا. هذا كل ما في الأمر. هذا لا يعني **شيئاً**. أجبرت نفسها على توخّي الهدوء ومواصلة تركيزها على ما يقوله.

«حين فقدت ديميتر ابنتها لإيلوسيس، أغرقت العالم في ظلامٍ شتويٍّ حالِكٍ، إلى أن اضطر زيوس للتدخل، فسمح لبيرسيفونَ بالعودة من الموت كل عام لمدة ستة أشهر، وهما فَصلا الربيع والصيف. أما خلال الأشهر الستة التي تظل فيها بيرسيفون في العالم السفلي، فلدينا الخريف والشتاء. النور والظلام؛ الحياة والموت.

هذه الرحلة التي تمضي فيها بيرسيفون - من الحياة إلى الموت، ومنه إلى الحياة - ولّدت طائفة إيلوسيس. وهناك، في إيلوسيس، عند نقطة ولوج العالم السفلي، يمكنك أنت أيضاً أن تشارك في ذلك الطقس السّرّي الذي يمنحك التجربة ذاتها التي تخوضها الإلهة».

خفَض صوته، ورأت ماريانا الرؤوس تميل إلى الأمام، والأعناق تمتد لتلتقط كل كلمة. كان متحكماً بهم ومسيطراً عليهم تماماً.

«لقد ظلت الطبيعة الدقيقة للطقوس في إيلوسيس سرّيّة لآلاف السنين»، تابع فوشكا. «كانت تلك الطقوس والألغاز لا يمكن وصفها، لأنها كانت محاولاتٍ لإدخالنا في شيء لا تستطيع الكلمات وصفه، فالناس الذين اختبروها لم يعودوا كما كانوا أبداً. وهناك قصصٌ لرؤى ولزياراتِ أشباحٍ ورحلات إلى الحياة الآخرة. وكانت الطقوس مفتوحة في وجه الجميع - رجال، نساء، عبيد، أو أطفال - ولم يكن مطلوباً أن تكون إغريقيّاً حتى، فالمطلب الوحيد كان أن تكون قادراً على فهم اللغة اليونانية القديمة، حتى تستطيع أن تفهم ما يُقال لك. خلال التحضيرات، كنتَ تشرب مشروباً محضّراً من الشعير يسمّى كيكيون. وكان ينمو على هذا الشعير فطر أسود يسمى إرغوت، لديه خصائص مسبّبةٌ الهلوسة، صُنعت منه مادة الإل. إس. دي المخدرة بعد ذلك بآلاف السنين. وسواء عرف الإغريق ذلك أم لا، فقد كانوا جميعهم منتشين قليلاً، ما فسّر تلك الرؤى».

غمز فوشكا بعينه حين قال ذلك، وضحك الحاضرون إثر ذلك. انتظر خمود الضحكات ثم واصل بنبرة أكثر جدّيّة.

«تخيلوا معي. لوهلة فقط. تخيّلوا أن تكونوا هناك. . . تخيّلوا الإثارة والتوجّس. كل أولئك الناس ملتقون عند منتصف الليل عند

بوابة العالم السفلي، ويتم اقتيادهم من قِبل الكهنة نحو غرفٍ صخريّةٍ، داخل الكهوف. الأضواء الوحيدة في المكان هي المشاعل التي يحملها الكهنة في أيديهم. كم كان المكان مظلماً وداخناً. صخرٌ باردٌ ومبلّلٌ، يمضون وسطه أعمق فأعمق في بطن الأرض، وصولاً إلى غرفة شاسعة - مكانٌ حدّيٌّ، على حافة العالم السفلي - يدعى التيليستيريون حيث جرت كل الأمور الغامضة. كان مكاناً ضخماً يضم اثنتين وأربعين ساريةً رخاميةً؛ غابة من الصخور تتسع لآلاف المبادرين إلى ذلك الطقس دفعة واحدة، وتتسع لمعبد آخر - الأناكتورون، المكان المقدّس الذي لا يحق إلا للكهنة أن يدخلونه - حيث يُحتفظ بالبقايا الأثرية **للبَتول**».

كانت عَينا البروفيسور السوداوان تلمعان وهو يتكلم. كان يرى كل ذلك أمام ناظريه، كما لو أنه استحضره بكلماته، كما لو أنه ألقى تعويذة.

«لن نعلم أبداً ما حدث هناك بالضبط - ستظل غرائب **إيلوسيس** في نهاية المطاف غامضةً - لكن عند الفجر، يخرج المبادرون إلى النور، بعد أن مرّوا بتجربة موت وإعادة انبعاثٍ... وبفهمٍ جديدٍ لما يعنيه أن يكون المرء إنساناً، وأن يكون حيّاً».

توقف عن الكلام ونظرَ إلى الحاضرينَ لوهلةٍ، ثم اعتمد نبرةً مختلفةً: هادئة، متّقدة، عاطفية.

«دعوني أخبركم شيئاً؛ **هذا** ما تعنيه تلك المسرحيات الإغريقية القديمة. معنى أن يكون المرء إنساناً. معنى أن يكون حيّاً. وإذا فوّتم ذلك وأنتم تقرؤونها، إذا كان كل ما ترونه هو مجموعة من الكلمات الجامدة، فأنتم تفوّتون الأمر برمته. وليس في المسرحيات فحسب، بل في حيواتكم، وفي **اللحظة الراهنة**. إذا كنتم لا تَعون ما هو

أسمى من هذه الحياة، إذا كنتم غير مدركين للغموض الجليل للحياة والموت، ولكونكم محظوظين بما يكفي لتكونوا جزءاً منه، إذا كان ذلك لا يملؤكم بالبهجة ويصيبكم بالرهبة. . . فقد لا تكونون أحياء حقاً. هذه هي رسالة تلك المسرحيات. كونوا جزءاً من تلك المعجزة. من أجلكم، من أجل تارا، **احْيَوْها!**».

خيّم صمت يسمح بسماع صوت سقوط دبّوس على الأرض.

ثم فجأة، اصطخبت القاعة بالتصفيق الصاخب والحماسي.

استمر ذلك التصفيق لبعض الوقت.

11

مكتبة
t.me/soramnqraa

انضمت ماريانا وزوي إلى الصف أمام باب الخروج.

«إذاً؟»، قالت زوي وهي توجه إليها نظرة فضولية. «ما رأيك؟».

ضحكت ماريانا. «أتعلمين؟ قد تكون مبهِر كلمةً مناسبةً لوصفه».

ابتسمت زوي. «أترين؟! لقد قلت لك ذلك».

خرجتا إلى ضوء النهار. تفحّصت ماريانا الحشد المائج من حولها. «هل هنّ هنا؟ البُتُل؟».

أومأت زوي برأسها. «إنهنّ هناك».

أشارت إلى ست شابات متحلّقات حول مقعد، يتحدّثن. كانت أربع منهنّ واقفاتٍ والاثنتان الأخريان جالستَين، وكانت اثنتان منهنّ تدخّنان.

وعلى عكس بقية الطلبة المنتشرين في الكلية، لم تكن هؤلاء الفتيات يرتدين ملابس بالية ولا شاذّة المظهر، بل كان لباسهن أنيقاً وبدا غاليَ الثمن. كنَّ جميعهن معتنيات بأنفسهن، مشذَّبات ومُهندَمات، يضعن مستحضرات التجميل وأظافرهن مقلّمة. وأكثر ما

ميّزهن هو الطريقة التي تصرّفن بها: مع هالة من الثقة بالنفس، بل والتعالي أيضاً.

تأملتهنّ ماريانا لوهلة. «لا يَبدون وَدودات. لقد كنتِ محقة في ذلك».

«لسن كذلك فعلاً. إنهن متغطرسات! يظنن أنهن ''مهمّات'' للغاية. وقد يكونن كذلك...».

«لمَ تقولين ذلك؟ لمَ هن مهمّات؟».

هزّت زوي كتفيها. «حسنٌ...». أشارت إلى شقراء طويلة ورشيقة، جاثمة على مسند ذراع المقعد. «مثلاً، تلك هي كلارا كلارك. والدها هو كاسيان كلارك».

«من يكون؟».

«أوه، يا ماريانا. إنه ممثل. إنه أحد أكبر المشاهير».

ابتسمت ماريانا. «فهمت. وماذا عن الأخريات؟».

راحت زوي تشير إلى باقي أعضاء المجموعة بكل ما استطاعت من تحفّظ وحذر. «تلك التي على اليسار، الحلوة ذات الشعر الأسود القصير؟ تلك هي ناتاشا. إنها روسية. والدها أحد الأوليغارشيين أو شيء من هذا القبيل؛ إنه يملك نصف روسيا... أما دِيَا فهي أميرة هندية، وقد حصلت على أعلى معدل في الكلية العام الماضي، إنها عبقرية. والفتاة التي تتحدث إليها هي فيرونيكا: أبوها سيناتور، أظن أنه ترشّح للرئاسة...». نظرت إلى ماريانا. «هل وصلتكِ الفكرة...؟».

«وصلت. تقصدين أنهن جميعهن ذكيات ومترَفات».

أومأت زوي برأسها. «مجرد سماع قصص عُطَلِهِنّ يشعرك

بالغثيان، فهي دائماً ما تتضمن يخوتاً، وجُزراً خاصة، ومُنتجعات تزلجٍ. . .».

ابتسمت ماريانا. «يمكنني تصوّر ذلك».

«لا غرابة في أن الجميع يكرهونهُنّ».

نظرت إليها ماريانا. «أحقاً يكرهُهنّ الجميع؟».

هزّت زوي كتفيها. «حسنٌ، الجميع يحسدونهنّ، على أية حال».

فكّرت ماريانا لوهلة. «حسن إذاً، فلنجرّب».

«ما قصدك؟».

«فلنتحدث إليهن، بخصوص تارا، والبروفيسور فوشكا».

«الآن؟». هزّت زوي رأسها معترضةً. «مستحيل. لن يفلح الأمر أبداً».

«ولمَ لا؟».

«إنهن لا يعرفنكِ. سيلتزمن الصمت - أو يَنقلبن عليك - خصوصاً إذا ذكرتِ البروفيسور. ثقي بي، لا تُقدمي على ذلك».

«يبدو الأمر كما لو أنك خائفة منهن».

أومأت زوي برأسها. «صحيح. بل أنا. . . مرعوبة».

قبل أن تتمكن ماريانا من الرد، رأت البروفيسور فوشكا خارجاً من قاعة المحاضرات. توجه نحو الفتيات، فتجمّعن حوله وهنّ يهمسن بحميميّة.

«هلمّ بنا!»، قالت ماريانا.

«ماريانا، لا. . .».

لكنها تجاهلت زوي، ومضت نحو فوشكا والطالبات.

رفع رأسه حين اقتربت ماريانا وابتسم.

«مرحباً ماريانا»، قال فوشكا. «ظننتُ أنني رأيتك بين الحُضور أثناء المحاضرة».

«هذا صحيح».

«آمل أن تكوني قد استمتعت بها».

حاولت ماريانا العثور على الكلمات المناسبة. «كانت جدّ. . . مفيدة وغنية بالمعلومات. بديعة حقاً».

«أشكركِ».

نظرت ماريانا إلى الشّابات المتحلّقات حول البروفيسور. «هل هؤلاء طالباتك؟».

نظر البروفيسور إلى الشّابّات مع ابتسامةٍ طفيفةٍ. «بعضهن طالباتي. من الأكثر إثارة للاهتمام».

ابتسمت ماريانا للطالبات، فرددن ابتسامتها ببرودٍ تامٍّ كما لو كنّ أصناماً من الجلمود.

«أنا ماريانا، خالة زوي».

نظرت حولها بحثاً عن زوي، لكن هذه الأخيرة لم تتبعها ولم يكن لها أثر. استدارت ماريانا نحوهم من جديد، بابتسامةٍ على شفتيها.

«لم يسعني عدم ملاحظتكن في حفل تأبين تارا. كنتن مميزات جداً، في أثوابكن البيضاء». ابتسمت لهنّ، قبل أن تضيف: «أتساءل لماذا؟».

سرى ترددٌ طفيفٌ بينهن، سرعان ما كسرته إحداهن، دِيا. نظرت إلى فوشكا وقالت: «كانت هذه فكرتي. ففي الهند، لطالما نرتدي ثوباً أبيض أثناء مراسم الدفن. كما أن الأبيض كان لون تارا المفضل، لذا. . .».

هزت كتفيها، فتولّت فتاة أخرى إتمام جملتها: «لذا ارتدينا الأبيض تكريماً لها».

«كانت تكره الأسود»، قالت أخرى.

«فهمت»، قالت ماريانا وهي تومئ برأسها. «هذا مثير للاهتمام».

ابتسمت لهنّ مجدداً، لكنهنّ لم يبادلنها الابتسامة.

خيّم صمتٌ وجيزٌ. نظرت ماريانا إلى فوشكا. «بروفيسور، هل لي بطلبٍ صغيرٍ؟».

«تفضلي».

«حسنٌ، لقد طلب مني العميد، بصفتي معالجةً متخصصة في العلاج الجماعي، أن أدردش بصفة غير رسمية مع الطلبة لأتفقد كيفية تعاملهم مع ما حدث». نظرت إلى الفتيات. «هل يمكنني استعارة بعضٍ من طالباتك؟».

قالت ماريانا ذلك بأقصى ما استطاعت من براءة، لكن وهي تواصل النظر إلى الفتيات، شعرت بوقع نظرات فوشكا الثاقبة عليها، يحدّق فيها، محاولاً أن يسبر أفكارها. تخيّلت ما كان يفكر فيه لحظتها، متسائلاً عما إذا كانت صادقةً... أم أنها تتلصّص في الأرجاء، محاوِلةً جمع المعلومات عنه. ألقى نظرة إلى ساعته.

«لدينا حصة بعد قليل»، قال فوشكا. «لكن بإمكاني الاستغناء عن اثنتين منهن، إذا جاز التعبير». أومأ برأسه باتجاه فتاتين من المجموعة. «فيرونيكا؟ سيرينا؟ ما رأيكما؟».

نظرت الفتاتان إلى ماريانا. كان من المستحيل قراءة مشاعرهما.

«بالطبع»، قالت فيرونيكا وهي تهز كتفيها. تكلمت بلكنة

أمريكية. «أقصد، لديّ طبيب نفسي خاص. . . لكن لا مانع لديّ في احتساء كأس بصحبتها إذا كانت هي من ستدفع».

أومأت سيرينا برأسها. «وأنا كذلك».

«حسنٌ، إذاً. سنحتسي كأساً معاً». ابتسمت ماريانا لفوشكا، ثم شكرته.

ثبّت فوشكا عينَيه السوداوَين على ماريانا، ثم ابتسم لها هو الآخر.

«بكل سرورٍ، يا ماريانا. آمل أن تحصلي على كل ما تريدينه».

12

وهي تغادر كليّة الأدب الإنجليزي، وجدت ماريانا زوي مُتواريةً عند البوابة. طلبت منها ماريانا الانضمام إليهن، فوافقت حين علمت أنهن ذاهبات لاحتساء كأس. مَضَين نحو حانة داخل سانت كريستوفر، في أحد أركان الساحة الرئيسية.

كانت الحانة مصنوعة من الخشب بأكملها: ألواحٌ خشبية تغطي الأرضية، جدران مكسوة بخشب البلوط، ومنضدة خشبية عريضة. جلست ماريانا رفقة الشابات الثلاث حول الطاولة الخشبية الكبيرة عند النافذة، المطلة على جدار مغطى بنبات اللّبلاب. جلست ماريانا بجوار زوي، قبالة فيرونيكا وسيرينا.

تعرّفت ماريانا إلى فيرونيكا، كونها الفتاة التي ألقت على مسامع الحضور قراءة عاطفية من الإنجيل خلال حفل تأبين تارا. كان اسمها فيرونيكا دْريك، وهي ابنة عائلة أمريكية ثرية لها باع في السياسة، إذ كان والدها سيناتوراً في ولاية واشنطن.

كانت فيرونيكا فائقة الجمال، وكانت تعي ذلك جيداً. شعرها أشقر طويل، اعتادت العبث به وهي تتحدث، واستعملت المكياج بكثافة، ما أبرز شفتيها وعينيها الزرقاوين الكبيرتين. كان قوامها

ممشوقاً، وقد حرصت على إظهاره في سروال جينز ضيّق. وتصرفت بثقة، بسُلطةِ شخصٍ عرف كل أنواع الامتيازات منذ ولادته.

طلبت كأساً كبيراً من جعة غينيس، احتسته بسرعة. تحدثت كثيراً، وكان هناك شيء من التكلّف في كلامها، فتساءلت ماريانا عما إذا كانت قد تلقت دروساً في فن الخطابة. وحين كشفت فيرونيكا أنها كانت تنوي دخول مجال التمثيل بعد تخرجها، لم يفاجئ ماريانا سماعُ ذلك، فقد اعتقدت أن أسفل طبقة المكياج السميكة تلك، وأسفل ذلك السلوك الطنان وتلك الفصاحة، كان هنالك شخص مختلف تماماً، لكن لم تكن لديها فكرة عمن يكون ذلك الشخص، وشكّت بأنه قد لا تكون لدى فيرونيكا نفسها فكرة عن ذلك.

كان عيد ميلاد فيرونيكا العشرين بعد أسبوعٍ، وكانت تحاول تنظيم حفل، رغم أجواء الإحباط التي تخيّم على الكُلية.

«يجب للحياة أن تستمر، أليس كذلك؟ هذا ما كانت سترغب فيه تارا. على أية حال، سأستأجر قاعة خاصة في نادي ذي غرانشو بلندن». وأضافت بنبرة غير مقنعة: «يجب أن تحضري، يا زوي».

صدر عن زوي صوت شخير خافت وركّزت على شرابها.

ألقت ماريانا نظرة خاطفة باتجاه الفتاة الأخرى: سيرينا لويس، التي احتست نبيذها الأبيض في صمت. كانت سيرينا نحيلة، معتدلة البنية، والطريقة التي جلست فيها هناك ذكرت ماريانا بطائر صغير جاثم، يشاهد كل شيء لكنه لا يتفوه بشيء.

وعلى عكس فيرونيكا، لم تكن سيرينا تضع أي مستحضرات تجميل - هي لم تكن بحاجة إلى ذلك - فقد كانت جميلةَ التّقاسيم، بهيّةَ الطلّة. جمعت شعرها الأسود الطويل في ضفيرة مشدودة بإحكام، وكانت ترتدي بلوزة وردية فاتحة وتنورة تغطّي ركبتيها.

كانت سيرينا سنغافوريّة الجنسية، لكنها ترعرعت في مدارس داخلية إنجليزية. كان صوتها رقيقاً، مع لكنةٍ إنجليزيّةٍ توحي بأنها من الطبقة العليا. وكانت سيرينا متحفظة بقدر ما كانت فيرونيكا منبسطة. وقد استمرت في تفقّد هاتفها، بحيث انجذبت إليه يدها كما لو أنه مغناطيس.

«أخبريني عن البروفيسور فوشكا»، قالت ماريانا.

«ماذا عنه؟».

«سمعتُ أنه وتارا كانا مقرّبَين».

«لا أدري أين سمعتِ ذلك، فهما لم يكونا مقرّبَين البتة». ثم استدارت فيرونيكا نحو سيرينا مضيفة: «أكانا كذلك؟».

رفعت سيرينا بصرها استجابةً لذلك وتوقفت عن النقر على هاتفها. هزّت رأسها نافيةً: «لا، لم يكونا كذلك إطلاقاً. كان البروفيسور لطيفاً في تعامله معها، لكنها كانت تستغله فحسب».

«تستغله؟»، سألت ماريانا. «وكيف كانت تستغله؟».

«لم تقصد سيرينا ذلك»، تدخلت فيرونيكا. «قصدت أن تارا ضيّعت وقته وجهده، فالبروفيسور يستثمر الكثير من الجهد فينا، كما تعلمين. إنه أفضل معلِّم قد تحظين به».

أومأت سيرينا برأسها واسترسلت: «إنه أفضل معلِّم في العالم أجمع. الأكثر نباهة. و...».

قاطعت ماريانا خطاب المديح ذاك. «كنت أتساءل بشأن ليلة الجريمة».

هزّت فيرونيكا كتفيها. «كنا مع البروفيسور فوشكا طوال المساء. كانت لدينا حصة خصوصية معه في إقامته الجامعية. وكان من المفترض أن تكون تارا معنا، لكنها لم تحضر».

«متى كان ذلك؟».

ألقت فيرونيكا نظرة سريعة إلى سيرينا. «بدأت الحصة عند الساعة الثامنة، أليس كذلك؟ واستمررنا حتى. . . كم كانت الساعة؟ العاشرة؟».

«أجل، أظن ذلك. العاشرة أو بعدها بقليل».

« وهل كان البروفيسور فوشكا معكنّ طوال الوقت؟».

أجابت الفتاتان دفعة واحدة.

«أجل»، قالت فيرونيكا.

«لا»، قالت سيرينا.

التمع في عينَي فيرونيكا وميضٌ من الغضب. حدّجت سيرينا بنظرة اتهامٍ. «ما الذي تتحدثين عنه؟».

بدا على سيرينا الارتباك. «أوه، أنا. . . لا شيء. أقصد، لقد غادر لبضع دقائقَ فقط، هذا كل شيء. ليدخّن سيجارةً في الخارج فحسب».

تراجعت فيرونيكا. «أجل، لقد فعل. نسيت ذلك. غادر لدقيقةٍ واحدةٍ أو نحوها».

أومأت سيرينا برأسها. «إنه لا يدخّن في الداخل حين أكون هناك لأنني مصابة بالربو. لطالما كان شهماً مُراعياً».

صدرت فجأة عن هاتف سيرينا رنةٌ قصيرةٌ أشارت إلى وصول رسالةٍ نصيةٍ، فانقضّت عليه في الحين. ثم أشرق وجهها وهي تقرأ الرسالة. «يجب أن أغادر، يجب أن ألتقي أحدهم».

«أوه، ماذا هناك؟». قلبت فيرونيكا عينيها. «أهو الرجل الغامض؟».

حدّجتها سيرينا بنظرةٍ. «كفاكِ!».

ضحكت فيرونيكا، ثم قالت بصوت رخيم: «**سيرينا لديها حبيب سريّ**».

«هو ليس حبيبي!».

«لكنه سريّ! إنها لا تريد إخبارنا بمن يكون. هي حتى لم تخبرني **أنا**». غمزت إليها بتواطؤ. «أتساءل... عما إذا كان متزوجاً؟».

«لا، إنه ليس متزوجاً»، ردت سيرينا وقد احمرّ وجهها. «إنه لا شيء، مجرد صديق. عليّ أن أغادر».

«وأنا كذلك»، قالت فيرونيكا. «لديّ بروفة». ابتسمت لزوي بلطفٍ. «خسارة أنكِ لم تُقبَلي في طاقم تمثيل **دوقة مالفي**. سيكون إنتاجاً رائعاً. إن نيكوس، المخرج، عبقريٌّ بحقٍّ. سيغدو مشهوراً حقاً يوماً ما». ثم وجّهت فيرونيكا نظرةَ نصرٍ إلى ماريانا. «**أنا ألعب** دور الدوقة».

«بالطبع تفعلين. حسنٌ إذاً، أشكركِ على التحدّث إليّ، يا فيرونيكا».

«العفو».

وجهت فيرونيكا نظرةً خبيثةً إلى ماريانا، ثم غادرت المكان، تتبعها سيرينا.

«آخ...». دفعت زوي كأسها الفارغة وأطلقت تنهيدةً عميقةً. «لقد قلتُ لكِ إنهن لئيمات سامّات».

لم تخالفها ماريانا الرأي، فهما لم تروقاها هي الأخرى.

لكن الأهم من ذلك أنه انتابها شعورٌ - مكتسَبٌ من سنين طويلةٍ من العمل مع مرضاها - بأن فيرونيكا وسيرينا كانتا تكذبان عليها.

لكن بشأن ماذا؟ ولماذا؟

13

لسنين طويلة، خشيت حتى فتح الدولاب الذي يحتويها.

لكنني وجدت نفسي اليوم واقفاً فوق كرسيٍّ، أمدّ ذراعي لأمسك بعلبة الخوص الصغيرة التي تحتوي مجموعة الأشياء التي كنت أريد نسيانها.

جلستُ قرب الضوء وفتحتها. دققت في محتوياتها: بعض رسائل الحب الحزينة التي كتبتُها لبعض الفتيات لكنني لم أرسلها؛ قصص أطفال عن الحياة في المزرعة؛ وبضع قصائد رديئة كنت قد نسيت أمرها تماماً.

لكن آخر شيء في «علبة باندورا» هذه كان شيئاً أذكره جيداً جداً: دفتر اليوميات ذا غلاف الجلد البنّي الذي كتبت فيه خلال ذلك الصيف، حين كنت في الثانية عشرة، الصيف الذي فقدت فيه والدتي.

فتحت الدفتر وتصفحته؛ نصوص طويلةٌ مكتوبة بخط يد طفولي غير ناضج. بدا ذلك تافهاً. لكن لولا مضامين تلك الصفحات، لكانت حياتي مختلفةً تماماً.

يَصعب عليّ أحياناً تفكيك شيفرة ذلك الخط. كانت مجرد خربشاتٍ غير منظمة، خصوصاً في الصفحات الأخيرة التي بدت كما لو أنها كُتبت على عجل، في نوبة جنونٍ، أو نوبة صحة عقلية بالأحرى.

وأنا جالس هناك، شعرت كما لو أن ضباباً بدأ ينجلي.

ظهرت أمامي طريقٌ تؤدي إلى ذلك الصيف. إلى صِباي.

إنها رحلة مألوفة، غالباً ما أقوم بها في أحلامي: أنعطف نحو الطريق الترابية المتموّجة متجهاً إلى المزرعة.

أنا لا أريد العودة.

أنا لا أريد أن أتذكّر...

ولكن يجب عليّ فعل ذلك. لأن هذا أكثر من مجرد اعترافٍ. إنه بحثٌ عمّا فُقد، عن كل الآمال التي تبخرت وعن الأسئلة التي نُسيت. إنه بحثٌ عن التفسير: بحثٌ عن الأسرار المريعة المُلمَّح إليها في دفتر يوميات ذلك الطفل، والتي أراجعها الآن كما لو كنت مُنجِّماً يحدّق في كرة بلّورية.

إلا أنني لا أسعى وراء المستقبل.

بل أسعى وراء الماضي.

14

عند الساعة التاسعة، ذهبت ماريانا للقاء فْريد في حانة ذي إيغل.

كانت ذي إيغل أقدم حانةٍ في كامبريدج، تحظى بشعبية واسعة، تماماً كما كان الحال في القرن السابع عشر. كانت عبارة عن غرفٍ صغيرةٍ متّصلةٍ، جدرانها مغطاة بألواح خشبية ومضاءة بالشموع، تفوح في أجوائها رائحة الضأن المشوي، وإكليل الجبل، والجعة.

كانت الغرفة الرئيسية معروفة باسم «حانة القوّات الجوية»، حيث انتصبت عدة أعمدة تحمل السقف غير المستوي المغطّى برسومات غرافيتي تعود إلى الحرب العالمية الثانية. وأدركت ماريانا، وهي تنتظر عند المنضدة، وجود رسائلَ من رجال في عداد الأموات فوق رأسها، إذ استخدم طيّارون بريطانيون وأمريكيون أقلاماً، وشموعاً، وولّاعاتٍ لكتابة أسمائِهم وأسماء أسْرابِهم على السقف، وخربشوا الرسومات أيضاً.

استرعت ماريانا انتباهَ السّاقي ذي الوجه الطفولي الذي كان يرتدي قميصاً بمربعات خضراء وسوداء. ابتسم وهو يزيل من غسالة الأواني صينيّةً مملوءة بأكوابٍ يتصاعد منها البخار. «ماذا ستطلبين، يا حُلوتي؟».

«كأساً من السوفينيون الأبيض، من فضلك».

«حالاً».

صبّ لها كأساً من النبيذ الأبيض. دفعت ماريانا ثمنه، ثم مضت تبحث عن مكان لتجلس فيه.

كان المكان يعج بالأزواج الشباب الممسكين أحدهُم بيد الآخر، منخرطين في محادثات رومانسية. رفضت السماح لنفسها بإلقاء نظرة إلى الطاولة في الركن، حيث اعتادت هي وسيباستيان أن يجلسا في الأيام الخوالي.

تفقدت ساعتها: التاسعة وعشر دقائق.

لقد تأخر فريد عن الموعد، ولعلّه لن يأتي. أملت أن يحصل ذلك وارتاحت للفكرة. ستنتظر عشر دقائق أخرى ثم تنصرف.

استسلمت ونظرت إلى الطاولة في الركن. كانت خالية، فذهبت وجلست هناك.

راحت تمرر أناملها على تشققات الطاولة الخشبية، كما كانت تفعل في الماضي. وهي جالسة هناك تحتسي النبيذ البارد بعينين مغمضَتين وتنصت إلى أصوات المحادثات والضحك من حولها، شعرت بنفسها تعود إلى الماضي. وإذا أبقت عينيها مغمضتين، فستستطيع البقاء هناك: في سن التاسعة عشرة، تنتظر ظهور سيباستيان في المكان، مرتدياً قميصاً أبيض وسروال جينز أزرق ممزقاً عند الركبة.

«مرحباً»، قال لها.

لكنه كان الصوتَ الخطأ - لم يكن صوت سيباستيان - وشعرت بارتباكٍ للحظة، قبل أن تفتح عينيها. لقد تلاشى السحر.

كان ذلك صوتَ فْريد، حاملاً كوب جعة غينيس كبيراً، ومبتسماً لها ابتسامة عريضة. كانت عيناه متلألئتين وخدّاه متورّدين.

«آسف على التأخير. لقد امتدت حصة إشرافي أكثر مما كان متوقعاً، فأتيت على دراجتي بأسرع ما استطعت. . . واصطدمت بعمود إنارة».

«هل أنت بخير؟».

«أنا بخير. لقد تلقى العمود معظمَ الضرر! هل لي بالجلوس؟».

أومأت ماريانا برأسها بالإيجاب، فأخذ مكانه، على مقعد سيباستيان. لوهلة، فكرت ماريانا في أن تطلب منه الانتقال إلى طاولة أخرى، لكنها أحجمت عن ذلك. كيف صاغت كلاريسا ذلك؟ يجب أن تتوقف عن الالتفات والنظر من فوق كتفها. يجب أن تركّز على الحاضر.

علت وجهَ فريد ابتسامةٌ عريضةٌ. أخرج علبةً صغيرةً من المكسرات من جيبه، عرضها على ماريانا، لكنها هزّت رأسها.

ألقى بحبّتَي كاجو في فمه وشرع يهرسهما بأضراسه، مُبقياً عينيه على ماريانا. خيّم على الطاولة صمتٌ غريبٌ بينما انتظرته أن يقول شيئاً. كانت منزعجةً من نفسها. ما الذي كانت تفعله هنا مع هذا الشاب بسيطِ الطّويّة؟ كم كان المجيء إلى هنا فكرةً غبيةً! قررت - عكس دأبها - أن تتكلم بفظاظةٍ، إذ لم يكن لديها ما تخسره.

«اسمع، لن يحدث شيء بيننا. مفهوم؟ أبداً».

اختنق فريد بحبة كاجو، وراح يسعل. ابتلع بعض الجعة وتمكن من التقاط أنفاسه.

«آسف»، قال والحرج بادٍ على وجهه. «أنا. . . أنا لم أكن

أتوقع ذلك. وصلت الرسالة! أنت بعيدة المنال عن شخصٍ مثلي، هذا جليّ!».

هزّت ماريانا رأسها. «ليس هذا السبب».

«ولِمَ إذاً؟».

هزّت ماريانا كتفيها، متضايقة. «لمليون سبب».

«سمّي منها واحداً».

«أنتَ أصغر مني سناً بكثير».

«ماذا؟». ينِع وجه فريد. بدا ناقماً ومُحرَجاً. «هذا سخيفٌ!».

«كم عمركَ؟».

«لا أُعتبر صغيراً. 29 سنة تقريباً».

ضحكت ماريانا. «بل هذا سخيف!».

«لماذا؟ كم عمركِ؟».

«كبيرةٌ بما يكفي كي أجيبك برقمٍ غير تقريبيّ: 36 سنة».

«وماذا في ذلك؟». هزّ فريد كتفيه. «العمر لا يهم. ليس حين تشعرين... بما تشعرين به». نظر إليها. «أتعلمين؟ حين رأيتك لأول مرة، في القطار، راودني شعور قوي بأنني سأطلب يدك للزواج يوماً... وأنك ستوافقين».

«لقد كنتَ مخطئاً».

«لماذا؟ هل أنت... متزوّجة؟».

«أجل. لا. أقصد...».

«هل هجَرَكِ؟ يا له من غبي!».

«أجل، هذا ما أعتقده غالباً». تنهدت ماريانا، ثم تحدثت بسرعة لتحسم الأمر. «لقد... مات! قبل نحو سنة. ويصعب عليّ... التحدث عنه».

«آسف لسماع ذلك». بدا فريد مُغتمّاً. لم ينبس ببنت شفة لوهلة، ثم علّق: «أنا من يشعر بالغباء الآن».

«لا عليك. ليس ذلك خطأك».

شعرت ماريانا بتعبٍ شديدٍ فجأة، كما بالإحباط تجاه نفسها. أفرغت كأس النبيذ في جوفها، ثم قالت: «يجب أن أذهب».

«لا، ليس بعد. لم أخبرك برأيي بخصوص جريمة القتل. بخصوص كونراد. أنتِ هنا من أجل ذلك، أليس كذلك؟».

«حسنٌ؟».

رمقها فريد بنظرةٍ جانبيةٍ. «أظن أنهم أمسكوا بالرّجل الخطأ».

«حقاً؟ وما الذي يدعوك إلى قول ذلك؟».

«لقد التقيت كونراد. أنا أعرفه. إنه ليس بقاتلٍ!».

أومأت ماريانا برأسها. « زوي تشاطرك الرّأي، لكن الشرطة تظن عكس ذلك».

«في الواقع، لقد فكرتُ ملياً... أنا أحب حلّ أمور كهذه بنفسي. أحب حل الألغاز، وتستهوي عقلي مثلُ هذه الأمور». ابتسم لها فريد. «ما رأيك؟».

«ما رأيي في ماذا؟».

«أنا وأنتِ...»، قال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ عريضة. «نكوّن ثنائياً؟ نحلّ اللغز معاً؟».

فكّرت ماريانا للحظة. يمكن أن تستفيد من مساعدته فعلاً، إلا أنها علمت أنها ستندم على ذلك. هزّت رأسها رافضةً عرضه.

«لا أعتقد ذلك، لكن شكراً على عرضِك».

«حسنٌ، أَعلِميني في حال غيّرتِ رأيك». أخرج قلماً من جيبه

وكتب رقم هاتفه على ظهر الحصيرة الكرتونية للبيرة، ثم مدّها لها. «خذي. إذا احتجتِ إلى أي شيء - أي شيء على الإطلاق - اتصلي بي».

«شكراً، لكنني لن أبقى هنا طويلاً».

«تظلّين ترددين ذلك، لكنكِ ما زلت هنا». علت وجهه ابتسامة عريضة مجدّداً. «لديّ شعورٌ طيبٌ حيالكِ، يا ماريانا. حدسٌ. وأنا أؤمن بالحدس».

وهما يغادران الحانة، حدّث فْريد ماريانا بابتهاجٍ.

«أنتِ من اليونان، أليس كذلك؟».

أومأت برأسها. «أجل. نشأت في أثينا».

«آه، أثينا مكانٌ ممتعٌ. أنا أحب اليونان. هل قمتِ بزيارة العديد من الجزر؟».

«بعضها».

«ماذا عن ناكسوس؟».

تسمّرت ماريانا في مكانها. وقفت وسط الشارع مربَكة، عاجزةً عن النظر إليه فجأة.

«ماذا؟»، سألت بصوتٍ هامسٍ.

«ناكسوس؟ لقد ذهبتُ إليها السنة الماضية. أنا سبّاح ماهر - أنا أمارس الغوص أساساً - والمكان رائع ومناسب جداً لذلك. هل سبق لكِ زيارتها؟ لا بد أن تفعلي...».

«يجب أن أذهب».

التفتت ماريانا وابتعدت قبل أن يتمكن من رؤية دموعها، وواصلت المشي دون أن تلتفت إليه.

«أوه...»، سمعَته يقول. بدا مصدوماً شيئاً ما. «حسنٌ، إذاً. أراكِ لاحقاً...».

لم تجب ماريانا. **إنها مجرد مصادفة،** قالت في سرّها. **هذا لا يعني شيئاً - انسَي الأمر - إنه لا يعني شيئاً. لا شيء على الإطلاق.**

حاولت إبعاد ذِكر الجزيرة من ذهنها، وواصلت المشي.

15

ما إن تركتْ فريد حتى مضت ماريانا تُسرع الخطى نحو الكلية.

صار الجو أبرَد الآن مع حلول المساء، وشعرت ماريانا بقشعريرةٍ طفيفةٍ. بدأ الضباب ينتشر ويخيّم فوق النهر، بحيث اختفى الشارع أمامها في سحابة من الغشاوة، تحوم فوق الأرض مثل دخانٍ كثيفٍ.

وسرعان ما أدركت أنها ملاحَقة.

كان وَقع الخطى نفسه الذي كان وراءها بعد مغادرتها حانة ذي إيغل بقليلٍ. كان خطواً ثقيلاً، خطو رَجلٍ، جزمةٌ صلبةٌ وعازمة تطأ الحجارة بقويةٍ مرةً تلو الأخرى، يرتدُّ صداها عبر الطريق المقفرة خلفها. كان يصعب تحديد بُعد تلك الخطوات، دون الالتفات. استجمعت شجاعتها وألقت نظرة من فوق كتفها.

لم يكن هناك أحد، على مدى نظرها على الأقل، وهو ما لم يكن مسافةً كبيرةً، إذ كان الضباب قد غلّف الشارعَ وابتلعه تحت ستاره.

واصلت ماريانا المشي إلى أن بلغت زاوية الطريق، وانعطفت.

ثوانٍ بعد ذلك، تبِعتها الخطوات.

زادت ماريانا من سرعتها، وكذلك فعلت الخطوات.

نظرت فوق كتفها مجدداً، ورأت أحدهم هذه المرة.

طيف رجل، على مسافةٍ غيرِ بعيدةٍ منها. كان يمشي بعيداً عن أعمدة الإنارة، بمحاذاة الحائط، مُلتحِفاً بالظلام.

شعرت ماريانا بقلبها ينبض بسرعة. نظرت من حولها بحثاً عن منفذٍ، فرأت رجلاً وامرأةً، على الجهة المقابلة من الشارع، يمشيان شابكَين ذراعيهما. نزلت عن الرصيف بسرعةٍ وقطعت الطريق متوجهةً نحوهما.

لكنها ما إن بلغت الرصيف المقابل حتى صعدا سلالمَ صغيرةً تقود إلى بابٍ أماميٍّ، ففتحاه واختفيا في الداخل.

واصلت ماريانا المشي وهي تصيخ السمع إلى الخطوات. استدارت وألقت نظرة من فوق كتفها، وها هو ذا هناك - رجلٌ في لباسٍ أسود يغمر وجهَه الظلامُ - يقطع الشارع الغارق في الضّباب خلفها.

لمحت ماريانا طريقاً ضيّقاً على يسارها، فأخذت قراراً مفاجئاً وانعطفت نزولاً نحو تلك الطريق، ودون أن تنظر وراءها، أطلقت رجليها للريح.

جرت عبر تلك الطريق حتى نهايتها وصولاً إلى النهر، حيث ظهر الجسر الخشبي أمامها. واصلت جريها وعبرته - فوق الماء وإلى الجهة المقابلة.

كان المكان أكثر حُلكة هنا، بجوار الماء، دون أعمدة إنارةٍ لتبديد الظلام، وكان الضباب أكثر كثافةً. شعرت بالبرد والبلل يغطّيان بشرتها، وفاحت من المكان رائحةٌ أقرب إلى الجليد، كما لو كان الثلج قد تساقط.

وبحذرٍ شديدٍ، هَصَرَت ماريانا بضعة أغصانٍ، ثم خطت نحو شجرة عريضة واختبأت خلفها. تشبّثت بالجذع وشعرت بلِحائه اللّيّن الرّطب على جسدها، وحاولت التزام السّكون والصمت التّامّين، كما حاولت قدر الإمكان إبطاءَ تنفّسها وكتمَ صوته.

ثم راقبت وانتظرت.

وثوانٍ قليلةٌ بعد ذلك، لمحته - أو لمحت ظلّه - يتسلّل فوق الجسر ونحو الضفة.

ثم اختفى في قلب الظلام الحالك، إلا أنها ظلّت تسمع وقع خطواته، على أرض طرية الآن - على التراب - وهو يجوس في الأرجاء على بعد بضعة أقدام منها.

خيّم صمت مطبق بعد ذلك. لا صوت على الإطلاق. كتمت أنفاسها.

أين هو؟ إلى أين ذهب؟

انتظرت لزمنٍ بدا لها لانهائياً، توخّياً للأمان. هل رحل؟ يبدو كذلك.

خرجت من خلف الشجرة بحذرٍ شديدٍ، واستغرقت بضع ثوانٍ لتستعيد رباط جأشها. ثم أدركت أن النهر هناك أمامها، يلمع سطحه وسط الظلام، وكل ما عليها فعله هو اتّباعه.

مضت بمحاذاة ضفة النهر تحثُّ الخطى حتى بلغت المدخل الخلفي لسانت كريستوفر، وهناك عبرت الجسر الصخري وتوجهت نحو البوّابة الخشبية الكبيرة التي تتوسّط الجدار القِرميدي.

مدّت ذراعها، أمسكت بالحلقة المعدنية الباردة، وسحبتها، لكن البوابة لم تتحرّك قيد أنملة. كانت مقفلة.

ترددت ماريانا، غير متأكدة مما يجب فعله، ثم... سمعت صوت خطوات.

الخطوات الملحّة نفسها. الرّجُل نفسه.

وقد غدا أقرب منها.

نظرت من حولها، لكنها لم تستطع أن ترى شيئاً سوى سحب من الضباب تتلاشى في ظِلالٍ سوداء.

لكنها استطاعت سماعه يقترب، يعبر الجسر قادماً في اتجاهها.

حاولت مجدداً فتح البوّابة لكنها لم تتململ. كانت محاصَرة، وشعرت بالهلع يدبّ في نفسها.

«مَن هناك؟»، سألت باتجاه الظلام الحالك. «مَن هناك؟».

لا جواب.

خطوات تقترب فحسب...

فتحت ماريانا فمها استعداداً للصراخ...

ثم، فجأة، على بعد أمتار قليلة على يسارها، صدر صوت صَرير. فُتحت في الجدار بوّابةٌ صغيرة كانت مخبّأة جزئياً بشجيرة متدلّيةٍ، ولم تنتبه إليها ماريانا من قبل. كان حجمُها ثلثَ حجم البوابة الرئيسية، مصنوعةً من خشبٍ بسيطٍ غير مزخرَفٍ. شعّ منها ضوءُ مصباحٍ يدويٍّ وسط الظلام الدامس، صُوِّب إلى وجهها فأبهرها.

«هل كل شيء على ما يرام، يا آنسة؟».

تعرّفت إلى صوت موريس على الفور، فشعرت بالارتياح يغمرها. أبعد البوّابُ المصباحَ عن عينيها، فرأته وهو يقف منتصباً، بعد أن كان قد انحنى ليعبر من البوابة المنخفضة. كان موريس يرتدي معطفاً أسود وقفازين من اللون ذاته. حدّق فيها.

«هل أنتِ بخير؟»، قال لها. «لقد كنتُ أقوم بجولتي فحسب. البوابة الخلفية تُغلق عند الساعة العاشرة، ومن المفترض أن تكوني على عِلم بذلك».

«لقد نسيت. أجل... أنا بخير».

وجّه المصباح اليدوي صوبَ الجسر، وتابعت ماريانا بنظرها الضوء في قلقٍ وتوجّسٍ. لا أثر لأحدٍ.

أصاخت السمع. صمتٌ تامٌّ. لا خطواتَ في المكان.

لقد رحل.

«هل لي بالدخول؟»، قالت وهي تلتفت إلى موريس.

«بكل تأكيد. من هنا». أشار بيده إلى البوابة الصغيرة خلفه. «غالباً ما أستعملها كطريقٍ مختَصرٍ. اتبعي الممر حتى نهايته وستصلين إلى الساحة الرئيسية».

«شكراً لك. أنا ممتنة جداً».

«العفو، آنستي».

مرّت أمامه ومشت نحو البوابة المفتوحة. حنت رأسها، انحت قليلاً، ثم دخلت. كان الممر الصخري القديم حالكاً وتفوح منه رائحة البلل والرطوبة. أُغلقت البوابة خلفها، ثم سمعت موريس يُدير القُفل.

مضت ماريانا تتلمّس طريقها عبر الممر بحذر، تفكر فيما حدث. راودتها لحظةُ شكٍّ: هل كان أحدهم يتبعها فعلاً؟ وإذا كان الأمر كذلك حقاً، فمن هو؟ أم أنها كانت مجرد نوبة جنونِ ارتيابٍ[1]؟

---

(1) Paranoïa.

على أية حال، شعرت بارتياح شديد إثر رجوعها إلى الكلية.

قادها الممر إلى رواقٍ من ألواح خشب البلّوط، تابع للمبنى الذي تُحفَظ فيه المؤن في الساحة الرئيسية. كانت على وشك الخروج من الباب الرئيسي حين التفتت وألقت نظرة وراءها، لتتوقف في أعقابها.

كانت هناك مجموعة من البورتريهات المعلّقة على طول الجدار ذي الإضاءة الخافتة. وعند نهاية الممر، لفتت انتباهها لوحةٌ دون الأخريات، غطّت جداراً بأكمله. حدّقت فيها ماريانا. كانت تعرف ذلك الوجه.

طرفت بعينَيها بضع مراتٍ، لتتأكّد من حقيقة ما رأته... ثم اقتربت من اللوحة ببطءٍ، وكأنها في غيبوبة.

حين بلغتها، وقفت أمامها، ووجهها على نفس مستوى الوجه في اللوحة. حدّقت فيه. أجل، إنه هو.

إنه تنيسون.

لكنه لم يكن تنيسون العجوز وقد اشتعل رأسه شَيباً وبلحيةٍ طويلةٍ مَهيبة، كما خلّدته لوحاتٌ أخرى رأتها ماريانا، بل كانت لوحة لألفريد تنيسون وهو في ريعان شبابه، كان فيها صبياً.

على الأرجح أن عمره لم يتجاوز التاسعة والعشرين حين رُسمت تلك اللوحة. وقد بدا حتى أصغر من ذلك. كان هو، لا شك في ذلك.

كان وجهُه من أكثر الوجوه وسامةً التي رأتها ماريانا على الإطلاق. كان له فكٌّ قويٌّ بارزٌ، وشفتان مليئتان، وشعر داكن طويل ينسدل على كتفَيه. لقد ذكّرها شكله بإدوارد فوشكا للحظة، إلا أنها

طردت الفكرة من ذهنها، إذ كان هناك اختلاف أساسي بين الاثنين: كانت عينا فوشكا داكنتين، فيما كانت عينا تنيسون زرقاوين، زرقةً مائيةً فاتحةً.

كان قد مضى على وفاة هالام قرابة السبع سنوات حين رُسمت هذه اللوحة، ما يعني أنه كان أمام تنيسون آنذاك عقدٌ كاملٌ من الزمن قبل إنهاء ديوان في ذكرى أ. هـ. هـ.؛ عشر سنواتٍ طويلةٍ من الحزن والأسى.

ومع ذلك، لم يكن ذلك وجهاً سلبه اليأسُ، بل لم تبدُ عليه أي مشاعرَ ملموسة: لا حزن، ولا أدنى قدر من الميلانخوليا. كان هناك جمودٌ، وجمالٌ باردٌ فحسب.

لماذا كان ذلك؟

وهي تدقّق في الصورة أمامها عن كثب، بدا لماريانا كما لو أن تنيسون كان ينظر إلى شيءٍ ما... شيءٍ على مسافة قريبةٍ.

أجل، قالت في سرّها، لقد بدت عيناه الزّرقاوان الباهتتان كما لو أنهما تحدّقان في شيءٍ محجوب عن الأنظار، شيءٍ يميل إلى أحد الجانبَين، خلف رأس ماريانا.

إلامَ كان ينظر؟

مشت مبتعدةً عن اللوحة، تشعر بخيبة أملٍ... كما لو أن تنيسون قد خذلها على نحوٍ شخصيٍّ. لم تكن تدري ماذا توقّعت أن ترى في عينَيه - شيئاً من المواساة ربما؟ - سلوانَ أو قوة؛ بل كانت حتى الحسرة أفضل من ذلك.

لكن ليس هذا **اللا شيء**.

طردت البورتريه من ذهنها، وهرعت إلى غرفتها.

أمام الباب، كان هناك شيء ينتظرها.

مظروفٌ أسودُ ملقى على الأرض.

التقطته وفتحته. وجدت بداخله ورقة من دفتر ملاحظات مطوية على اثنين. فتحتها وقرأتها.

كانت رسالةً مكتوبةً بحبرٍ أسود وخطّ يدٍ أنيقٍ مائل:

عزيزتي ماريانا،

آمل أن تكوني بخير. هل ترغبين في الانضمام إليّ غداً صباحاً لندردش قليلاً؟ ما رأيك في أن نلتقي في حديقة الأساتذة عند العاشرة؟

تحياتي

إدوارد فوشكا

16

لو أنني وُلِدتُ في اليونان القديمة، لاعتبرني كثيرون نذير شؤم، ولكانت الأبراج تنبأت وقوع كارثة عند ولادتي. كسوف، مذنّبات مشتعلة، نذُر بزوالٍ وشيكٍ...

لكن في الواقع، لم يصاحب يومُ ولادتي أيّاً من ذلك، بل تميّز بغياب تام لأية أحداث، فوالدي – الرجل الذي سيشوّه حياتي ويحوّلني إلى وحش – لم يكن موجوداً حتى. كان يلعب الورق رفقة مزارعين آخرين، يدخّن سيجاراً ويشرب الويسكي في جنح الليل.

إذا حاولتُ جاهداً تخيّلَ والدتي، إذا أغمضتُ عينيَّ، أستطيع رؤيتها، ضبابية وغير واضحة – أمي الجميلة، فتاة لم تتجاوز التاسعة عشرة، في غرفةٍ خاصةٍ بأحد المستشفيات. كان يمكنها سماع أصوات الممرضات يتحدّثن ويضحكن في نهاية الرواق. كانت وحدها، إلا أنها لم تبالِ بذلك، إذ استطاعت وهي وحدها أن تجد نوعاً من السلام والأمان، أن تسرح في أفكارها دون أن تخاف من أن تُهاجَم. أدركت أنها تتطلّع إلى طفلها الرضيع، لأن الرّضّع لا يتكلمون.

تعلم أن زوجها يرغب في ابنٍ، لكنها تدعو في سرّها أن تكون فتاة. لأنه إذا كان ولداً ذكراً، فسيكبر ليصير رجلاً.

والرجال ليسوا أهلاً للثّقة.

ارتاحت حين بدأت الانقباضات من جديد، إنها تلهيها عن التفكير، فهي تفضّل أن تركّز على ما هو مادّي: التنفّس، العدّ، الألم الشّنيع المُبرّح الذي يمسح من ذهنها كلَّ الأفكار مثلما تُمسح الطباشير من على السبّورة. ثم تستسلم له بكلّيتها، تستسلم للعذاب، وتفقد نفسَها فيه...

إلى أن خرجتُ إلى الوجود، مع حلول الفجر.

لم أكن فتاةً، لامتعاض والدتي الشديد. حين سمع والدي بالخبر – بأنه رُزق بولدٍ – غدا جذلانَ طرِباً. فالمزارعون، مثل الملوك، في حاجة إلى عدة أبناء. وقد كنت ابنه الأول.

حضر إلى المستشفى حاملاً قنينة نبيذٍ رخيصٍ استعداداً للاحتفال بولادتي.

لكن، هل كان ذلك احتفالاً؟

أم أنها كانت كارثةً؟

أكان قدري محتوماً ومختوماً منذ تلك اللحظة؟ أكان الأوان قد فات؟ أكان يجب أن يخنقوني فور ولادتي؟ أن يتركوني لأموت وأتعفّن على جانب التل؟

أعلم ما كانت والدتي ستقوله، لو أن باستطاعتها قراءة هذه الكلمات: إنه سعيي إلى الشعور بالذّنب، ومحاولتي لوم نفسي. ما كانت لتُطيق ذلك.

إنها ليست مسؤوليةَ أحدٍ، كانت لتقول. لا تمجّد الأحداث في حياتك وتحاول أن تمنحها معنى ما. فالحياة لا معنى لها. والموت لا معنى له.

لكنها لم تكن تفكر دائماً على هذا النحوِ.

كانت هناك أكثر من نسخة واحدة منها. كان هناك شخص آخر في السابق، يحتفظ بالأزهار مضغوطة بين صفحات الكتب ويسطّر الأبيات الشعرية: ماضٍ سريٌّ وجدتُه مخبّأً في إحدى علب الأحذية في عمق دولاب الملابس. صورٌ قديمةٌ، أزهارٌ مجفّفةٌ، رسائل حب مليئةٌ بالأخطاء

الإملائية كتبها والدي لوالدتي خلال فترة مغازلتهما، لكن سرعان ما توقف والدي عن كتابة الشعر، فتوقفت والدتي عن قراءته.

لقد تزوجتْ رجلاً بالكاد عرفَته، وأخذها بعيداً عن كل مَن عرفتهم. أخذها إلى عالمٍ من التّعب والكَدَر، عالم من الصباحات الباكرة الباردة والعمل المُضني طوال النهار: وزن الحِملان، جزّ أصوافها، تعليفها. مرّةً بعد مرّة بعد مرّة.

كانت هناك لحظاتٌ بديعةٌ ساحرةٌ طبعاً، مثل موسم الوضع حيث بدأت تلك المخلوقات الصغيرة في الظهور مثل فُطر أبيض: كان هذا أجمل ما في الأمر.

لكنها لم تسمح لنفسها أبداً بالتعلّق بالحِملان. فهي تعلّمت ألا تفعل.

كان أسوأُ ما في الأمر الموتَ، موت ثابت ومتواصل، وكل ما يتعلق به من إجراءات: وضع علامات على الحيوانات التي يجب أن تُقتل، تلك التي نقص وزنها أو ازداد أكثر من اللازم، أو تلك التي لم تستطع الحمل. ثم يظهر الجزّار في مِئزره الفظيع الملطّخِ بالدماء ذاكَ، فيطوف والدي في المكان متشوّقاً لتقديم يد المساعدة. كان يستمتع بالذبح، بل بدا أنه يَستلِذّ ذلك.

لطالما هربت والدتي واختبأت بينما حدث كل ذلك، مهرِّبة قنّينة فودكا إلى الحمّام، تحت الدّشّ حيث ظنّت أن بكاءَها لن يُسمع. وكنت أمضي نحو أبعد جزءٍ من المزرعة، أبعد ما استطعت، وأغلق أذنَيَّ، إلا أنني مع ذلك كنت أستطيع سماع الصّراخ.

وعند عودتي إلى المزرعة، كانت نتانةُ الموت منتشرةً في كل مكان. جثثٌ مقطّعة في الحظيرة المفتوحة، الأقرب إلى المطبخ، وبالوعاتٌ حمراءُ قانيةٌ اصطبَغتْ بلون الدّم. كانت هناك رائحة لحم عنيدة، إذ تم وزنه وتوضيبه في المطبخ، وقطع لحم صغيرة متناثرة ملتصقة على الطاولة، وبِرك من الدم متجمّعة على الأسطح، يحيط بها ذباب ضخمٌ ومكتنِز.

أما الأجزاء غير المرغوب فيها - المصارين، الأحشاء، وغيرها - فقد كان والدي يتولى دفنها في حفرة خلف المزرعة.

كانت الحفرة أمراً لطالما تجنبته. كانت ترعبني. كان والدي يهدّد بدفني فيها إن أنا عصَيْتُه أو أسأت التصرف، أو أفشيتُ أسراره.

لن يعثر عليك أحدٌ، كان يقول لي. **لن يعلم بأمرك أحدٌ.**

اعتدت تخيّل أنني أُدفن حيّاً في تلك الحفرة - مُحاطاً بالهياكل المتعفّنة التي تعج فيها اليرقات والدّيدان وباقي الكائنات الرمادية الآكلة للّحوم - وكنت أرتعش خوفاً.

وما زالت حتى يومنا هذا الرّجفة تَغشاني حين أفكر في ذلك.

17

عند الساعة العاشرة صباح اليوم الموالي، ذهبت ماريانا للقاء البروفيسور فوشكا.

وصلت إلى الحديقة حيث ضرب لها الموعد مع انطلاق صوت ساعة الكنيسة معلنةً العاشرة. كان البروفيسور هناك بالفعل، يرتدي قميصاً أبيضَ مفتوح الأزرار حول العنق، وسترة من القطيفة المضلّعة رمادية اللون، وقد أسدل شعره الذي تدلّى على كتفيه.

«صباح الخير! أنا سعيد برؤيتك. لم أكن متأكداً أنكِ ستأتين».

«ها أنا هنا»، ردت ماريانا.

«وفي الوقت المتفّق عليه بالضبط! ماذا يقول ذلك عنك، يا ماريانا؟».

ابتسم لها، لكن ماريانا لم تبادله الابتسامة. كانت عازمةً على أن تمنحه أقلَّ قدرٍ ممكنٍ من المعلومات.

فتح فوشكا البوّابة الخشبية وأشار بيده إلى الحديقة.

«هلا دخلنا؟».

تبِعته إلى الداخل. كانت الحديقة مخصَّصة فقط للأساتذة

وضيوفهم؛ لم يكن يُسمح للطلبة بالدخول، فلا تذكر ماريانا أنها دخلتها من قبل.

وما إن دخلت حتى فاجأها الهدوء والجمال الأخّاذ للمكان. كانت حديقةً منخفضةً من حقبة تيودور، يحيط بها جدارٌ قرميديٌّ غير مُستوٍ. نمت بين القرميد أزهار ناردين حمراءُ قانيةٌ بلون الدم، تتخلّل التشقّقات وتحتلّها شيئاً فشيئاً، كما نمت على حدودها نباتات مختلفة الألوان، وردية وزرقاء وحمراء ملتهبة. مكتبة سُر مَن قرأ

«يا له من مكان بديع!»، علّقت ماريانا.

أومأ فوشكا برأسه. «أوه، فعلاً. إنني آتي إلى هنا كثيراً».

مشيا على طول الطريق حيث ظلّ فوشكا يثني على جمال الحديقة وجمال كامبريدج عموماً. «إن هناك نوعاً من السحر هنا. أنت تشعرين به أيضاً، أليس كذلك؟». نظر إليها، ثم واصل كلامه: «أنا متأكد من أنك شعرتِ به منذ البداية، مثلما فعلتُ. أستطيع تخيّلك وأنت طالبة حديثة العهد، قد وصلت لتوك، جديدة في هذه البلاد - كما كنتُ أيضاً - وجديدة في هذه الحياة. طيّبة السريرةِ ووحيدة. . . هل أنا محق؟».

«أتتكلّم عني أم عن نفسك؟».

ابتسم فوشكا. «أعتقد أننا مررنا كلانا بتجاربَ متشابهةٍ».

«أشك في ذلك».

أمعن فيها فوشكا النظر للحظة، كما لو أنه كان على وشك أن يقول شيئاً لكنه قرّر عكس ذلك. مشيا في صمت.

«أنت هادئة جداً. ليس هذا ما كنتُ أتوقعه إطلاقاً».

«وماذا كنتَ تتوقع؟».

هزّ فوشكا كتفيه. «لا أدري. تحقيقاً، ربما».

«تحقيقاً؟».

«لنقل استجواباً». عرض عليها سيجارةً.

هزّت رأسها. «أنا لا أدخّن».

«لم يعد أحد يفعل هذه الأيام، عدايَ أنا. لقد حاولت الإقلاع عن التدخين، لكني لم أنجح. لا قدرة لديّ على التحكّم في اندفاعاتي».

وضع سيجارة بين شفتيه، سيجارة أمريكية مع فلتر أبيض في طرفها. أخرج عود ثقابٍ، أشعل السيجارة، ونفث خطّاً طويلاً من الدخان. راقبت ماريانا الدخان وهو يتراقص في الهواء قبل أن يتبدّد.

«لقد طلبتُ منكِ أن تقابليني هنا لأنني شعرت بأنه يجب علينا أن نتحدث. سمعتُ أنك مهتمة بأمري، تسألين طلبتي شتّى أنواع الأسئلة... وبالمناسبة، لقد تحدّثتُ إلى العميد، وهو لم يطلب منكِ التحدث إلى أيٍّ من الطلبة، بحسب علمه، سواءٌ على نحوٍ رسميٍّ أو غير ذلك. لذا فالسؤال هنا، يا ماريانا، هو: إلامَ ترمينَ بحق الجحيم؟».

نظرتْ إليه ماريانا، ورأته وهو يحدّق فيها، محاولاً قراءة أفكارها بعينيه الثاقبتين. تهربت من نظرته وهزّت كتفيها. «إن الأمرَ يثير فضولي، هذا كل ما في الأمر...».

«أَمري أنا بالذات؟».

«بل أمر البُتُل».

«البُتُل؟». بدا فوشكا متفاجئاً. «وما السبب في ذلك؟».

«يبدو الأمر غريباً: أن تكون لديك مجموعة مميزة من الطالبات، فلا شك أن هذا يعزّز الحقدَ والعداواتِ لدى الآخرين؟».

ابتسم فوشكا وأخذ نفساً من سيجارته. «أنت معالِجة نفسية متخصصة في العلاج الجماعي، أليس كذلك؟ لذا، من بين كل الناس، يجب أن تعرفي أن المجموعات الصغيرة توفّر الجوَّ المثالي لنمو العقول الاستثنائية... وهذا كل ما أفعله: أُهيئ المناخ المناسب».

«نوع من الشرنقة... للعقول الاستثنائية؟».

«تماماً».

«عقول نسائية».

طرف فوشكا بعينه ورمقها بنظرة جليدية. «أذكى العقول غالباً ما تكون نسائية... هل يَصعب عليكِ تقبّل ذلك؟ ليس هناك من شيء مريب يحصل. أنا أستاذ وديع، كريم في السماح بالكحوليات، هذا كل ما في الأمر. فإذا كان هناك أحدٌ يُساء إليه هنا، فهو أنا».

«ومن تحدث عن الإساءة؟».

«لا تتظاهري بالبراءة، يا ماريانا! أعلم أنك صنفتِني بالشرير، بمفترس يتربّص بالطالبات المستضعفات. إلا أنكِ التقيتِ بتلك الآنسات، ورأيت أنهن أبعد ما يكون عن الضعف. فلا يحدث في تلك الاجتماعات أي شيء غير لائق. إنها مجرد مجموعة دراسةٍ صغيرةٍ، تناقش الشِّعر، وتستمتع بالنبيذ وبالمناظرات الفكرية».

«إلا أن إحدى تلك الفتيات ميتة الآن».

قطّب البروفيسور فوشكا حاجبيه، والتمع في عينيه وميضُ غضبٍ لا تُخطئه العين. حدّق فيها.

«أتظنين أنك تستطيعين قراءة روحي؟».

أشاحت ماريانا بنظرها، وقد أحرجها السؤال. «لا، بالطبع لا. أنا لم أقصد أن...».

«لا عليك. انسَي الأمر». أخذ نفَساً آخر من سيجارته، وبدا وكأن كل غضبه قد تلاشى. «كما تعلمين، إن كلمة معالج نفسي (Psychotherapist) مشتقة من الكلمتين اليونانيّتين: Psyche وتعني الروح وTherapeia وتعني العلاج. هل أنت معالِجة أرواح؟ هلّا عالجتِ روحي؟».

«لا»، ردت ماريانا، «أنت وحدكَ من يستطيع فعل ذلك».

ألقى فوشكا بسيجارته على الممشى ودفنها في التراب بحذائه.

«أنت مصمّمة على عدم تقبّلي. لا أعرف السبب».

أدركت ماريانا بانزعاج أنها لم تكن تعرف السبب أيضاً. «هلّا عُدنا أدراجنا؟».

شرعا يعودان أدراجهما نحو البوّابة وهو يسترق النظر إليها.

«أنتِ تثيرين فضولي. أجد نفسي أتساءل فيما تفكرين».

«أنا لا أفكر. أنا... أستمع».

وقد كانت كذلك فِعلاً. قد لا تكون ماريانا محقِّقةً، إلا أنها معالجة نفسية، فكانت تعلم كيف تستمع. تستمع ليس فقط إلى ما يُقال، بل لكل ما **لا يُقال** أيضاً؛ كل الكلمات غير الملفوظة - الأكاذيب، التهرّبات، الإسقاطات، الانتقالات، وظواهر سيكولوجية أخرى تحدث بين شخصين وتتطلب نوعاً خاصاً من الاستماع. توجب على ماريانا الاستماع إلى **المشاعر** التي أوصلها لها فوشكا دون وعي منه. ففي سياق العلاج النفسي، يُطلق على هذه المشاعر مصطلح Transference وهي تمكّنها من معرفة كل ما تريد معرفته عن هذا الرجل - من يكون وماذا يُخفي - شرط أن تستطيع أن تنأى بمشاعرها، وهو أمرٌ لم يكن بالهيّن. حاولت أن تستمع إلى جسدها وهما يمشيان جنباً إلى جنب، وشعرت بتوترٍ متزايدٍ: عضلاتُ فكّها

منقبضةٌ، وأضراسها مُصطكّةٌ، كما شعرت بحرقة في بطنها، ووخزٍ على جلدها، وهو ما ربطته بالغضب.

لكن غضب من؟ غضبها هي؟

لا، بل غضبهُ هو.

غضبه. أجل، كانت تستطيع الشعور به. كان صامتاً الآن وهما يمشيان، لكن تحت غطاء الصمت ذاك، كان هناك حنقٌ محتدمٌ. كان ينكره طبعاً، إلا أن الشعور كان هناك، يغلي تحت السطّح: كانت ماريانا قد أغضبته لسببٍ ما خلال هذا اللقاء. لم يكن من السهل عليه تنبؤ سلوكها أو قراءة أفكارها، وهو ما أثار غضبه. فكرت في سرها فجأة: **إذا كان بإمكانه أن يغضب إلى هذا الحد وبهذه السرعة، فماذا قد يحدث إذا قام أحدٌ باستفزازه حقاً؟**

لم تكن متأكدة من رغبتها في معرفة الجواب.

ثم، عند بلوغهما البوابة، توقف فوشكا، ونظر إليها، محاولاً تقييم شيءٍ ما. ثم أخذ قراره:

«أتساءل عمّا إذا كنت تودين إكمال هذه المحادثة... على مائدة عشاءٍ؟ ما رأيك في غداً مساءً؟».

حدّق فيها منتظراً ردّها، فبادلته ماريانا النظرات، دون أن يطرف لها جفن.

«حسنٌ»، قالت.

ابتسم فوشكا. «جيد... في إقامتي الجامعيّة، عند الساعة الثامنة؟ وهناك شيءٌ آخر...».

وقبل أن تتمكن من إيقافه، انحنى نحوها...

وطبع قبلة على شفتيها.

دام الأمر ثانيةً واحدةً، وما إن استطاعت ماريانا أن تقوم بردّة فعل حتى كان قد تراجع.

استدار فوشكا ومضى عبر البوّابة المفتوحة، وسمعت ماريانا تصفيره الجَذل وهو يمضي مبتعداً.

مسحت قبلته عن شفتيها بظهر يدها.

كيف تجرّأ على ذلك؟

شعرت كما لو أنها تعرضت لاعتداءٍ - لهجومٍ - وأنه فاز بطريقةٍ ما، نجح في إرباك توازنها وإرهابها.

وهي واقفة هناك، تشعر بالحرارة والبرد في آنٍ واحد تحت شمس الصباح وتستشيط غضباً، أدركت شيئاً على وجه اليقين.

هذه المرة، لم يكن الغضب الذي تشعر به غضبَه.

بل كان غضبَها هي.

هي وحدها.

18

بعد انتهاء لقائها مع فوشكا، أخرجت ماريانا حصيرة البيرة الكرتونية التي أعطاها إياها فْريد. اتصلت بالرقم، وسألته عما إذا كان متاحاً للقاء.

بعد عشرين دقيقة، التقت به عند البوابة الرئيسية لسانت كريستوفر، وراقبته وهو يربط درّاجته بالسيّاج الحديدي. أدخل يده في حقيبته وأخرج تفّاحتين حمراوين.

«أسمّي هذا فطوراً. أتريدين واحدة؟».

عرض عليها تفاحةً. كانت على وشك أن ترفضها تلقائياً، قبل أن تدرك أنها تتضور جوعاً. أومأت برأسها.

بدا فريد راضياً. اختار أفضل التفاحتين، مسحها بكمّه، ثم قدّمها إلى ماريانا التي أخذتها منه وقضمتها. كان مذاقها حلواً ومنعشاً.

«شكراً».

ابتسم لها، وراح يكلّمها وهو يمضغ تفاحته.

«لقد أسعدني اتصالك. الليلة الماضية... غادرتِ بشكل فجائي بعض الشيء... ظننت أنني أزعجتكِ، أو شيئاً من هذا القبيل».

هزّت ماريانا كتفيها. «الأمر لا يتعلق بك... بل بـ... ناكسوس».

«ناكسوس؟». حدّق فيها فْريد في حيرةٍ.

«إنه... المكان الذي توفّي فيه زوجي. لقد... غرق هناك».

«أوه، يا إلهي!». جحظت عيناه. «يا إلهي! أنا آسفٌ للغاية...».

«ألم تكن تعلم؟».

«وكيف لي أن أعلم؟ بالطبع لا».

«كانت مصادفة فحسب؟»، قالت وهي تدقّق النظر في وجهه.

«في الواقع... لقد سبق أن أخبرتك. لديّ بعض القدرات التنبؤية... قد أكون شعرت بشيء ما فخطرت على بالي ناكسوس».

عبست ماريانا. «آسفة، لكنني لا أصدق ذلك».

«إنها الحقيقة».

خيّم صمتٌ مطبق للحظة، ثم واصل فريد كلامه بسرعة: «اسمعي، أنا آسف إذا كنت قد جرحت مشاعرك...».

«كلّا، أنت لم تفعل. لا يهم. انسَ الأمر».

«ألهذا اتصلتِ بي؟ لتقولي لي ذلك؟».

هزّت ماريانا رأسها. «كلّا».

لم تكن متأكدةً من السبب الذي دعاها إلى الاتصال به. ربما كانت غلطةً. لقد قالت لنفسها إنها بحاجة إلى مساعدة فريد، لكن في الحقيقة كان هذا مجرد عذر: ربما كانت وحيدة، أو متوترة من لقائها مع فوشكا فحسب. انزعجت من نفسها لقيامها بذلك، لكن كان الأوان قد فات؛ وها قد صار هنا الآن، وقد تستفيد من حضوره بشيء.

«هيا بنا»، قالت، «أريد أن أريكَ شيئاً».

مَضَيا إلى داخل الكلية، وعبرا الساحة الرئيسية ثم الباب المقوّس وصولاً إلى ساحة إيروس.

عند دخولهما الساحة، ألقت ماريانا نظرة صوبَ غرفة زوي. لم تكن هناك: كانت لديها حصة مع كلاريسا. لم تخبرها ماريانا عن فريد عمداً، لأنها لم تكن تعلم كيف تشرح لها - أو لنفسها حتى - علاقتها به.

حين اقتربا من السلالم المؤدية إلى غرفة تارا، أومأت ماريانا برأسها باتجاه نافذةٍ في الطابق الأرضي. «هذه هي غرفة تارا. ليلةَ وفاتها، رأتها عاملة التنظيف وهي تغادر هذه الغرفة عند الساعة الثامنة إلا الربع بالضبط».

أشار فريد إلى البوابة الخلفية لساحة إيروس التي تؤدي إلى ذي باكس. «وخرجتْ من هنا؟».

«كلّا». هزّت ماريانا رأسها وأشارت إلى الاتجاه المعاكس، صوب الباب المقوّس. «لقد مضت عبر الساحة الرئيسية».

«اممم، هذا غريب... إن البوّابةَ الخلفية تؤدي إلى النهر، وهي أسرع طريق إلى مرج بارادايز».

«ما يشير إلى... أنها كانت ذاهبة إلى مكانٍ آخر».

«للقاء كونراد، كما قال؟».

«ممكن». فكّرت ماريانا للحظة. «هناك شيءٌ آخر. لقد رأى موريس - البوّاب - تارا تغادر من البوابة الرئيسية عند الساعة الثامنة. فإذا كانت قد غادرت غرفتها عند الثامنة إلا ربع...».

تركت سؤالها معلقاً، فواصل فريد من هناك.

«لماذا استغرق منها الأمر خمس عشرة دقيقةً لقطع مسافة لا

تتطلب سوى دقيقة أو دقيقتين على أكثر تقدير؟ في الواقع. . . قد يكون السبب أي شيء. قد تكون قد تبادلت الرسائل النصيّةَ مع أحدهم، أو أنها التقت صديقاً أو صديقةً، أو. . . ».

وهو يتكلم، نظرت ماريانا إلى حوض الزهور أسفل نافذة تارا: مزيج من أزهار قفاز الثعلب الأرجوانيّةِ والورديّةِ.

وهناك، على الأرض، كان عَقِب سيجارة. انحنت والتقطته. تعرّفت على الفِلتر الأبيض الذي يسهل تمييزه.

«إنها علامةٌ تجاريةٌ أمريكية»، علّق فريد.

أومأت ماريانا برأسها، «أجل. . . مثل تلك التي يدخّنها البروفيسور فوشكا».

«فوشكا؟». تكلّم فريد بصوت خافت. «أعلم بشأنه. لديّ أصدقاءُ في هذه الكلية. لقد بلغَتني القصص».

نظرت إليه ماريانا. «أية قصص؟ ما الذي تتحدث عنه؟».

«إن كامبريدج أشبهُ بقريةٍ صغيرةٍ. والجميع يتكلّمون».

«وماذا يقولون؟».

«أن فوشكا يحظى بسمعة، أو أنه بالأحرى سيّئُ السّمعةِ. . . أو أن حفلاته كذلك على أية حال».

«أية حفلات؟ ما الذي تعرفه؟».

هزّ فريد كتفيه. «ليس الكثير. إنها حفلاتٌ خاصة بطلبته فحسب. لكنني سمعت أنها. . . صاخبةٌ». حدّق فيها مليّاً، محاولاً قراءة تعابير وجهها. «أتظنين أن له يداً في الأمر؟ في مقتل تارا؟».

ترددت ماريانا، ثم استسلمت. «اسمع. . . سأخبرك بكل شيء».

مشيا حول محيط الساحة، وأخبرته باتهامات زوي لفوشكا،

وعن نفيه عَقِب ذلك، وحجّة غيابه التي تم التحقُّق منها؛ وكيف أنها، رغم كل ذلك، لا تزال ماريانا غير قادرةٍ على الرضوخ للأمر. توقعت أن يضحك فريد أو يَهزأ منها، أو ألا يصدّقها على الأقل، لكنه لم يفعل، فشعرت بالامتنان حيال ذلك، كما شعرت بنوع من الدفء تجاهه. ولأول مرة، شعرت بأنها أقل وحدةً.

«ما لم تكن فيرونيكا وسيرينا والأخريات يكذبن...»، قالت ماريانا، «فإن فوشكا كان معهن طوال الوقت؛ باستثناء دقيقةٍ أو دقيقتين، حين خرج ليدخّن سيجارة...».

«وهو وقت كافٍ»، علّق فريد، «إذا كان قد رأى تارا من النافذة، للنزول ولقائها هنا في الساحة».

«والاتفاق على لقائها في مرج بارادايز عند الساعة العاشرة؟».

«هذا صحيح. لمَ لا؟».

هزت ماريانا كتفيها. «ومع ذلك، لا يمكن أن يكون هو من فعلها. إذا كانت تارا قد قُتلت عند الساعة العاشرة، فلم يكن بإمكانه الوصول إلى هناك في الوقت. يستغرق الأمر عشرينَ دقيقةً مشياً على الأقل، وأكثر من ذلك على الأرجح إذا استعمل السيارة...».

فكر فريد لوهلة. «إلا إذا عبر الماء».

حدّقت فيه ماريانا بوجه خالٍ من التعابير. «ماذا؟».

«ربما استعمل قارباً».

«قارب؟!». كادت تضحك؛ بدت الفكرة سخيفةً.

«لمَ لا؟ لا أحد يراقب النهر - لا أحد سينتبه إلى مرور قاربٍ - خاصةً في الليل. يمكنه الوصول والمغادرة بشكل خفيّ عن الأنظار... في دقائق معدوداتٍ».

فكّرت ماريانا في الأمر مليّاً، «قد تكون محقاً».

«هل يمكنك ركوب قارب؟».

«لا أجيد ذلك».

«أنا أجيده». علت وجهَه ابتسامةٌ عريضةٌ. «بل إني بارعٌ في ذلك، إذا جاز لي مدح نفسي! ما رأيك في ذلك؟».

«في ماذا؟».

«أن نذهب إلى المرفأ، ونستعير قارباً، ونجرّب الأمر؟ لمَ لا؟».

وقبل أن تتمكن ماريانا من الرد، رنّ هاتفها. كانت زوي هي المتصّلة، فأجابت في الحين.

«زوي؟ هل أنت بخير؟».

«أين أنتِ؟». كان في نبرة زوي قلقٌ ملموسٌ وانطباع عاجل، ما أنبأ ماريانا بأن هناك خطباً ما.

«أنا في الكلية. أين أنتِ؟».

«أنا مع كلاريسا. لقد كانت الشرطة هنا للتو...».

«لماذا؟ ما الذي حدث؟».

خيّم صمتٌ على الخط. شعرت ماريانا بمحاولات زوي كبح نفسها عن البكاء.

«لقد حدث الأمر مجدداً»، همست زوي.

«ماذا... تقصدين؟».

عرفت ماريانا قصد زوي، لكنها كانت في حاجة إلى سماع الكلمات على أية حال.

«عملية طعنٍ أخرى»، قالت زوي. «لقد عثروا على جثةٍ أخرى».

الجزء الثالث

ومن ثم، يجب أن يكون للحبكة المثالية موضوع واحد، وليس - كما يقول لنا البعض - موضوعٌ مزدوجٌ، والتغيير في أقدار البطل يجب ألّا يكون من البؤس إلى السّعادة، بل بالعكس من السّعادة إلى البؤس، كما يجب ألّا يكمُنَ سبَبُ ذلكَ في أي سفالة، وإنما في خطأٍ جسيمٍ يقترفه البطل.

ـــ أرسطو، **فن الشِّعر**

1

تمّ العثور على الجثة في أحد الحقول على حافة مرج بارادايز. كانت تلك أراضيَ مشتركةً، للمزارعين حقُّ رعي ماشيتهم فيها، وهو حقٌّ يعود إلى القرون الوسطى. وكان أحد المزارعين هو من قام بهذا الاكتشاف المُريع حين أخرج قطيع أبقاره للرّعي في ذلك الصباح.

كانت ماريانا متلهفة للوصول إلى المكان في أسرع وقتٍ. ورغم احتجاجات زوي الغاضبة، فقد رفضت السماح لها بمرافقتها، إذ كانت عازمةً على تجنيب زوي أكبر قدر ممكن من الشناعة، ومن المؤكّد أن ذلك المشهد سيكون شنيعاً.

انطلقت بصحبة فريد عوض ذلك، الذي استخدم الخريطة على هاتفه ليوجّه خطاهما إلى الحقل.

وهما يمشيان بمحاذاة النهر ويتجاوزان الكليات والمروج، ملأت ماريانا رئتيها برائحة العشب والأرض والأشجار، فعادت بها الذاكرة إلى ذاك الخريف الأول، قبل كل تلك السنوات، حين وصلت إلى إنجلترا وقايضت طقس اليونان الدافئ بالسماء المكفهرّة والعشب الرطب لشرق أنجليا.

منذ ذلك الحين، لم تفقد الأرياف الإنجليزية إثارتها عند

ماريانا. . . إلى هذا اليوم. فهي لم تشعر اليوم بأية إثارةٍ، بل بشعورٍ مقيتٍ بالفزع. هذه الحقول والمروج التي أحبّتها، هذه المسارات التي مشت فيها مع سيباستيان، تلطّخت إلى الأبد. لم تعد مرادفاً للحب والسعادة، بل من الآن فصاعداً، ستعني لها الدم والموت فقط.

مضيا في صمتٍ، وبعد نحو عشرين دقيقة، أشار فريد إلى الأمام. «ها هو ذا هناك».

كان أمامها حقل شاسع، اصطفت عند مدخله العربات - سيارات شرطة، شاحنات القنوات الإخبارية - واحدة خلف الأخرى على الطريق الترابي. تجاوزت وفريد صفَّ السيارات إلى أن وصلا إلى شريط الشرطة حيث أبقى بضعة ضبّاط الصحافة بعيداً، كما كان هناك أيضاً حشد صغير من المتفرّجين.

حدّقت ماريانا في حشد المتفرّجين، وتذكرت فجأة الحشد الشنيع الذي تجمّع على الشاطئ ليتفرج على جثة سيباستيان وهي تُسحَب من الماء. تذكّرت تلك الوجوه التي علتها تعابير قلق تخفي إثارة شهوانيّة. يا إلهي، كم كرهتهم. والآن، وهي ترى التعابير نفسها، شعرت بالغثيان.

التفتت إلى فريد. «هيا بنا، لنذهب».

لكن فريد لم يتحرك. بدا متردداً. «إلى أين نحن ذاهبان؟».

أشارت ماريانا إلى الأمام، إلى ما وراء شريط الشرطة. «في هذا الاتجاه».

«لكن كيف سندخل؟ سيَرَوْننا».

نظرت ماريانا من حولها. «ما رأيك في أن تذهب إلى هناك وتشتّت انتباههم. . . لتمنحني فرصة لأنسلّ؟».

«حسنٌ. أستطيع القيام بذلك».

«ألا تمانع عدم الذهاب معي؟».

هزّ فريد رأسه دون أن ينظر إليها. «صراحةً، أنا شديد الحساسية تجاه ما يتعلق بالدم، والجثث وما شابه. أفضّل أن أبقى هنا».

«حسنٌ إذاً. لن أغيب طويلاً».

«حظاً طيّباً!».

«وأنتَ أيضاً»، ردت ماريانا.

أخذ لحظة لاستجماع شجاعته ورباطة جأشه، ثم تقدم نحو ضباط الشرطة. شرع في التحدث إليهم وطرح بعض الأسئلة، فاستغلت ماريانا الفرصة.

توجهت نحو الشريط، رفعته، وانسلّت من تحته إلى الجهة الأخرى.

ثم استقامت وواصلت مشيها، لكنها لم تخطُ سوى بضع خطوات حتى سمعت صوتاً.

«أنتِ هناك! ماذا تفعلين؟».

التفتت ماريانا. كان هناك ضابط شرطة يهرول قادماً نحوها.

«توقفي مكانك! من أنتِ؟».

وقبل أن تستطيع ماريانا الرد، قاطعهما جوليان. خرج من خيمة الشرطة الجنائية ولوّح للشرطي قائلاً: «لا عليك. إنها معي. إنها زميلتي».

رمق الشرطي ماريانا بنظرة مريبة، لكنه تنحّى جانباً وسمح لها بالمرور. راقبته وهو يغادر، ثم التفتت إلى جوليان. «شكراً لك».

ابتسم جوليان. «من الصعب تثبيط عزيمتك، هاه؟ يروقني ذلك. فلنأمل ألا نصادف المفتّش». غمز إليها. «أتريدين إلقاء نظرة؟ إن الطبيبَ الشرعي صديقٌ قديمٌ لي».

توجها إلى الخيمة. كان الطبيب واقفاً أمامها، ينقر على هاتفه. كان رجلاً أربعينيّاً طويلاً، أصلعَ، وله عينان زرقاوان ثاقبتان.

«كوبا»، ناداه جوليان، «لقد أحضرت زميلةً، إذا كنت لا تمانع».

«أهلاً وسهلاً». نظر كوبا إلى ماريانا وهو يتكلم بلكنة بولندية. «أحذّرك: إنه ليس مشهداً يسَرُّ الناظرين. فهو أسوأ من المرة السابقة!».

أشار إلى عمق الخيمة بيده التي يغطيها قفّاز من البلاستيك. أخذت نفساً عميقاً ثم تقدّمت.

وهناك، كانت راقدةً.

كان هذا أبشع مشهد رأته ماريانا في حياتها، مريع لدرجة أنه لم يبدُ حقيقياً.

كان جسد امرأةٍ شابةٍ - أو ما تبقى منه - مرمياً على العشب. كان الجذع مشروطاً بحيث لا يمكن التعرف إليه، وكل ما تبقى منه هو مزيج من الدم والأحشاء، من الطين والتراب. أما الرأس فكان سليماً تماماً، وكانت العينان مفتوحتين، تَريان ولا تَريان، وكان في تلك النظرة طريقٌ يؤدي إلى النّسيان.

ظلّت ماريانا تحدّق في تلك العينين، عاجزةً عن الإشاحة بنظرها، مذهولة بنظرة الميدوسا هذه، بالعينين اللتين لهما القدرة على بثّ الرعب في النفس حتى بعد الوفاة. . .

تبادر إلى ذهنها سطر من مسرحية دوقة مالفي.

«غطِّ وجهها، عيناي زائغتان - لقد ماتت شابّة».

لقد ماتت شابّة فعلاً، صغيرةً جدّاً. لم تتجاوز العشرين. كان عيد ميلادها الأسبوع المقبل... وكانت في صدد تنظيم حفلة.

عرفت ماريانا ذلك لأنها تعرّفت إليها على الفور.

إنها فيرونيكا.

2

سارت ماريانا مبتعدة عن الجثة.

راودها شعور بالمغص والغثيان. كانت بحاجة أن تضع مسافة بينها وبين ما رأت. أرادت الذهاب بعيداً، لكنها كانت تعلم أنْ ليس هناك من مفرّ؛ كان ذلك المشهد سيطاردها مدى الحياة؛ الدم، الرأس، تانك العينان المحدقتان. . .

توقّفي، قالت في سرّها. **توقّفي عن التفكير.**

واصلت المشي حتى بلغت سياجاً خشبياً متداعياً، يشكّل حاجزاً بين هذا الحقل والحقل المجاور. بدا متقلقلاً وآيلاً للسقوط، لكنها اتكأت عليه: سندٌ واهٍ لكنه أفضل من لا شيء.

«هل أنت بخير؟».

ظهر جوليان بجوارها، ورمقها بنظرة مِلؤها القلق.

أومأت ماريانا برأسها. أدركت أن عينيها مغرَورقتَان بالدموع، فمسحتهما، خجلى من نفسها.

«أنا بخير».

«حين ترين عدداً كبيراً من مسارح الجرائم كما فعلتُ، تعتادين على ذلك. لكنني أُقرّ أنك جَسورةٌ».

هزّت ماريانا رأسها مخالفةً إيّاه الرّأيَ. «لا، لستُ كذلكَ البتةَ!».

«وكنتِ محقةً بشأن كونراد إليس. لقد كان معتقلاً وقتَ حدوث الجريمة، فهذا يُخرجه من دائرة الشبهات...». ألقى نظرةً إلى كوبا وهو يقترب منهما. «إلا إذا كنتَ تظن أنهما لم تُقتلا من قِبل الشخص نفسه».

هزّ كوبا رأسه وأخرج سيجارة إلكترونية من جيبه. «لا، إنه الشخص نفسه. والأسلوب نفسه. لقد حسبتُ الطعنات: اثنتان وعشرون طعنة». أخذ نفساً من سيجارته ونفث سحابة دخان كثيفةً.

حدّقت فيه ماريانا. «كان هناك شيء في يدها. ماذا كان؟».

«آه، لقد لاحظتِ ذلك؟ إنه كُوزُ صَنَوبر».

«هذا ما ظننت. يا للغرابة».

نظر إليها جوليان. «وما يدعوك لقول ذلك؟».

هزّت ماريانا كتفيها. «لا توجد أشجار صنوبر على مقربةٍ من المكان، هذا كل شيء». فكّرت للحظة. «أتساءل عما إذا كان هناك جردٌ بكل ما وُجد مع جثة تارا».

«غريبٌ أن تقولي ذلك»، علّق كوبا. «فقد خطرت لي نفس الفكرة، وتأكدتُ من الأمر، وقد عُثر على كوز صنوبرٍ مع جثة تارا أيضاً».

«كوزُ صنوبر؟»، قال جوليان. «هذا مثيرٌ للاهتمام. لا بد أن هذا يعني له شيئاً... لكن ماذا بالضبط؟».

وهو يقول ذلك، تذكرت ماريانا فجأة إحدى الصور التي عرضها البروفيسور فوشكا خلال محاضرته عن إيلوسيس: نحتٌ بارزٌ من الرخام لكوز صنوبرٍ.

نعم، قالت في سرّها. إنه يعني شيئاً بالفعل.

نظر جوليان من حوله، محبَطاً، ثم هزّ رأسه. «كيف يفعل ذلك؟ يقتلهنّ هكذا في الهواء الطلق، ثم يختفي، مغطّى بالدماء ودون أن يترك خلفه أي شهود، ولا سلاح جريمة، ولا أيّ دليلٍ ملحوظ... لا شيء على الإطلاق».

«لمحةٌ على الجحيم فحسب»، علّق كوبا. «لكنكَ مخطئ بشأن الدماء. لم يكن بالضرورة مغطّى بالدماء، فقد تمت الطعنات بعد عملية القتل».

«ماذا؟». حدّقت فيه ماريانا غير مصدّقة. «ماذا تقصد؟».

«تماماً كما قلت. إنه يذبحهنّ أولاً».

«هل أنت متأكد؟».

«أوه، أجل». أومأ كوبا برأسه. «في كلتا الحالتين، كان سبب الوفاة قطعٌ عميقٌ للأنسجة وصولاً إلى عظم العنق، فلا بد أن الموت كان فورياً. وبالنظر إلى عمق الجرح... أعتقد أنه هاجمهما من الخلف. هلّا سمحتما لي؟».

وقف خلف جوليان، ثم عرض بأناقةٍ طريقة وقوع الجريمة، مستعملاً سيجارته الإلكترونية كسكينٍ، وجفَلت ماريانا حين تظاهر بأنه يذبح جوليان.

«أترين؟ الرذاذ الشريانيّ يخرج من الأمام. وبعد وضع الجثة على الأرض، وخلال طعنها، فإن الدم يقطر إلى الأسفل، إلى الأرض. لذا من المحتمل ألا تُلطَّخ ثيابه بالدم إطلاقاً».

هزّت ماريانا رأسها رافضةً الفكرة. «لكن... هذا ليس منطقيّاً».

«لمَ لا؟».

«لأن هذا ليس... نوبة هيجان. ليس فقداناً للسيطرة، ليس غيظاً...».

هزّ كوبا رأسه. «كلا. بل العكسُ تماماً. إنه هادئ جداً، مسيطِراً، متحكماً بنفسه... كما لو أنه يؤدّي رقصةً ما. مضبوطة تماماً. إنها... rytualistyczny». حاول أن يجد الكلمة بالإنجليزية. «طقسيّة...؟ أهي الكلمة الصحيحة؟».

«طقسيّة؟».

حدّقت فيه ماريانا، فيما كانت مجموعة من الصور تجتاح ذهنها: إدوارد فوشكا على الخشبة، يلقي محاضرة عن الطقوس الدينية؛ البطاقة البريدية في غرفة تارا، مع عرّاف إغريقيٍّ قديمٍ يطالب بتضحية؛ وأيضاً - في ركنٍ قصيٍّ من ذهنها - ذكرى لا تُمحى لسماءٍ زرقاءَ صافيةٍ، وشمس حارقة، وأثار معبدٍ مخصص لإلهةٍ انتقامية.

كان هناك شيء... شيء يجب أن تفكّر فيه. لكن، قبل أن تتمكن من مواصلة الحديث مع كوبا، صدر صوت من خلفها.

«ما الذي يحدث هنا؟».

التفتوا ثلاثتهم. كان المفتش العام سانغا واقفاً هناك، ولا يبدو مسروراً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

3

«ماذا تفعل هي هنا؟»، قال سانغا، عابساً.

تقدّم جوليان. «إن ماريانا هنا بصحبتي. فكّرت أنه قد تكون لديها بعض التفسيرات؛ وقد كانت مساهمتها مفيدة جداً».

أدار سانغا غطاء كظيمته، ثم وضعها بحذرٍ شديدٍ فوق أحد أعمدة السيّاج الخشبيّ، وصبّ لنفسه كوب شاي. **يبدو متعَباً**، فكرت ماريانا في سرّها، وما كانت لتحسده على وظيفته هذه. كان حجمُ تحقيقه قد تضاعف للتو، ثم إنه فقد المشتبه به الوحيد في القضية. تردّدت في جعل الأمور أسوأ، لكن لم يكن أمامها خيار آخر.

«سيدي المفتّش العام»، خاطبته قائلة، «هل تعلم أن الضحية هي فيرونيكا دريك؟ لقد كانت طالبة في كلية سانت كريستوفر».

رمقها المفتّش بنظرةٍ فزعة. «هل أنت متأكدة؟».

أومأت ماريانا برأسها. «وهل تعلم أيضاً أن البروفيسور فوشكا كان يدرّس الضحيتَين؟ كانت كلاهما ضمن مجموعته الخاصة».

«أيةُ مجموعةٍ خاصةٍ؟».

«أعتقد حقّاً أن عليك أن تسأله عن ذلك».

أفرغ المفتّش سانغا كأسه قبل أن يجيب. «حسنٌ، ألديك أية نصائح أخرى، يا ماريانا؟».

لم ترق لماريانا نبرتُه اللّاذعة، لكنها ابتسمت بأدبٍ. «هذا كل شيء في الوقت الراهن».

أفرغ سانغا ثُمالة الكأس على الأرض، نفض الغطاء، ثم وضعه على الكظيمة ليغلقها.

«لقد طلبتُ منك مرةً ألا تتطفّلي على تحقيقي. لذا، دعيني أصوغ الأمر كالآتي: إذا أمسكتكِ مقتحِمةً مسرح جريمةٍ آخر، فسألقي عليك القبض بنفسي. مفهوم؟».

فتحت ماريانا فمها لتجيب، لكن جوليان سبقها.

«نحن آسفان. هذا لن يتكرر. هيا بنا، يا ماريانا».

ثم قاد ماريانا بعيداً عودة إلى شريط الشرطة، قائلاً:

«أخشى أن يكون سانغا قد استاء منك. فلو كنت مكانك، لبقيت بعيداً عن طريقه، فعضّته أسوأ من نباحه بكثير». غمز لها بعينيه. «لا تقلقي، سأوافيك بكل المستجدات».

«شكراً. أنا ممتنة لك».

ابتسم جوليان. «أين تمكثين؟ لقد وضعوني في فندقٍ قريبٍ من المحطة».

«في الكلية».

«جميل! هلّا شاركتني كأساً هذا المساء؟ ما رأيك؟».

هزّت ماريانا رأسها معتذرة. «لا . . . آسفة. لا أستطيع».

«أوه، ولِمَ لا؟». ابتسم لها جوليان ثم تتبّع نظرها . . . ورأى أنها كانت تنظر إلى فريد الذي كان يلوّح لها من الجهة الأخرى من الشريط.

«آه. . .». عبس جوليان. «أرى أن لديك برنامجاً للأمسية بالفعل».

«ماذا؟». هزّت ماريانا رأسها. «لا، لا. إنه مجردُ صديقٍ. . . لزوي».

«بالطبع».

ابتسم لها ابتسامة توحي بعدم التصديق. «لا بأس. أراك قريباً، يا ماريانا».

بدا على جوليان الانزعاج إذ استدار ومضى مبتعداً.

وشعرت ماريانا بالانزعاج أيضاً. . . من نفسها. انحنت ومرّت من تحت الشريط ومشت نحو فريد، وراح غضبها يزداد شيئاً فشيئاً. لـمَ أقدمتْ على تلك الكِذبة السخيفة بخصوص كون فريد صديق زوي؟ لم تكن مذنبةً في أي شيء. لم يكن لديها أي شيء لتخفيه. فلماذا كذبت؟

إلا إذا لم تكن صادقةً مع نفسها بخصوص مشاعرها تجاه فريد. هل هذا ممكن؟ وإذا كان الأمر كذلك فعلاً، فالفكرة كانت مقلِقةً للغاية.

ترى ما الذي كانت تكذب على نفسها بشأنه أيضاً؟

4

حين ذاع خبر مقتل طالبة ثانية من كلية سانت كريستوفر - وأنها كانت ابنة سيناتور أمريكي - تصدّر الخبر الصفحات الأولى للصحف حول العالم.

استقل السيناتور دريك أول طائرة من واشنطن رفقة زوجته، يلاحقه الإعلام الأمريكي وصحافيو باقي العالم الذين اقتحموا سانت كريستوفر في غضون ساعاتٍ قليلةٍ.

ذكّر ذلك ماريانا بحصارٍ من القرون الوسطى: قُطعانٌ من الصّحافيين والمصوّرين يردعهم حاجزٌ متهالكٌ، وبعض ضبّاط الشرطة في أزيائهم الرسمية، وبضعة بوّابين، بمقدّمتهم السيد موريس، مشمراً عن زنوده، ومستعداً للدفاع عن الكلية بقبضتيه إذا اقتضى الأمر.

نُصب معسكر إعلاميّ على الحصى خارج البوابة الرئيسية وامتدّ وصولاً إلى شارع كينغز باريد، حيث رُكنت في صفوف طويلة شاحناتٌ تعلوها أقمار صناعية. وتمَّ إنشاء خيمة صحفية خاصّة قرب النهر، حيث أُجري حوارٌ تلفزيٌّ مع السيناتور دريك وزوجته اللذين ناشدا المشاهدين في خطاب مؤثّر أن يزوّدوا الشرطة بأية معلومةٍ قد تساعد في القبض على قاتل ابنتهما.

وبطلبٍ من السيناتور دريك، شاركت سكوتلاند يارد[1] في التحقيقات، فتمّ إرسال ضبّاط شرطة إضافيين من لندن، قاموا بوضع الحواجز على الطرق، وأجروا مكالمات هاتفية مع الناس، وقاموا بدوريات في الشوارع.

ومعرفة أنهم باتوا الآن يتعاملون مع قاتل متسلسل عنى أن المدينة برمّتها كانت في حالة استنفارٍ. وفي غضون ذلك، تم إطلاق سراح كونراد إليس، مع إسقاط كل التّهم عنه.

سادت في المدينة أجواءٌ من القلق والتوتّر، إذ كان موجوداً بينهم وحشٌ يحمل سكّيناً، غير مرئيٍّ، يجوب الشوارع، قادر على تنفيذ ضربته والاختفاء في جنح الظلام... وقدرته على التخفّي هذه جعلته كائناً فوق بشريّ، خارقاً للطبيعة: كائناً وِلد من أسطورةٍ، شبحاً.

إلا أن ماريانا كانت تعلم أنه لم يكن شبحاً، أو وحشاً. كان مجرد رجلٍ من لحم ودمٍ، ولم يكن يستحقّ أن يجعلوا منه أسطورةً.

كل ما استحقّه - إذا استطاعت استحضار ذلك في قلبها - هو **الشفقة والخوف**، وهما الصفتان اللتان، بحسب أرسطو، تشكّلان التطهير في التراجيديا. وفي الواقع، لم تكن ماريانا تعرف ذلك الرجل المجنون بما يكفي لتشعر بالشفقة تجاهه.

لكنها شعرت بالخوف بكل تأكيد.

---

(1) Scotland Yard: شرطة العاصمة البريطانية لندن، والمعروفة باسم مقرّها سكوتلاند يارد - المترجم.

5

غالباً ما كانت والدتي تقول إنها لم ترِد لي هذه الحياة.

كانت تقول لي إننا سنغادر، أنا وهي، يوماً ما، لكنه لن يكون أمراً سهلاً.

أنا لستُ متعلِّمةً، كانت تقول. **لقد تركتُ المدرسة في سن الخامسة عشرة. عِدني ألا تفعل الشيء نفسه. يجب أن تحظى بتعليمٍ؛ هكذا ستكسب المال. هكذا ستعيش، وتشعر بالأمان.**

لم أنسَ ذلك أبداً. لأن أكثر ما كنتُ أرغب فيه هو أن أشعر بالأمان.

وإلى يومنا هذا، أنا لا أشعر بالأمان.

كان والدي رجلاً خطيراً. هذا هو السبب. بعد بضع كؤوسٍ متتاليةٍ من الويسكي، كانت تلمع في عينيه نارٌ ملتهِبةٌ، فيغدو حِجاجياً أكثر فأكثر، ويصبح تفادي غضبه أشبه بالسير في حقل ألغام.

كنت أجيد ذلك أكثر من والدتي؛ أجيد إبقاء الأمور مستقرّة، أسبقه ببضع خطوات، أُبقي المحادثة على أرضية آمنة، أخمّن إلى أين تتّجه – أتفوّق عليه إذا اقتضى الأمر – وأقوده بعيداً عن أي موضوع قد يثير حفيظته وسخطه. لكن عاجلاً أم آجلاً، كانت والدتي تُخفق، إما عن طريق الخطأ – أو عن قصد، بمازوخيّتها – فتقول شيئاً، أو تفعل شيئاً، تخالفه الرأي، تنتقده، أو تسكب له شيئاً لا يروقه.

فتلمع عيناه، وترتخي شفته السفلى، ويكشف عن أسنانه. ويكون الأوان قد فات حين تدرك أنه في حالة اهتياجٍ. تُقلب حينها طاولة، ويُهشَّم كأس. وكنت أراقب كل ذلك، غير قادر على الدفاع عنها أو حمايتها، وهي تركض إلى الحمام بحثاً عن ملجأ تحتمي فيه.

تحاول إقفال الباب في هلع... لكن الأوان يكون قد فات؛ فيخبطه بعنفٍ ويفتحه، وثم، ثم...

أنا لا أفهم.

لمَ لَمْ تغادر؟ لمَ لَمْ تجمع حقائبنا وتسري بنا ليلاً؟ كان يمكن أن نرحل معاً. لكنها لم تُقدِم على هذا الخيار. لمَ لا؟ أكانت خائفةً جداً من الإقدام على ذلك؟ أم أنها لم تكن ترغب في الاعتراف بأن عائلتها كانت على حق؛ بأنها ارتكبت خطأً جسيماً وها هي ذي تعود إلى الديار، مطأطئة الرأس؟

أم أنها كانت في حالة إنكار، تتشبّث بأمل أن تتحسّن الأمور على نحوٍ سحريٍّ؟ ربما كان هذا هو الحال. ففي حقيقة الأمر، كانت موهوبةً جدّاً في التغاضي عمّا كانت لا ترغب في رؤيته؛ حتى ولو كان أمام عينيها تماماً.

لقد تعلّمتُ منها فعل ذلك أيضاً.

وتعلّمت كذلك، منذ نعومة أظافري، أنني لا أمشي على الأرض، وإنما على شبكةٍ رفيعةٍ من الحبال اللامرئية المعلّقة فوق الأرض. وجب عليّ السير فوقها بحذرٍ، محاولاً تفادي التعثّر أو السقوط. لقد كانت بعض جوانب شخصيّتي عدوانيةً، على ما يبدو. وكانت لدي أسرارٌ مُشينةٌ وجب عليّ إخفاؤها، لم أكن أعلم حتى ماذا كانت.

لكن والدي كان يعلم. كان يعلم خطاياي.

وكان، تبَعاً لذلك، يعاقبني عليها.

كان يحملني إلى الأعلى، يدخلني الحمام ويقفل الباب...

ثم يبدأ.

إذا تخيّلته الآن، ذلك الطفل الصغير المذعور، أأشعر بغصّة أسفٍ مؤلمٍ؟ بوخزٍ من التعاطف؟ إنه مجرد طفلٍ، لا ذنب له في أيٍّ من جرائمي، إنه مذعورٌ، ويتألّم. هل أشعر بشيء من الشفقة تجاهه؟ هل أتألّم لورطته، وكل ما مرّ به؟

كلا. لا أفعل.

بل أطرد أي شعور بالشفقة من قلبي.

أنا لا أستحقها.

6

آخر مرة شُوهدت فيها فيرونيكا على قيد الحياة كانت لدى مغادرتها بروفة مسرحية **دوقة مالفي** في مسرح ADC عند الساعة السادسة. ثم بدا وكأنها اختفت، إلى أن عُثر على جثتها في اليوم الموالي.

كيف كان هذا ممكناً؟

كيف ظهر قاتلها من العدم وخطفها في وضح النهار، دون أن يترك شاهداً أو أثراً وراءه؟ لم تستطع ماريانا استنتاج سوى خلاصةٍ وحيدةٍ: لقد ذهبت فيرونيكا معه بمحض إرادتها. لقد ذهبت إلى حتفها بهدوءٍ وتعاونٍ، لأنها كانت تثق بالرّجل الذي أخذها إلى هناك.

في الصباح الموالي، قررت ماريانا إلقاء نظرةٍ على المكان الذي شوهدت فيه فيرونيكا آخر مرة، فتوجهت إلى مسرح ADC في بارك ستريت.

كان المسرح في الأصل نُزُلَ تدريبٍ عتيقاً، قبل أن يُحوّل إلى مسرح في خمسينيات القرن التاسع عشر. كان شعاره مرسوماً بأحرفٍ سوداءَ فوق المدخل.

كان هناك على لوحة إعلانات كبيرةٍ ملصق يروّج للإنتاج القادم، **دوقة مالفي**، وقد افترضت ماريانا أنه لن يُعرض بعد ذلك، بما أن فيرونيكا هي من كانت ستؤدّي دور الدوقة.

توجّهت نحو الباب الرئيسي. حاولت فتحه، لكنه كان مقفلاً. لم تكن هناك أضواءٌ بالداخل.

فكّرت لوهلة، ثم استدارت وانعطفت عند الركن ونحو جانب المبنى. كانت بوّابتان من الحديد المطاوع منتصبتين أمام ساحةٍ داخلية كانت إسطبلاً في السابق. حاولت ماريانا فتح البوّابة؛ لم تكن مقفلة، ففحتها بسهولةٍ ومضت إلى داخل الساحة.

كان باب المسرح هناك. مشت نحوه، أدارت المقبض، لكنه كان مقفلاً.

شعرت بالإحباط وكانت على وشك الاستسلام حين خطرت لها فكرة. ألقت نظرة صوبَ سلم النجاة. سلالم لولبيّة، تؤدي إلى حانة المسرح في الطابق العلوي.

حين كانت ماريانا طالبة، كانت حانة المسرح مشهورة بكونها تبقى مفتوحة حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل. كانت تذهب رفقة سيباستيان أحياناً ليحتسيا كأساً خلال ساعاتِ ليلِ السبت المتأخرة، ويرقصان ويمرحان.

شرعت في تسلّق السلالم، تصعد في دوائر إلى أن بلغت القمة، حيث وجدت نفسها أمام مخرج الطوارئ.

مدّت ماريانا يدها وأدارت القبضة دون أملٍ كبيرٍ، لكنها تفاجأت من كون الباب مفتوحاً.

ترددت. ثم ولجت إلى الداخل.

7

كانت حانةُ مسرحِ ADC من الطراز العتيق، مقاعدها مخملية وتفوح منها رائحة الجعّة ودخان السجائر التي تشرّبتها الجدرانُ والأرائكُ على مدار السنين.

كانت الأضواء مطفأة، فكان المكان غارقاً في الظلام والظلال. تشتّت انتباه ماريانا لوهلة، إذ خُيِّل إليها شَبَحان يجلسان عند المنضدة.

ثم قفزت في مكانها فَزَعاً إثر سماع خَبطةٍ قويّةٍ، تَلَتها خبطةٌ أخرى بدا معها كما لو أن المبنى العتيق اهتز من أركانه.

قرّرت ماريانا أن تتحرّى الأمر. كان الصوت قادماً من الطابق السفليّ. غادرت الحانة ومضت نحو قلب المكان المظلم، عبر السلالم الرئيسية، حريصةً على ألا يصدر عنها أدنى صوت.

خبطةٌ أخرى.

بدا الصوت قادماً من مدرّج المسرح نفسه. انتظرت عند أسفل السلالم وأصاخت السّمع، لكن المكان كان هادئاً تماماً.

تسلّلت على رؤوس أصابعها باتجاه بوابة المُدرَّج، ووارَبَتْه قليلاً ثم ألقت نظرةً إلى الداخل.

بدا المدرّج خالياً. كانت الخشبة مُعدّة لأداء مسرحية **دوقة مالفي**: تصويرٌ كابوسيٌّ لسجنٍ على الطراز التّعبيري الألماني، بجدرانٍ مائلة وقضبانٍ ذات زوايا غريبة.

وهناك على خشبة المسرح، وقف رجلٌ شابٌّ.

وقف الشّابُ عاريَ الصدر، يتصبّب عرقاً. بدا عاقد العزم على تهشيم ديكور الخشبة عن آخره بمطرقةٍ ثقيلةٍ يحملها في يده. كانت شدّةُ العنف التي تطبَع أفعاله مثيرةً للقلقِ بحقٍّ.

شرعت ماريانا تنزل بحذر شديد، متجاوزة مقاعد المسرح الحمراء الشّاغرة صفّاً صفّاً، حتى بلغت خشبة المسرح.

لم ينتبه الشاب إلى وجودها حتى أصبحت واقفةً تحته بالضبط. كان طوله حوالي ستّةَ أقدامٍ، وشعره أسود قصيراً ولحيته خفيفة. كان في الحادية والعشرين من عمره على أقصى تقدير، لكن وجهه لم يوحِ بالنضارة ولا بالود.

«من أنتِ؟»، قال بنبرةٍ حادة وهو يحدّق فيها.

قرّرت ماريانا مجانبة الحقيقة. «أنا... معالجِةٌ نفسيّةٌ... أعمل مع الشرطة».

«آه-هاه... لقد غادروا لتوّهم».

«صحيح». بدت لكنته مألوفة. «هل أنتَ يوناني؟».

«لماذا تسألين؟». عَلَتْ عينَيه نظرةٌ تنم عن الاهتمام. «هل أنتِ كذلك؟».

دفعها حدسُها للحظة إلى الكذب، فلسببٍ ما، لم تكن ترغب في أن يعلم عنها أيّ شيءٍ، لكنها علمت أنها ستحصل منه على معلوماتٍ أكثر إذا أبدت نوعاً من القرابة إليه. «بل نصف يونانية»،

قالت مع ابتسامةٍ صغيرةٍ، ثم أضافت باليونانية: «لقد ترعرعتُ في أثينا».

بدا مسروراً لسماع ذلك، فبدا وكأنه هدأ قليلاً وأخمد غضبه. «أنا أنحدر من سالونيك. يشرّفني لقاؤك!». ابتسم كاشفاً عن أسنانٍ حادّةٍ مثل الشَّفرة، وأضاف: «دعيني أساعدك!».

وبحركةٍ فجُائيّةٍ عنيفةٍ، مدّ ذراعه ثم سحبها إلى أعلى بسهولة مدهشة، فحطّت ماريانا على خشبة المسرح برِجلين مرتعشتين. «شكراً لك».

«أدعى نيكوس، نيكوس كوريس. ما اسمكِ؟».

«اسمي ماريانا. أأنتَ طالبٌ؟».

«أجل». أومأ برأسه. «أنا المسؤول عن هذا». أشار إلى الحطام من حوله. «أنا المخرج. وأنت تنظرين الآن إلى تحطّم طموحاتي المسرحية». أطلق ضحكةً مسرحيةً، قبل أن يردف: «لقد أُلغي العرض».

«بسبب فيرونيكا؟».

قطّب نيكوس حاجبيه. «بعد أن أقنعتُ وكيلاً من لندن بحضور العرض. لقد عملتُ طوال الصيف، وخططت ونظمت كل شيء... وذهب كل شيءٍ سُدىً الآن...».

هدَّ جزءاً من الجدار بشراسةٍ، فجعل سقوطُه الأرضيةَ تهتز.

راقبته ماريانا عن كثبٍ. بدا كل جزء منه يستشيط غضباً، وكأنه كتلة من الغيظ تكاد تنفجر في أيّة لحظةٍ، لتطلق العنان لعاصفة هوجاء تدمّر كل شيءٍ من حولها، بما في ذلك ماريانا نفسها. لقد أرعبها حقاً.

«هل من الممكن أن أسألك عن فيرونيكا؟».

«ماذا عنها؟».

«متى رأيتها آخر مرة؟».

«خلال البروفة النهائية قبل العرض. لقد أعطيتها قائمة ببعض الملاحظاتِ المهمة، التي لم تَرُقها. كانت ممثلةً رديئةً، إذا أردتِ الحقيقة. هي لم تكن بمستوى الموهبة التي رأتها في نفسها».

«فهمت. وكيف كان مزاجها؟».

«بعد أن أعطيتها القائمة؟ لم يكن جيداً». ابتسم كاشفاً عن أسنانه.

«متى غادرَت المكان؟ هل تَذكرُ ذلك؟».

«حوالي الساعة السادسة، على ما أظن».

«هل أخبرَتك إلى أين كانت ذاهبة؟».

«لا». هزّ نيكوس رأسه. «لكنني أظن أنها كانت ذاهبة للقاء البروفيسور». ثم حوّل انتباهه إلى ترتيب بعض الكراسي.

راقبته ماريانا وقلبها يخفق بقوّةٍ، بحيث بدت أنفاسها متقطعة حين تكلمت من جديد.

«البروفيسور؟».

«أجل». هزّ نيكوس كتفيه. «لا أذكر اسمه. لقد حضر البروفة النهائية».

«كيف شكله؟ هلّا وصفته لي؟».

فكّر نيكوس لوهلة. «طويل. ملتحٍ. أمريكي». ألقى نظرة على ساعته. «أهناك شيء آخر تودّين معرفته؟ فأنا مشغولٌ كما ترين».

«لا، كان هذا كل شيء. شكراً لك. لكن هل لي بإلقاء نظرةٍ على غرفة تغيير الملابس؟ أتدري إن كانت فيرونيكا قد تركت شيئاً ما هناك؟».

«لا أظن ذلك. لقد أخذت الشّرطة كل شيء. ولم يكن هناك الكثير أصلاً».

«أود أن ألقي نظرة سريعة مع ذلك، إذا كنت لا تمانع».

«تفضّلي». أشار إلى جانب الخشبة. «هناك، أسفل السلالم، على اليسار».

«شكراً».

حدّق فيها نيكوس للحظة، كما لو أنّه يتأمل شيئاً ما، لكنه لم ينبس بكلمة، فسارعت ماريانا نحو جانب المسرح.

كان المكان مظلماً، واستغرق الأمرُ من عينَي ماريانا بضعَ ثوانٍ للتأقلم. جعلها باعثٌ داخليّ تلتفت لتنظر إلى الخشبة من جديد فرأت وجه نيكوس - المنكمش من شدّة الغيظ - وهو يهشّم ما تبقى من الديكور. **إنه يكره ألّا تجري الأمور كما يتمنى**، قالت في سرّها. كان هناك غضب حقيقي داخل ذلك الشّابّ، وشعرت بالارتياح كونها ابتعدت منه.

استدارت وأسرعت الخطى وهي تنزل درجات السلم الضيّقةِ، نحو بطن المسرح، إلى غرفة تغيير الملابس.

كانت الغرفة فضاءً مكتظّاً، يتشاركه كل الممثلون: صفوف من الأزياء تتنافس على المساحة الضيّقة وتتشاركها مع الباروكات، ومستحضرات التجميل، وأغراض الديكور، والكتب، ومناضد الزينة. نظرت إلى كل تلك الفوضى، مدركة أنه من المستحيل تحديد أغراض فيرونيكا من بينها.

شكّت ماريانا في أن تجد شيئاً مفيداً هنا، ولكن...

نظرت إلى مناضد الزينة. كانت تعلو كلّاً منها مرآةٌ مزيّنةٌ

بالقلوب والقُبَل والتمنيات بالحظ السعيد مكتوبة بأحمر الشفاه، كما حُشِرت في إطارات المرايا بعض البطاقات والصور.

لفتت إحدى البطاقاتِ البريدية انتباه ماريانا في الحال، إذ بدت مختلفةً عن الأخريات.

نظرت إليها عن كثب. كانت صورةً ذات طابع دينيّ: أيقونة لقدّيسة. كانت القدّيسة جميلة، ذات شعرٍ أشقرَ طويل... مثل فيرونيكا. كان خنجرٌ فضّيٌّ نائتاً من عنقها، والأكثر إزعاجاً في المشهد هو أنها كانت تحمل طبقاً عليه مُقلتانِ بَشريّتانِ.

شعرت ماريانا بالغثيان وهي تنظر إلى الصورة. مدّت يداً مرتجفةً وسحبت البطاقة البريدية من إطار المرآة، ثم قلبتها.

فوجدت عليها - مثل المرة السابقة - اقتباساً مكتوباً بخط اليد وباليونانيّة القديمة:

ἴδεσθε τὰν Ἰλίου
καὶ Φρυγῶν ἑλέπτολιν
στείχουσαν, ἐπὶ κάρα στέφη
βαλουμέναν χερνίβων τε παγάς,
βωμόν γε δαίμονος θεᾶς
ῥανίσιν αἱματορρύτοις
χρανοῦσαν εὐφυῆ τε σώματος δέρην
σφαγεῖσαν.

8

بعد جريمة القتل الثانية، خيّمت الصّدمة وألقى شبح الموت ظلالَه القاتمةَ على حرم كلية سانت كريستوفر.

بدا الأمر كما لو أن آفةً أو طاعوناً حلّ بالكلية - مثلما ضرب المرض مدينةَ طِيبة في الأسطورة اليونانيّة، حيث تخلّل سمٌّ لامرئيٌّ الهواءَ وانتشر في الساحات - ولم تعد تلك الجدرانُ العتيقةُ التي كانت تقف سداً في وجه العالم الخارجي قادرة على توفير الحماية.

ورغم احتجاجات عميد الكليّة وضماناته للسلامة، راح الآباءُ بأعدادٍ متزايدةٍ يسحبون فلذات أكبادهم من الكلية. لم تَلُمهم ماريانا على ذلك، كما أنها لم تلم الطّلبةَ على رغبتهم في الرحيل، فجزءٌ منها كان يرغب في انتشال زوي وأخذها بعيداً إلى لندن، إلا أنها غدت متأكدة أن زوي باقية، وكذلك ماريانا نفسها.

كان وقعُ موت فيرونيكا على زوي كبيراً، وحقيقة أن موتها أفجعها إلى هذا الحد أدهش زوي نفسها، التي شعرت بنفسها منافِقة.

«أقصد. . . أنا حتى لم أكن **أستلطفها**، فلا أدري لماذا لا أستطيع كَفْكَفةَ دموعي».

شكّت ماريانا أن تكون زوي قد استغلت موتَ فيرونيكا كوسيلة للتّنفيس عن حِدادها على تارا، وهو حداد كان من القوة والرعب بحيث لم تستطع مواجهته مباشرة. لذا كانت تلك الدموعُ علامةً جيدةً، علامةً صحيّةً في نظر ماريانا، وقد أخبرت زوي بذلك وهي تضمها إلى صدرها وتهدهدها على السرير، فيما كانت دموع زوي تنهمر.

«لا بأس، يا حبيبتي. لا عليكِ. ستكونين بخير، حرّري كل تلك المشاعر».

وأخيراً، انحسرت دموع زوي، فأصرّت ماريانا على اصطحابها لتناول الغداء، فبالكاد تناولت الفتاة شيئاً في الساعات الأربع والعشرين الماضية. نظرت إليها زوي بعينين محمرّتين، وانيةً ساغِبةً، ووافقت على عرضها. وفي طريقهما إلى البهو، صادفتا كلاريسا التي دعتهما إلى الانضمام إليها حول الطاولة العالية.

كانت الطاولة العالية مخصصة للأساتذة وضيوفهم، وتوجد في أحد طرفَي البهو الرّحب، على مَصطَبة مرتفعة كخشبةِ مسرحٍ، تعلوها لوحات زيتية لأساتذة راحلين، معلّقة على الجدران المكسوة بألواحٍ من خشب الصّنوبر. في الطرف المقابل للبهو، كان هناك بُوفيه مخصّص للطّلبة، يُديره فريق المطعم الجامعي، في سُترات أنيقة وربطاتِ عنقٍ فَرَاشيّة. كان الطلبةُ جميعُهم يجلسون حول طاولات طويلة ممتدّة على طول البهو.

لم يكن هناك عدد كبير من الطّلبة، ولم يَسع ماريانا إلا أن تراقبهم وهم يوَشوِشون ويعلو وجههم القلق، فيما بالكاد لمسوا الأطباقَ التي أمامهم، ولم يَبدُ أيٌّ منهم أفضلَ حالاً من زوي.

جلست ماريانا وزوي رفقة كلاريسا عند الطرف القصيِّ للطاولةِ

العاليةِ، بعيداً عن باقي الأساتذة. نظرت كلاريسا إلى قائمة الطعام باهتمامٍ، فرغم كل تلك الأحداث الرهيبة، إلا أن شهيّتها لم تتأثر. «سأطلبُ طبق طائر الدّرّاج»، قالت كلاريسا. «وبعد ذلك... ربما بعض الكمثري المسلوق بالنبيذ. أو حلوى بودنغ التّوفيه اللَّزِجة».

أومأت ماريانا برأسها موافقةً على اقتراحها، ثم التفتت إلى زوي. «وماذا عنك، يا زوي؟».

هزّت زوي رأسها. «أنا لست جائعةً».

نظرت إليها كلاريسا نظرة ملؤها القلق. «يجب أن تأكلي شيئاً، يا عزيزتي... لا تبدين على ما يرام. أنت في حاجةٍ إلى بعض الطعام للحفاظ على قِواك».

«ما رأيكِ في السَّلَمون مع الخضروات؟»، اقترحت ماريانا. «هل يبدو خياراً جيداً؟».

هزّت زوي كتفيها. «حسنٌ».

حضر النادل ليأخذ طلبهم، ثم أخرجت ماريانا البطاقة البريدية التي وجدتها في المسرح.

أخذت كلاريسا البطاقة لتفحصها عن قرب. «إنها القدّيسة لوسي، إن لم تخنّي الذاكرة».

«القدّيسة لوسي؟».

«ألا تعرفينها؟ أفترض أن قصّتها قاتمةٌ شيئاً ما، بالنّسبة لقدّيسة. لقد كانت شهيدةً خلال إبادة ديوكلتيانوس للمسيحيّين حوالي سنة 300 قبل الميلاد، ونُزعت عيناها من مِحجريهما قبل أن تُطعن حتى الموت».

«يا للمسكينةِ لوسي!»، علّقت ماريانا.

«تماماً. لذلك هي القدّيسة الشّفيعةُ للعُمي، وغالباً ما يتم

رسمها على هذا النحو: حاملةً مقلتَيها على طبق». قلبت كلاريسا البطاقة البريديّة، وتحرّكت شفتاها ببطءٍ وهي تقرأ الأسطر باليونانية القديمة، ثم قالت: «حسنٌ، الكلماتُ، هذه المرة، من مسرحية **إيفيجينيا في أوليس**[1] ليوربيديس».

«وماذا تعني؟».

«إنها عن إيفيجينيا وهي تُساق إلى موتها». ارتشفت كلاريسا بعض النبيذ، قبل أن تُترجم الكلمات: ''فلتعايِنوا البتول... وأكاليل الزهور تُزيّنُ شعرَها، والماءُ المقدّسُ ينهمرُ على جسدِها... وهي تمشي نحو مَذبَح قَرابين الإلهة التي لا يصح ذكرها - والذي سَيَفيض بالدّماءِ'' - المصطلح اليوناني المستعمل هو 'αἱματορρύτοις'، ويعني ''حين تُنحر رقبتُها الجميلة''».

شعرت ماريانا بالغثيان. «إلهي الرّحيم!».

«الأمر لا يفتح الشّهيّة، هذا مؤكد»، قالت كلاريسا وهي تعيد البطاقة البريدية لماريانا.

ألقت ماريانا نظرةً خاطفةً إلى زوي. «ما رأيك؟ أتظنّين أن فوشكا قد يكون مرسِلها؟».

«البروفيسور فوشكا؟»، قالت كلاريسا بنظرة اندهاش، فيما راحت زوي تفحص البطاقة. «أنت لا تشيرين إلى... لا تظنين أن البروفيسور...».

«إن لفوشكا مجموعةً من الطالبات الأثيرات. هل كنتِ على علم بذلك، يا كلاريسا؟». ألقت ماريانا نظرةً خاطفةً إلى زوي، ثم تابعت: «اجتماعاتهم خاصّةٌ، بل سرّيّةٌ. ويَدعوهن البُتُل».

---

(1) *Iphigenia in Aulis* by Euripides.

«البُتُل؟»، قالت كلاريسا. «أسمع بذلك للمرة الأولى. لعلّه لعب على الكلام، على وزن الرُّسُل[1]».

«الرُّسُل؟».

«إنها مجموعة تنيسون الأدبية السّرّية، حيث التقى هالام».

حدّقت فيها ماريانا، واستغرق منها الأمر بضع ثوانٍ لتستعيد صوتها. «ربما».

«طبعاً، كان الرُّسُل جميعُهم ذكوراً. وأفترض أن أعضاء البُتُل جميعهُنَّ إناثٌ، أليس كذلك؟».

أومأت ماريانا برأسها. «بلى. وقد كانت كلٌّ من تارا وفيرونيكا عضوَتين. ألا ترينَ أنها مصادفةٌ غريبةٌ...؟ ماذا عنك، يا زوي؟ ما رأيك؟».

بدا على زوي الانزعاج، لكنها أومأت برأسها ونظرت إلى كلاريسا. «لأكون صريحةً، أرى أن هذا شيء قد يفعله: إرسالُ بطاقة بريديّة كهذه».

«وما يدعوكِ إلى قول ذلك؟».

«إن البروفيسور شخص قديم الطراز، بمعنى أنه يحب هذه الأمور، أعني إرسال البطاقات البريدية. فهو غالباً ما يرسل ملاحظاتٍ مكتوبةً بخط يده. وفي الفصل الماضي، ألقى محاضرةً عن أهمية الرسالة المكتوبة باعتبارها شكلاً فنّيّاً... لكنني أعلم أن هذا لا يُثبت شيئاً».

«ألا يثبت شيئاً حقاً؟»، سألت ماريانا. «لستُ متأكدة من ذلك».

---

(1) The Apostles.

نقرت كلاريسا بسبّابتها على البطاقة. «ما معنى هذه في نظرك؟ أنا... أنا لا أفهم... ما الغرض من ورائها؟».

«أظن أنها تعني... إنها لعبة. إنه يُعلن عن نواياه بهذه الطريقة - إنه تحدٍّ - وهو يستمتع بذلك». اختارت كلماتها بعنايةٍ ثم أضافت: «ثم إن هناك أمراً آخرَ... قد لا يكون هو نفسُه يَعيهِ: هناك سببٌ لاختياره هذه المقولات؛ فلا بد أنها تعني له شيئاً».

«كيف ذلك؟».

«لا أعلم». هزّت ماريانا رأسَها في قِلّة حيلةٍ. «لا أفهم... ولكن يجب علينا أن نفهم ذلك بطريقةٍ ما. إنها الطريقة الوحيدة لإيقافه».

«هل تقصدين إيقاف إدوارد فوشكا؟».

«ربما».

بدت كلاريسا منزعجةً مما سمعته. هزت رأسها لكنها لم تُدلِ بملاحظات أخرى، فيما ظلت ماريانا تتأمل في صمتٍ البطاقة الماثلة أمامها.

ثم حضر الطعام فانقضّت كلاريسا على غدائها بشهيّةٍ، ووجّهت ماريانا انتباهها إلى زوي، لتتأكد أنها ستمدّ جسدَها بشيءٍ من الطعام.

لم يُذكر اسم إدوارد فوشكا ثانيةً خلال الوجبة، لكنه ظل في ثنايا أفكار ماريانا، ملتحِفاً في الظلال، يَحومُ في ذهنها كالخفّاش.

9

بعد الغداء، توجهت ماريانا وزوي إلى حانة الكلية لاحتساء كأسٍ.

كان المكان أهدأ من المعتاد على نحوٍ ملحوظ: كان هناك بضعةُ طلبةٍ فقط، يشربون. لمحت ماريانا سيرينا جالسةً بمفردها، إلا أن هذه الأخيرة لم تلاحظ وجودها.

طلبت زوي كأسَي نبيذ أبيض، فيما مضت ماريانا إلى آخر المنضدة حيث كانت سيرينا جاثمةً على كرسيٍّ عالٍ، تُنهي كأس جين وتونيك وتنقر على هاتفها.

«مرحباً!»، حيّتها ماريانا.

رفعت سيرينا رأسها ثم عادت إلى هاتفها دون أن ترد.

«كيف حالك، يا سيرينا؟».

لا استجابة. نظرت ماريانا إلى زوي، مستجدِيةً مساعدَتَها، إلا أن هذه الأخيرة أشارت إلى الكأس أمامها. أومأت ماريانا برأسها.

«هل لي أن أقدّم لكِ كأساً آخر؟».

هزّت سيرينا رأسها. «لا. عليّ أن أغادر قريباً».

ابتسمت ماريانا. «أهو معجبكِ السّرّي؟».

لا بد أن ماريانا قالت الشيء الخطأ، لأن سيرينا التفتت نحوها بضراوةٍ مفاجِئةٍ.

«ما خطبكِ، بحق الجحيم؟».

«ماذا؟».

«ما هي مشكلتك مع البروفيسور فوشكا؟ يبدو كما لو أنكِ مهووسةٌ به، أو شيءٌ من هذا القبيل. ماذا أخبرتِ الشرطة بشأنه؟».

«لا أدري ماذا تقصدين».

لكن ماريانا شعرت في سرها بالارتياح لأن المفتّش سانغا قد أخذ كلامها على محمل الجد بما يكفي ليستجوب فوشكا.

«أنا لم أتّهمه بشيءٍ»، واصلت ماريانا. «كلّ ما في الأمر أنني اقترحت أن يطرحوا عليه بعض الأسئلة».

«حسنٌ، لقد فعلوا. طرحوا عليه الكثير من الأسئلة. وكذلك فعلوا معي. هل أنت راضية الآن؟».

«ماذا قلتِ لهم؟».

«الحقيقة. أنني كنت مع البروفيسور فوشكا حين قُتلت فيرونيكا ليلة الأربعاء. وأن حصتنا استمرت طوال المساء».

«وهو لم يغادر الغرفة؟ حتى ليدخن سيجارة؟».

«ولا حتى سيجارة».

رمقت سيرينا ماريانا بنظرةٍ باردةٍ، لكن سرعان ما شتّتت انتباهَها رسالةٌ نصية على هاتفها. قرأتها ثم نهضت من مكانها.

«يجب أن أذهب».

«انتظري». خفضت ماريانا صوتها. «أريدك أن تتوخي الحذر، يا سيرينا. مفهوم؟».

«آه، دعيني وشأني!». انتشلت سيرينا حقيبتها وغادرت المكان.

تنهّدت ماريانا. أتت زوي لتجلس مكان سيرينا.

«لا يبدو أن الأمور مضت على خيرٍ».

«لا، لم تمضِ على خيرٍ».

«وما العمل الآن؟».

«لا أدري».

هزّت زوي كتفيها. «إذا كان البروفيسور فوشكا مع سيرينا وقتَ الجريمة، فلا يمكن أن يكون هو من ارتكبها».

«إلا إذا كانت سيرينا تكذب».

«أتظنّين حقّاً أنها قد تكذب من أجله؟ مرّتين؟». رمقتها زوي بنظرة مشكِّكة وهزّت كتفيها. «لا أعلم، يا ماريانا...».

«ما الأمر؟».

تفادت زوي نظرتها، والتزمت الصمت للحظة. «الطريقةُ التي تتصرّفين بها تجاهه... إنها غريبةٌ!».

«ما قصدك بـ"غريبة"؟».

«للبروفيسور حجةُ غياب في كلتا الجريمتين، لكنكِ مُتمسّكَةٌ بتَعنّتك. هل الأمر متعلّق به... أم بكِ أنتِ؟».

«بي؟». لم تصدّق ماريانا أذنَيها. شعرت بخدّيها يَستَعِران امتعاضاً. «عمَّ تتحدّثين؟».

هزّت زوي رأسها. «لا عليك. انسَي الأمر».

«إذا كان هناك شيء تودّين قوله لي، أفصحي عنه فحسب».

«لا جدوى من ذلك. أعلم أنني كلما حاولت إقناعك بالعدول عن رأيكِ في البروفيسور فوشكا، ازداد إصرارك. أنت عنيدةٌ جداً».

«أنا لستُ عنيدةً».

ضحكت زوي. «لطالما قال سيباستيان إنكِ أكثر شخصٍ عناداً التقاه في حياته».

«لم يقل لي ذلك قط».

«بل قاله لي».

«أنا لا أفهم ما يجري هنا، يا زوي. لا أفهم ما تحاولين قوله. ماذا تقصدين بأمرٍ فوشكا؟».

«أخبريني أنتِ!».

«ماذا؟ أنا لستُ منجذبة إليه... إذا كان هذا ما تلمّحين إليه!».

أدركت ماريانا أنها رفعت صوتها، إذ سمعها بعض الطّلبة والتفتوا صوبَها. كانت هذه المرة الأولى منذ زمن طويل توشك فيها هي وزوي الخوض في جدالٍ. شعرت بغضبٍ غير مُبرَّر. لماذا يا ترى؟

تبادلتا نظراتٍ صامتةً لوهلةٍ.

كانت زوي من بادرت إلى التّراجع. «حسنٌ، انسَي الأمر. أنا آسفة. لقد تفوهتُ بالهراء».

«وأنا آسفةٌ أيضاً».

تفقّدت زوي ساعتها. «يجب أن أذهب. لديّ حصة عن الفردوس المفقود[1]».

«حسناً إذاً، اذهبي».

«أراكِ على مائدة العَشاء؟».

«أوه...». تردّدت ماريانا. «لا أستطيع. أنا.. سألتقي...».

---

(1) *Paradise Lost*: ملحمة شعرية للكاتب الإنجليزي جون ملتون كتبها عام 1667 - المترجم.

لم ترغب في إخبار زوي بموعد العشاء المتّفق عليه مع البروفيسور فوشكا؛ ليس الآن. كانت ستتهيَّأ لزوي أمور لا وجود لها على الإطلاق.

«سَـ. . . سَألتقي بصديقٍ».

«مَن؟».

«ليس شخصاً تعرفينه. إنه صديقٌ قديمٌ من أيام الكلّية. هيا، عليكِ أن تذهبي. ستتأخّرين».

أومأت زوي برأسها. طبعت قبلةً سريعةً على خدِّ ماريانا، فأمسكت ماريانا ذراعها بحنانٍ وقالت لها: «زوي، توخّي الحذر أنتِ أيضاً، اتفقنا؟».

«أتقصدين ألا أركب السيارة مع رجلٍ غريبٍ؟».

«لا تتغابَي. أنا أقصد ذلك فعلاً».

«أستطيع الحفاظ على نفسي، يا ماريانا. أنا لستُ خائفةً».

كانت نبرةُ التبجح هذه في صوت زوي أكثرَ ما أثار قلقَ ماريانا.

10

بعد أن غادرت زوي، جلست ماريانا عند المنضدة لبعض الوقت، تحتسي النبيذ، وتعيد في ذهنها شريط محادثتهما.

ماذا لو كانت زوي محقّةً؟ ماذا لو كان فوشكا بريئاً؟

كانت لفوشكا حجة غيابٍ لكلا الجريمتين، ورغم ذلك، حاكت ماريانا شبكةً من الشّكوكِ حوله، بالإمساك ببضعةِ خيوطٍ مِن... ممَّ بالضبط؟ حتّى أنها لم تكن حقائقَ. لا شيءَ ملموساً. أشياء بسيطةٌ: نظرةُ الرُّعب في عينَي زوي، حقيقةُ أنه درّس كلّاً من تارا وفيرونيكا التراجيديا الإغريقيّة، واقتناعها بأن فوشكا هو من أرسل تيْنك البطاقتَين البريديّتَين.

أنْبَأَها حدسُها أنه أيّاً كان من أرسل البطاقتَين إلى الفتاتَين، هو أيضاً مَن قتلهما. وفي حين أنه قد يبدو هذا قفزةً غير مبرَّرة، أو توهُميّة حتى بالنسبة إلى رجلٍ مثل سانغا، لكن بالنسبة إلى معالجة مثل ماريانا، كان حدسها أساسياً في عملها. رغم أنه بدا غير قابلٍ للتّصديق أن يُقدِم بروفيسورٌ في هذه الجامعة على قتل طالباته، بهذه البشاعة وهذه العلنيّة، آملاً أن يفلت بفعلته.

لكن... إذا كانت محقّةً...

فهذا يعني أن فوشكا قد أفلتَ بفِعلتِه.

لكن، ماذا لو كانت مخطئةً؟

كانت في حاجةٍ إلى التفكير بوضوح، لكنها لم تكن قادرة على التفكير الآن. كان ذهنها مشوشاً، ولم يكن ذلك بسبب النّبيذ. كانت تشعر بأنها غارقة، وغير واثقة من نفسها على نحو متزايد. فما العمل الآن؟ لم تكن لديها أدنى فكرةٍ عمّا يجب أن تكون خطوتُها التاليةُ.

اهدئي، قالت في سرّها. **لو كنتُ أعمل مع مريضٍ وأنا في مثل هذه الحالة - فاقدة لثباتي وبصيرتي - ماذا كنتُ سأفعل؟**

تجلّى الجواب أمام عينَيها في الحال. كانت ستطلب المساعدة، طبعاً. كانت ستلجأ لبعض الإشراف.

لم تكن هذه فكرةً سيئةً البتّةَ.

كانت رؤيةُ مشرفتها ستساعدها بكل تأكيد. كما أن الابتعاد عن هذا المكان - الذهاب إلى لندن، والهروب من هذه الكلية وجَوِّها المسموم، ولو لبضع ساعاتٍ - سيريحها كثيراً.

أجل، فكّرت. **هذا ما سأفعله: سأتصل برُوثْ، وألتقيها في لندن غداً.**

لكن قبل ذلك، كان لديها موعدٌ هذه الليلة، هنا في كامبريدج.

عشاء عند الساعة الثامنة مع إدوارد فوشكا.

11

عند الساعة الثامنة، وصلت ماريانا إلى إقامة فوشكا الجامعية.

حدّقت في الباب الضّخم المَهيب. كانت عبارة **البروفيسور إدوارد فوشكا** منضّدة بخطٍّ أبيض أنيقٍ على لوحة سوداء بجوار الباب.

تناهى إلى مَسمَعها صوتُ موسيقى كلاسيكيّةٍ قادمةٍ من الداخل. طرقت الباب. لا جواب.

طرقت مجدّداً، بقوةٍ أكبرَ هذه المرة. ظلّ الصّمت مُخيّماً لوهلةٍ، ثم . . .

«الباب مفتوح!»، قال صوتٌ بعيد. «تفضّلي بالدّخول».

أخذت ماريانا نفَساً، هدَّأت نفسها، ثم فتحت الباب، ووجدت نفسها أمام سلالم من خشب الدّردار: عتيقةٌ، ضيّقةٌ وغير متساوية في بعض الأماكن، من جرّاء الاستعمال ومرور الزمن. مضت تصعد درجة تلو الأخرى، بخُطىً حذرةٍ.

صارت الموسيقى أعلى الآن. كان الغناء باللّاتينية: آريا دينيّةٌ، أو ترنيمة. لقد سبق لها سماع تلك الموسيقى في مكان ما، لكنها لم تذكر أين كان ذلك. كان الغناء جميلاً لكنه مَشؤومٌ، يُنذر بسوءٍ، مع

صوت أوتارٍ تخفق بانتظامٍ كما لو كانت دقّاتِ قلبٍ، ومن سخرية القدر أنها عكست دقّاتِ قلبِ ماريانا القَلِقة وهي تصعد السلالم.

عند أعلى السلالم، وجدت الباب مواربا. ولجت إلى الداخل، حيث كان أول ما رأته صليباً كبيراً معلّقاً في البهو. كان جميلاً - مصنوعاً من خشبٍ أسود، مزخرفاً، منحوتاً بذوق وعناية، على الطّراز القُوطيّ - لكن حجمه الكبيرَ جعله يبدو مخيفاً، فأسرعت ماريانا الخُطى وهي تمرّ بجواره.

دخلت غرفة المعيشة. صَعُبت عليها الرؤية في البداية، إذ كان الضوءُ الوحيد صادراً عن شموعٍ نصف ذائبةٍ، غير منتظمة الشكل، مَنثورةٍ في المكان. استغرق الأمر بضعَ ثوانٍ حتى تعتاد عيناها على ظلام المكان، المثقل بروائح الشموعِ والبخور، وقد تسلّل الدّخان الأسود في الأرجاء مضعفاً ضوء الشّموع أكثر، ما جعل الرؤيةَ أصعبَ.

كانت الغرفةُ فسيحةً، فيها نوافذ مُطِلّة على الساحة وعدة أبواب مؤدية إلى غرفٍ أخرى. كانت الجدرانُ مغطّاةً باللّوحات والرّفوفُ مثقلَةً بالكتب، وكان ورق الجدران مزيّناً بأنماطٍ مُكرَّرةٍ من أوراق الأشجار وزخارفَ نباتيّةٍ في تدرّجات من الأسود والأخضر الغامق بثّت في ماريانا شعوراً مقلقاً، وكأنها موجودة في الأدغال.

رُتّبت مجموعة من المنحوتات والزخارف على رفّ الموقد وعلى الطاولات: جمجمةٌ بشريّةٌ تَشعُّ وسط الظّلام؛ وتمثالٌ صغيرٌ لِبَاخُوسَ الأشعثِ، كثيفِ الشَّعرِ، ممسكاً بوعاء نبيذٍ، وبقوائمِ وقرنَي، وذيلِ جَدي؛ وإلى جانبه، كُوزُ صَنَوبر.

شعرت ماريانا فجأةً بأنها مراقبة. شعرت، بطريقةٍ ما، بأنظارٍ مسلّطةٍ على قفاها. التَفَتَتْ.

كان إدوارد فوشكا واقفاً خلفها. لم تسمع وقعَ خطاهُ وهو يقترب. هل كان واقفاً هناك، محتجِباً بالظلام، طوال الوقت، يراقبها؟

«مساء الخير»، قال لها.

تألقت عيناه السّوداوَان وأسنانه البيضاء في ضوء الشّموع. كان شعره الأشعث مُسدَلاً على كتفيه، وقد تأنق في سُترة سوداء، وقميص أبيض ناصع، وربطة عنقٍ سوداء. **يبدو وسيماً جداً**، فكّرت ماريانا في سرّها، لكن سرعان ما اعتراها غضبٌ تُجاه نفسها من جرّاء تفكيرها ذلك.

«لم أكن أدري أننا ذاهبان إلى الطاولة العالية»، قالت.

«ولسنا بفاعِلَين».

«ولكنّك ترتدي. . . ».

«آه». نظر فوشكا إلى لباسه وابتسم. «نادراً ما أحظى بفرصةِ اصطحاب امرأةٍ بهذا الجمال إلى العشاء، فارتأيتُ أن أتأنّق لهذه المناسبة. هلّا أحضرتُ لكِ مشروباً؟».

سحب قنّينةَ شامبانيا من سَطل ثلج فضّي دون انتظار ردّها وأعاد ملءَ كأسه، ثم صبّ كأساً لماريانا وقدّمه إليها.

«شكراً».

ظلّ إدوارد فوشكا واقفاً في مكانه لوهلة، يراقبها ويقيّمها بعينيه السوداوَين.

«نَخبَنا!»، قال وهو يرفع كأسه.

لم تتفاعل معه ماريانا. رفعت الكأس إلى شفتَيها وارتشفت الشامبانيا. كانت فوّارةً ومُنعِشةً وذات مذاقٍ لذيذ، فأملت ماريانا أن يهدّئ المشروبُ من روعها. أخذت رشفةً ثانيةً.

سُمع طرقٌ على الباب في الأسفل. ابتسم فوشكا. «آه، لا بدّ أنه غريغ».

«غريغ؟».

«. . . مِن المطعم الجامعي».

انطلقت موجة خطوات سريعة على السَّلالم، ثم ظهر غريغوري، نادل رشيق الحركة، متأنّقاً في معطفٍ نِصفِيٍّ وربطة عنق، يحمل علبةَ طعامٍ باردةٍ في يدٍ وأخرى ساخنةً في اليد الثانية. ابتسم لماريانا.

«مساء الخير، آنستي»، قال ثم نظر إلى البروفيسور. «هل لي. . . ؟».

«بالطبع». أومأ فوشكا برأسه. «تفضّل. أعدَّ الطاولة. وسأتولى تقديم الطعام بنفسي».

«حسنٌ، يا سيّدي».

ولج إلى غرفة الطّعام. وجّهت ماريانا نظرةً مِلؤها التساؤل إلى فوشكا فردّ بابتسامة.

«لقد أردتُ أن نستمتع بخُلوةٍ لن يمنحنا إياها مطعمِ الجامعة. لكنّني لستُ طبّاخاً ماهراً، فأقنعتُ الطباخين بإحضار المطعم إلينا».

«وكيف فعلتَ ذلك؟».

«بمنحهم إكراميّةً ضخمةً، لن أفصح عن قيمتها».

«لقد تكبّدتَ عناءً بالغاً، يا بروفيسور».

«رجاءً ناديني إدوارد. وهذا من دواعي سروري، يا ماريانا».

ابتسم وحدّق فيها في صمتٍ. خالجَ ماريانا شعورٌ بعدم الارتياح، فأشاحت بنظرها بعيداً. حطّت عيناها على طاولة القهوة. . . وكُوز الصنوبر.

«ما هذا؟».

تبع فوشكا مَحَطّ نظَرِها. «أتقصدين كوز الصّنوبر؟ لا شيء فِعلاً. إنه يذكّرني بالديار. لماذا؟».

«تذركتُ صورةً عن كُوزِ صنوبرٍ في محاضرتك عن إيلوسيس».

أومأ فوشكا برأسه. «أجل بالفعل، هذا صحيح. كان كلّ عضوٍ جديد ينضم إلى الطائفة يُمنَح كوزَ صنوبر».

«فهمت. ولمَ كوزُ الصّنوبر بالذات؟».

«في الواقع، إن الأمرَ لا يتعلّق بالكُوز نفسه، بل بما يرمز إليه».

«ألا وهو؟».

ابتسم ونظر إليها لوهلة. «إنها البذرةُ... البذرةُ الموجودة داخل الكوز. البذرة الموجودة بداخلنا: الروح التي تسكن الجسد. الأمر يتعلق بتفتيح ذهنك حيال ذلك. إنه التزامٌ بالنظر إلى دواخلنا، والعثور على روحنا هناك».

حمل فوشكا الكوز، وقدّمه إليها.

«تفضّلي يا ماريانا، إنه لكِ».

«لا، شكراً». هزّتْ ماريانا رأسها رافضةً. «لا أريده».

قالت ذلك بنبرةٍ أكثر حدة مما كانت تنوي.

«حسنٌ».

نظر إليها فوشكا بابتسامة مرحة. أرجع الكوز إلى مكانه على الطاولة، وبعدما عمّ الصمت بينهما، ظهر غريغ مجدداً.

«كل شيء مُعَدٌّ، يا سيّدي. وحلوى البودينغ موضوعة في الثلاجة».

«شكراً لك».

«ليلةً طيّبةً!». أومأ إلى ماريانا وانصرف، فسمعت ماريانا وقع خطواته الرّشيقة على السلالم، ثم سمعت الباب ينغلق.

صارا وحدهما.

خيّم الصمتُ لوهلة، وظهر توتّر بينهما وهما يتبادلان النظرات، أو هكذا شعرت ماريانا على أية حالٍ. لم تستطع تحديد شعور فوشكا: ماذا يَقبَع خلفَ سلوكه الهادئ ولباقته التي تَسحَرُ الألباب؟ استعصت عليها معرفة ذلك.

أشار بيده إلى الغرفة المجاورة. «هلّا شرّفتِني؟».

12

في غرفة الطعام المظلمة ذات الجدران المكسوة بألواح الخشب، كانت الطاولة الطويلة مغطّاة بقماشٍ من الكتان الأبيض، تُضيئها شمعاتٌ طويلةٌ في شمعداناتٍ فضّيّةٍ، وكانت على طرفها قنّينة نبيذٍ أبيض مفتوحة.

وراء النافذة، انتصبتْ شجرةُ بلوطٍ سامقةٌ أمام سماءٍ تكتسيها العتمَة، وتلألأت النّجومُ من بين أغصانها. في أية ظروفٍ غير هذه، فكرت ماريانا، كان تناول الطعام في هذه الغرفة القديمة سيكون في منتهى الرومانسية.

«تفضّلي بالجلوس»، قال فوشكا.

توجهت ماريانا نحو الطاولة حيث أُعِدَّ مجلسان أحدهما مقابل الآخر. جلست، فمضى فوشكا نحو طرف الطاولة حيث وُضِع الطّعام: فخذ خروفٍ، بطاطسُ مشويةٌ، وسَلطةٌ خضراءُ.

«الرّائحةُ شهيّةٌ!»، علّق قائلاً. «صدّقيني، هذا الطعامُ ألذّ بكثيرٍ مما كنت سأحاول تولّي طبخِه بنفسي. لديّ حاسةُ تذوّق مرهَفةٌ، لكن مهاراتي في الطبخ لا تتعدّى الأساسيات، أي وصفاتُ المعكرونةِ الاعتيادية التي لقّنَتها أمٌّ إيطاليّةٌ لابنها».

ابتسم لماريانا وحمل سكّيناً كبيرةً وحادّةً لمع سَنَا ضوءِ الشموعِ عليها. راقبته وهو يُقطِّع اللحمَ بسرعةٍ ومهارةٍ.

«هل أنت إيطالي؟»، سألته.

أومأ فوشكا. «من الجيل الثاني. وصل جَدّايَ على قارب قادم من صِقِلّية».

«ونشأتَ في نيويورك؟».

«ليس تماماً. في ولاية نيويورك. في مزرعة وسطَ القِفار».

قدّم لها فوشكا عِدّة شرائحَ من لحم الضّأن، بِضعَ حبّاتِ بطاطس، وبعض السَّلَطة، ثم أعدّ لنفسه طبقاً مماثلاً.

«وأنتِ نشأت في أثينا؟».

«أجل». أومأت برأسها. «على بعد قليل منها».

«كم هذا رائع! أشعر بالغيرة حيال ذلك».

ابتسمت ماريانا. «يمكنني أن أقول الشيء نفسه عن مزرعةٍ في نيويورك».

«ليس إذا ذهبتِ إلى هناك. المكان أشبه بالمكب. لم يَسعني الانتظارُ حتّى أغادره». تلاشت ابتسامته وهو يلفظ تلك الكلمات، وبدا مختلفاً تماماً. أكثر قسوةً، وأكبر سنّاً. وَضع الطّبقَ أمامها، ثم أخذ طبقه والتفّ حول الطاولة ليأخذ مكانه. «أنا أحِبُّه نيّئاً شيئاً ما؛ آمل ألّا تمانعي ذلك».

«لا بأس».

«شهيّةً طيّبةً!»، قال لها بالفرنسيّة.

نظرت ماريانا إلى الطبق أمامها. كانت الشّرائحُ الرفيعةُ أشبهَ بأوراقٍ من اللّحم غير المَطهوّ البتّة، يكاد يكون نيّئاً، لدرجة أن بُرَيكةَ

دمٍ أخذت تتشكّلُ فوق الطبق الأبيض. شعرت بالغثيان وهي تنظر إلى ذلك.

«أشكركِ على قبول دعوتي للعشاء، يا ماريانا. فكما سبق أن قلتُ لك في الحديقة، أنت تثيرين فضولي، فلطالما يثير فضولي اهتمامُ شخصٍ ما بي. وإنه لمن الأكيد أنكِ فعلتِ ذلك». صدرت عنه ضحكةٌ خافتةٌ. «وهذه الأمسية هي فرصتي لردّ الجميل».

حملت ماريانا شوكتها، إلا أنها لم تستطع حملَ نفسها على تناول اللحم، فقررت الاكتفاء بالبطاطس والسَّلَطة، مُبعِدةً الأوراق الخضراء عن بِركة الدّم الآخذة في التّوسّع.

كان بإمكانها الشعور بوقعِ نظرات فوشكا عليها، نظرات باردة مثل نظرات الباسليق[1].

«أرى أنكِ لم تذوقي اللّحم بعد. ألن تفعلي؟».

أومأت ماريانا برأسها، ثم قصّت قطعةً صغيرةً من اللحم الأحمر ووضعتها في فمها. كان مذاقُه مبلّلاً، ومعدنيّاً. . . أشبه بمذاق الدّماء. استجمعت كامل قوّتها لتَحمِل نفسها على مضغه وابتلاعه.

ابتسم فوشكا. «حسنٌ».

مدّت ماريانا يدها إلى كأسها وشطفت طعم الدّم بما بقي في الكأس من شامبانيا.

عندما لاحظ كأسها الفارغ، قام فوشكا من مكانه. «هل لنا ببعض النّبيذ؟».

---

(1) Basilisk: حيوانٌ أسطوريّ، وهو أحد الزواحف الأسطورية الأوروبّية، يُقال إنه «ملك الثعابين» ولديه القدرة على التسبب في الموت عند اللمحة الأولى – المترجم.

توجّه إلى طرف الطاولة وصبّ لهما كأسَي نبيذ بوردو أحمر داكن. عاد وقدّم أحدهما إلى ماريانا، فحملت الكأس إلى شفتيها واحتست منه. كان المذاقُ مُشبَعاً، نفّاذاً. بدأت تشعر بتأثير الشمبانيا التي فعلت فِعلها سريعاً على مَعدةٍ فارغةٍ؛ يجب أن تُحجم عن شرب المزيد، وإلا ستصاب بالثمالة. لكنها لم تتوقف.

أخذ فوشكا مكانه مجدداً وراح ينظر إليها، مبتسماً. «أخبريني عن زوجك».

هزّت ماريانا رأسها رافضة: لا.

بدا متفاجئاً. «ولمَ لا؟».

«لا أريد الخوضَ في ذلك».

«ولا حتى اسمه؟».

«سيباستيان»، قالت بصوتٍ خافتٍ.

ولمجرد ذِكر اسمه، تجلّى طيفُه للحظة - مَلاكها الحارس - فشعرت بالأمان والهدوء يلفّانها. **لا تخافي، يا حبيبتي، دافعي عن نفسك. لا تخافي...**، همس سيباستيان في أذنها.

قرّرت ماريانا الأخذ بنصيحته، فرفعت نظرها لتواجه عينَي فوشكا دون أن يطرف لها جفن. «أخبرني عن نفسك، يا بروفيسور».

«إدوارد. ماذا تريدين أن تعرفي؟».

«أخبرني عن طفولتك».

«طفولتي؟».

«كيف كانت والدتك؟ هل كنتَ تحبها؟».

ضحك فوشكا. «والدتي؟ هل ستقومين بتحليلي نفسيّاً على مائدة العشاء؟».

«كل ما في الأمر أنّني أشعر بالفضول»، قالت ماريانا، «وأتساءل عمّا علّمتك بالإضافة إلى وصفات المعكرونة».

هزّ فوشكا رأسه. «لم تعلّمني والدتي الكثير، للأسف... ماذا عنكِ؟ كيف كانت والدتك؟».

«أنا لم أعرف والدتي أبداً».

«آه...». أومأ فوشكا برأسه. «لا أظن أنّي عرفتُ والدتي أنا أيضاً».

حطّ نظره على ماريانا يُقيّمها لوهلةٍ، سارحاً في أفكاره. كان باستطاعتها سماع رحى عقلِه وهي تدور. **إن عقلَه فَذٌّ بِحَقٍّ!** قالت في سرّها. **حادٌّ مثل الشَّفرةِ!** كان عليها أن تتوخى الحذر. اتخذت نبرةً أرادتها عفوية. «هل كانت طفولَتكَ سعيدةً؟».

«أرى أنكِ مصمّمة على تحويل هذا اللّقاء إلى حصة علاجٍ».

«ليست حصّة علاجٍ، بل هي مجرد محادثة».

«المحادثاتُ تمضي في الاتجاهَين، يا ماريانا».

ابتسم فوشكا، وانتظر. حين بدا لها أن لا خيارَ أمامها، قبِلت التّحدي.

«لا، لم تكن طفولتي سعيدةً على نحوٍ خاص. ربما كانت كذلك أحياناً. لقد أحببت والدِي كثيراً، لكن...».

«لكن، ماذا...؟».

هزّت ماريانا كتفيها. «كان الموتُ مخيّماً على جزءٍ كبيرٍ منها...».

تبادلا نظراتٍ صامتةً لبعض الوقت، ثم أومأ فوشكا ببطءٍ. «أجل، أستطيع رؤية ذلك في عينيكِ. فيهما حزنٌ عظيمٌ. أتعلمين

أنك تذكّرينني بإحدى بطلات تنيسون، **ماريانا[1] المنعزلة في المزرعة**:

"هو لم يَعُد، قالت.
أنا مُنهَكةٌ، منهَكةٌ.
ليتني كنتُ ميّتةً!"».

ابتسم فوشكا، فأشاحت ماريانا بنظرها بعيداً، وهي تشعر بنفسها مكشوفةً ومتوترة. مدّت يدها إلى كأسها وأفرغته في جوفها دفعةً واحدةً، ثم التفتت نحوه.

«إنه دورك الآن، يا بروفيسور».

«حسنٌ». ارتشف فوشكا بعض النبيذ. «هل كنتُ طفلاً سعيداً؟». هزَّ رأسَه نافياً. «لا. لم أكن كذلك».

«ولِمَ ذلك؟» ،سألت ماريانا.

لم يردّ على الفور. نهض من مكانه وتوجه إلى طرف الطاولة ليجلب قنينة النبيذ، وأعاد ملءَ كأس ماريانا وهو يتحدّث.

«بصراحة؟ لقد كان والدي رجلاً عنيفاً جداً، وقد عِشت في خوفٍ على حياتي وحياة والدتي. لقد شهدتُ اعتداءاته الوحشية على والدتي مرّاتٍ لا تعدُّ ولا تُحصى».

لم تكن ماريانا تتوقع اعترافاً على هذه الدرجة من الصّراحة.

---

(1) *Mariana*: قصيدة للورد ألفريد تنيسون، نُشرت عام 1830، مبنية على شخصية من إحدى مسرحيات شكسبير *Measure for Measure*. تحكي القصيدة العواصف النّفسيّة التي تمر بها ماريانا الشابّة التي تخلّى عنها حبيبها، والتي تتمنى الموت في نهاية كل مقطوعة (وهي الأبيات المذكورة في النص) – المترجم.

ورغم أن الصّدق اكتسى كلماته، إلّا أنها خلت تماماً من أي مشاعر، بل بدا كما لو أنه لا يشعر بأيّ شيءٍ البتّةَ.

«يؤسفني سماع ذلك»، علّقت ماريانا، «إنه لأمرٌ فظيعٌ حقّاً!».

هزّ كتفيه وأحجم عن الكلام لوهلة، ثم جلس في مكانه مجدداً. «لديكِ أسلوبٌ فعّالٌ في جعل الناس يُفصحون عن مَكنونات نفوسِهم، يا ماريانا. أرى أنكِ معالِجةٌ نفسيّةٌ بارعةٌ. فبالرغم من نيّتي عدمَ كشفِ نفسي أمامكِ، إلا أنه انتهى بي المطاف على أريكتك».

ابتسم لها موضِّحاً: «أريكتك العلاجية».

تردّدت ماريانا. «هل سبق لكَ الزواج؟».

ضحك فوشكا. «يا له من تسلسل أفكارٍ مثير! هل سننتقل من الأريكة إلى السّرير؟». ابتسم ثم أخذ رشفة أخرى من النبيذ. «لا، لم يسبق لي الزواج، لم ألتقِ المرأة المناسبة». حدّق فيها قبل أن يردف: «ليسَ بَعد».

لم تعلّق ماريانا، فيما ظلّ فوشكا يحدق فيها. كانت نظرته ثقيلةً، حادةً، ثابتةً، فشعرت ماريانا بنفسها مثل أرنب سُلطت عليه أضواء السيارة. تذكّرت الكلمة التي استعملتها زوي: «مُبهِر». لم تحتمل تلك النظرةَ أكثر من ذلك، فأشاحت بعينيها بعيداً، وبدا متسلياً برؤية ذلك.

«إنكِ امرأةٌ جميلة»، سمعته يقول، «لكن لديك أكثر من مجرد الجمال. لديك خاصّية مميزة، نوعٌ من السكون؛ سكون موجود في أعماق المحيط، أسفل الأمواج، حيث لا شيء يتحرّك. ساكنٌ جداً. . . وحزينٌ جداً».

لم تنبس ماريانا ببنت شفةٍ. لم يَرُقها إلى أين كانت تمضي بهما المحادثةُ. شعرت أنها تفقد زمامَ الأمور، هذا إذا كانت قد أمسكت

بها من الأساس. كما أنها كانت ثملة شيئاً ما، ولم تكن مستعدّةً لانتقال فوشكا المفاجئ من الرومانسيّة إلى القتل.

«تلقيتُ هذا الصباح زيارةً من المفتش العام سانغا. لقد رغب في معرفة مكان وجودي وقتَ قُتلت فيرونيكا».

نظر إلى ماريانا على أمل رؤية ردة فعلٍ ربما، لكنها لم تقدّم له شيئاً. «وماذا قلتَ له؟».

«الحقيقة. أنني كنت أعطي سيرينا درساً خصوصيّاً في إقامتي الجامعية، واقترحت أن يسألها للتأكد إذا لم يصدّقني».

«فهمت».

«لقد سألني المفتّش أسئلةً عديدةً، آخرها كان بشأنك. أتعلمين عمّاذا سأل؟».

هزّت ماريانا رأسها. «ليست لديّ أدنى فكرة».

«تساءل عن سبب تحيّزك ضدي. عمّا فعلتُه لأستحق ذلك».

«وماذا قلتَ له؟».

«قلتُ أن لا فكرة لديّ، ولكنني سأسألكِ». ابتسم، وأضاف: «وها أنا ذا أسألك الآن: ما الذي يجري، يا ماريانا؟ لقد قمتِ بتنظيم حملة ضدّي منذ مقتل تارا. ماذا لو أخبرتك أنني رجل بريء؟ كان بودّي أن أتعاون معك وأكون كبشَ فدائِك، لكن. . .».

«أنتَ لست كبشَ فدائي».

«حقاً؟ رجلٌ غريبٌ - أمريكيٌّ من الطّبقة العاملة - في العالم النّخبَوي للأكاديميا الإنجليزية؟ أبدو شاذّاً مثل خروف أسود».

«إطلاقاً». هزّت ماريانا رأسها معترِضةً. «بل يبدو لي أنك منسجم تماماً».

«حسنٌ، لقد فعلتُ ما بوسعي للانصهار في المجموعة، لكن

خلاصةَ الأمرِ أنه رغم تفوُّق الإنجليز على الأمريكيّين في إخفاء كُرههم للأجانب خلفَ قناع من اللّباقة، إلا أنني سأظل غريباً، وبالتالي ستظل نظراتُ الريبة تلاحقني». ثبّتَ نظرَه الثّاقبَ على ماريانا ثم تابع: «كَحَالِكِ أنتِ أيضاً: أنتِ لا تنتمين إلى هنا».

«نحن لا نتحدّث عنّي».

«أوه، بل إننا نفعل؛ أنا وأنتِ متشابهان، أحدُنا مِثلُ الآخر».

عبسَت في وجهه. «كلّا. لسنا كذلك البتّة».

«أوه، يا ماريانا». أطلق ضحكةً مجلجلةً. «أنتِ لست جادّةً في ظنّك أنني أقتل طالباتي، أليس كذلك؟ إنه أمرٌ سخيفٌ! رغم أن هذا لا يعني أن بعضهنّ لا يستحققن ذلك». ضحك مجدّداً، فشعرت ماريانا بقشعريرة تسري في عمودها الفقري.

حدّقت فيه مليّاً، وشعرت بأنها لمحت لتوها حقيقته الدفينة: شخصٌ قاسٍ، ساديٌّ، وعديم المشاعر. أدركت أنها تطأ أرضاً خطِرةً، لكن النبيذَ جعلها جَريئةً ومتهوّرةً، كما أنها قد لا تحظى بمثل هذه الفرصة مجدّداً. انتقت كلماتِها بعنايةٍ.

«أودّ إذاً معرفة نوع الشخص الذي تظن أنه قتلهنّ».

نظر إليها فوشكا كما لو أنه تفاجأ بالسؤال، لكنه أومأ وقال:

«لقد تأمّلتُ الأمرَ، في الواقع».

«أنا واثقة أنكَ فعلت».

«وكان أولَ ما شدّ انتباهي هو الطبيعةُ الدينيّةُ للأمر. هذا واضح. إنه شخص روحانيٌّ. في نظره على الأقل».

تذكّرت ماريانا الصّليب الضخم المعلّق في البهو. **مثلكَ**، قالت في سرّها.

ارتشف فوشكا بعض النبيذ، ثم تابع: «عمليات القتل هذه

ليست هجوماتٍ عشوائيةً. أظن أن الشرطة لم تنجح في حلّ هذا اللغز بعد. إنها من باب التضحية، عَملٌ قُربانيٌّ».

حدّجته ماريانا بنظرةٍ حادّةٍ. «عملٌ قُربانيٌّ؟».

«أجل، عمل يتعلق بطقوس إعادة الولادةِ والقيامة».

«أنا لا أرى أيةَ قيامة هنا. لا أرى شيئاً عدا الموت».

«الأمر يعتمد كلّيّاً على الطريقة التي ترينَه بها». ابتسم. «سأخبرك بشيءٍ آخرَ: إنه رجل استعراض. يحب الظهور والاستعراض».

مثلكَ، فكّرت في سرّها.

«جرائمُ القتل هذه تذكّرني بتراجيديا العصر اليعقوبيّ[1]»، تابع، «عنف وترهيب، بغية الصّدمة والترفيه».

«الترفيه؟».

«بالمعنى المسرحي للمصطلح».

ابتسم، فانتابت ماريانا رغبةٌ مفاجئةٌ في الابتعاد عنه قدر الإمكان. دفعت الطّبقَ أمامها. «لقد انتهيت».

«هل أنت متأكدة من أنك لا ترغبين في المزيد؟».

أومأت برأسها. «هذا كافٍ».

---

(1) Jacobean tragedy: المعروفة أيضاً بتراجيديا الانتقام، أو تراجيديا الدّماء - المترجم.

13

اقترح البروفيسور فوشكا أن يحتسيا القهوة مع التّحلية في غرفة المعيشة، فتَبِعتُه ماريانا على مَضَضٍ إلى الغرفة المجاورة. أشار بيده إلى الأريكة العريضة ذات اللّون الداكن قرب المدفأة. «لِمَ لا تجلسين؟».

لم تكن ماريانا ترغب في الجلوس بجانبه، في أن تكون قريبة منه إلى هذه الدّرجة، إذ جعلها ذلك تشعر بعدم الأمان. ثم خطرت لها فكرة: إذا كانت تشعر بكلّ هذا الضّيق وهي وحدها برفقته، فكيف كانت ستشعر مراهقةٌ في الثامنة عشرة من عمرها؟

هزّت رأسها. «أنا متعبةٌ. أظنّ أنني سأفوّت التّحلية».

«لا تغادري! ليس بعد. دعيني أُحضِّر بعض القهوة».

ودون أن يتيح لها فرصةً للاعتراض، غادر فوشكا الغرفة متوجهاً إلى المطبخ.

قاومت ماريانا اندفاعها للفرار، للابتعاد عن هذا المكان اللّعين. شعرت بالوهن والإحباط، وبالانزعاج من نفسها، فهي لم تحقّق شيئاً يُذكر. لم تكتشف أي شيءٍ جديدٍ، لا شيء لم تكن تعرفه من قبل. يجب أن تغادر قبل أن يعود، كي لا تضطر إلى صدِّ توكداته الغرامية... أو ما هو أسوأ من ذلك.

وهي تتداول الأمر مع نفسها، جالت الغرفة بعينيها، فحطّ نظرها على كومة صغيرة من الكتب على طاولة القهوة. حدّقت في الكتاب الأول الذي يعلو المجموعة، وأمالت رأسها لتقرأ العنوان.

مجموعة أعمال يوربيديس.

ألقت نظرة فوق كتفها نحو المطبخ. لا أثر له. مدّت يدها إلى الكتاب وحملته. كان فيه فاصلٌ من الجلد الأحمر بارزراً من طرفه.

فتحت الكتاب عند الفاصل لتجد نفسها أمام مشهد من مسرحية **إيفيجينيا في أوليس**. كان الكتاب يحوي النسخة الأصلية باليونانيّة القديمة على جهة، وترجمتها الإنجليزية على الجهة المقابلة.

كان قد سُطِّر أسفل عدّة أسطرٍ، تعرّفت إليها ماريانا في الحال. كانت الأسطر نفسها التي كُتبت على البطاقة البريديّة المرسلة إلى فيرونيكا:

ἴδεσθε τὰν Ἰλίου
καὶ Φρυγῶν ἑλέπτολιν
στείχουσαν, ἐπὶ κάρα στέφη
βαλουμέναν χερνίβων τε παγάς,
βωμόν γε δαίμονος θεᾶς
ῥανίσιν αἱματορρύτοις
χρανοῦσαν εὐφυῆ τε σώματος δέρην
σφαγεῖσαν.

«إلامَ تنظرين؟».

قدِمَ الصوت من ورائها مباشرةً، فقفزت ماريانا وأغلقت الكتاب. التفتت لتواجهه بابتسامةٍ مصطنعة. «لا شيء! كنت ألقي نظرةً فحسب».

قدّم إليها فوشكا فنجان إسبريسو صغيراً. «تفضّلي».

«شكراً».

ألقى نظرة خاطفة إلى الكتاب. «يوربيديس، كما قد تكونين استنتجتِ، هو كاتبي المفضّل. إنّه بمَنزِلة صديقٍ قديمٍ عزيزٍ».

«حقّاً؟».

«أوه، أجل. إنه الكاتب المسرحيّ الوحيد الذي ينطق بالحقيقة».

«الحقيقة؟ بخصوص ماذا؟».

«كل شيء. الحياة. الموت. وحشيّة الإنسان الفظيعة. إنه يحكي عن الأمور كما هي».

ارتشف فوشكا بعض القهوة وهو يحدّق فيها.

وفيما نظرت ماريانا إلى عينيه السوداوين، تبدّدت كل شكوكها. لقد باتت متأكدة تماماً:

كانت تنظر إلى عينَي قاتلٍ.

الجزء الرابع

حين يأتي رجلٌ ويتحدّثُ مثل والدك ويتصرّف مثله، فحتى الراشدون... سيخضعون لهذا الرّجل ويهلّلون له، سيسمحون له أن يتلاعب بهم، وسيضعون ثقتهم فيه ويستسلمون له كلّيّاً في نهاية المطاف، دون أن يعوا حقيقةَ استعباده لهم، إذ لا يَعي المرء عادةً ما هو امتداد لطفولته.

ـــ أليس ميلر، **من أجل مصلحتك**

إن الطّفولة تُظهر الرَّجُلَ
كما يُظهر الصّباحُ النهارَ.

ـــ جون ميلتون، **الفردوس المُستَرَدّ**

1

لطالما كان الموتُ، وما يحدث بعدَه، أحد أكبر اهتماماتي.

منذ ريكس، على ما أظن.

كان ريكس أولى ذكرياتي. مخلوقٌ جميلٌ، كلبُ رعيٍ ذو فروٍ أبيض وأسود. أفضل أنواع الحيوانات. لقد تحمّل مني سحب أذنيه ومحاولة الجلوس عليه وكلَّ أنواع الأذى الصادر عن طفلٍ صغير، إلا أنه كان رغم ذلك يهز ذيله كلما رآني قادماً، ويرحّب بي بحبّ. كان درساً ومثالاً في التسامح، ليسَ مرّةً واحدة، بل مراراً وتكراراً.

لقد علّمني ما هو أكثر من التسامح. لقد علّمني عن الموت.

حين كنت في الثانية عشرة من عمري تقريباً، بدأت علامات الشّيخوخة تظهر على ريكس، ولم يعد قادراً على مواكَبَة حركة القطيع. اقترحت والدتي أن نُحيله على التّقاعد، ونعوّضه بكلبٍ أصغرَ سنّاً.

كنت أعلم أن والدي لم يكن يحب ريكس، بل كنت أشكّ أحياناً أنه يكرهه. أم كان يكره والدتي؟ فهي كانت تحبّ ريكس حتى أكثر من حبّي له. أحبّته لعاطفته اللامشروطة، وانعدام كلامه. كان رفيقَها الدّائم، يعمل برفقتها طوال اليوم، وكانت تطبخ له وتعتني به بتفانٍ يفوق ما أظهرته تُجاه زوجها، كما قال لها والدي خلال إحدى مشاجراتهما التي أذكرها.

أذكر ما قاله حين اقترحت والدتي أن نُحضِر كلباً جديداً. كنا في

المطبخ، وكنتُ جالساً على الأرض أداعب ريكس، ووالدتي تطبخ عند الموقد، ووالدي يصبّ لنفسه كأسَ ويسكي، لم يكن الأول طبعاً.

«أنا لن أدفع ثمنَ طعام كلبَين اثنين! سأُردي هذا أولاً»، قال لها.

استغرق الأمرُ بضعَ ثوانٍ لأستوعب كلماتِه، لأفهم ماذا قصَدَ بالضبط. هزّت والدتي رأسها.

«لا!»، قالت. ولأول مرّة، قصدتها فعلاً. «إذا لمستَ ذلك الكلب، فَسوف...».

«سوف... ماذا؟ هل تهدّدينني؟»، سأل والدي.

كنت أعلم ما هو آتٍ بعد ذلك. يتطلب الأمر شجاعة فعليّة ليتلقّي المرءُ رصاصة مَحَلَّ أحدهم، وهذا ما فعَلَته والدتي حين دافعت عن ريكس يومَذاك.

جُنَّ جنون والدي طبعاً. أنبأني كسر كأسٍ أن الأوان قد فات. كان عليّ أن أهرب وأحتمي في مكان ما مِثلما فعل ريكس الذي قفز من بين ذراعيَّ واتجه نحو الباب. لم يكن لدي خيار آخر سوى الجلوس هناك على الأرض، عالقاً في مكاني، فيما قلب والدي الطاولة التي سقطت على بعد إنشاتٍ قليلة مني، فرنّت والدتي بإلقاء الأطباق عليه.

مضى صوبَها عبر الأطباق المكسورة، رافِعاً قبضتَيه. كانت مُوليةً المنضدَةَ ظهرَها، محاصَرة، وإذ...

حملت سكّيناً، سكّيناً كبيرةً تُستعمل في تقطيع الخواريف. رفعَتها ووجّهتها إلى صدر والدي. إلى قلبه.

«سحقاً، سأقتلك»، قالت. «أنا أقصد ذلك».

خيّم الصمت على المطبخ للحظة.

أدركتُ أنه كان من الممكن تماماً أن تُقدِم على طعنه. لكن لخيبة أملي الكبيرة، لم تفعل.

لم يَنبس والدي ببنتِ شفةٍ. التفت وغادر المكان فحسب، فسمعتُ صوتَ باب المطبخ يُصفَق خلفه.

ظلّت والدتي متسمّرةً في مكانها للحظة، ثم شرعتْ في البكاء. إنه لمِنَ الفظيع أن تشاهد والدتك وهي تبكي؛ ينتابك شعور بالوهن، بل بالعجز.

«سأقتله من أجلك»، قلتُ لها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لكن هذا جعلها تبكي بحرقة أكبر.

وإذ... سمعنا صوت طلقة رصاص.

تلتها طلقة أخرى.

لا أذكر الخروج من المنزل، ولا الهرولة إلى السّاحة. كلّ ما أذكره هو رؤية جسد ريكس المرتخي الدّامي على الأرض، ووالدي يمضي مبتعداً، حاملاً بندقيّته.

شاهدتُ ريكس فيما كانت الحياة تسيل خارج جسده، وعيناه تتحولان إلى زجاجٍ باردٍ، إلى جمادٍ. صار لسانه أزرقَ، وتصلّبت أطرافُه شيئاً فشيئاً. لم أستطع التوقّف عن التّحديق فيه. راودني شعورٌ – في تلك السّنّ المبكرة – أن مشهدَ هذا الحيوانِ النّافقِ سيطبعُ حياتي إلى الأبد.

الوبر الناعم المبلّل. الجسدُ المحطّم. الدّماء. أغمضتُ عينيّ، لكنها لم تفارق بصري رغم ذلك.

الدّماء.

لاحقاً، حين حملتُ ووالدَتي ريكس إلى الحفرة ورمَيناه ليستقّر في أعماقها ويتحلّل مع باقي الهياكل العظميّة غيرِ المرغوبِ فيها، عرفتُ أن جزءاً منّي مضى معه. الجزء الصالح.

حاولت استِدرار بعض الدّموع من أجله، لكنني عجزت عن البكاء. لم يسبق لذلك الحيوان المسكين أن آذاني قطّ؛ لم أر منه سوى الحب واللّطف.

ومع ذلك، عجزت عن البكاء من أجله.

كنت أتعلّم كيف أكره عوض ذلك.

كان لبابٌ من الكراهية، باردٌ وقاسٍ، يتشكّل في قلبي، مثل ماسة في قطعة فحم داكنة.

أقسمت على ألّا أسامح والدي. أن أنتقم منه يوماً. لكن إلى ذلك الحين، إلى حين أن أكبر، كنت عالقاً.

فانسحبت ولجأتُ إلى خيالي. في خيالاتي، كان والدي يتعذّب.

وكذلك كنتُ.

في الحمّام، خلف بابٍ مقفل، في المَتبَنة، خلف الحظيرة... خفيةً، بعيداً عن الأنظار، كنت أهربُ من هذا الجسد... من هذا العقل.

كنت أجسّد مشاهدَ موتٍ فظيعة العنف: تسميمٌ قاتلٌ، طعن همجيّ، نبح، نزع الأحشاء، أتعرض للإغراق والتمزيق والتّعذيب الوحشيّ حتى الموت.

كنت أقف فوق سريري وأُعدّ نفسي ليُضحّى بي من قِبل كهنة وثنيين. كانوا يمسكون بي ثم يُلقون بي من فوق الجرف إلى الأسفل، إلى البحر، إلى الأعماق السّحيقة المظلمة... حيث تدور الوحوش البحريّة في حلقاتٍ، تنتظر أن تلتهمني.

كنت أغمض عَينَيّ وأقفز من فوق السّرير.

فأُمزّقُ إلى أشلاءٍ ونُتَفٍ.

2

غادرت ماريانا إقامة البروفيسور فوشكا الجامعيّةَ وهي تشعر بأنها غير ثابتة على قدميها.

لم يكن ذلك بسبب النّبيذ والشمبانيا - رغم أنها شربت أكثر من اللازم - بل بسبب الصدمة الناجمة عمّا رأته لتوها: الاقتباس باليونانية القديمة الذي كان مسطّراً تحته في كتابه. كم هو غريب، فكّرت في سرها، أن يكون للحظاتِ الوضوحِ نسيجٌ مشابهٌ للسُّكْر.

لم يكن باستطاعتها الاحتفاظ بذلك لنفسها. كان لا بد أن تشاركه مع أحد. لكن من؟

توقّفت وسط السّاحة لتفكّر في الأمر مليّاً. لا جدوى من الذهاب إلى زوي الآن، ليس الآن، ليس بعد محادثتهما الأخيرة. لن تأخذ زوي كلامَها على محمل الجد. كانت في حاجة إلى أذنٍ مُتعاطفةٍ. فكرت في كلاريسا، لكنها لم تكن متأكدة من أنها ستصدّقها.

ظلّ أمامها شخصٌ واحدٌ.

أخرجت هاتفها، واتصلت بفْريد. قال إنه سيكون سعيداً بالتحدّث إليها، واقترح أن يلتقيا في غارديز بعد عَشر دقائق.

كان ذي غاردينيا، المحبوب والمعروف لدى أجيالٍ من الطّلبة باسم غارديز، مطعماً يونانيّاً في قلب كامبريدج، يقدّم وجباتِ عشاءٍ سريعة حتّى وقت متأخر من اللّيل. مشت ماريانا إلى هناك سالكةً ممر الرّاجلين المقوّس، وقد ملأت أنفَها رائحةُ غارديز الشّهيّة قبل أن تراه، إذ رحّبت بها رائحة السّمك ورقائق البطاطس المقلية.

كان غارديز مكاناً ضيّقاً - بالكاد يتّسع لعدد قليل من الزبائن - لذا يتجمّع الناس خارجه ويتناولون طعامهم في الزّقاق. كان فريد في انتظارها عند المدخل، أسفل لافتة خضراءَ كُتب عليها: **خذ استراحةً على الطريقة اليونانيّة.**

ابتسم فريد لماريانا وهي تقترب منه.

«مرحباً. هل ترغبين في بعض رقائق البطاطس المقليّة؟ على حسابي».

ذكّرت رائحةُ القليِ ماريانا بأنها جائعة، إذ كانت بالكاد قد لمست ذاكَ الطبق الدّموي. أومأت بامتنان. «أجل، بكل سرور».

«ستأتيكِ في الحال، يا آنستي».

قفز فريد نحو المدخل وتعثّر عند العتبة واصطدم بزبونٍ آخر، فما كان من هذا الأخير إلا أن شتمه. ابتسمت ماريانا رغماً عنها، إذ كان فريد من أكثر الأشخاص خَرَقاً الذين التقتهم في حياتها. ولم يلبث كثيراً حتى ظهر مجدّداً وفي يده كيسان ورقيّان أبيضان طافحان برقائق البطاطس الساخنة.

«تفضلي»، قال مبتهجاً. «كاتشب؟ مايونيز؟».

هزّت ماريانا رأسها. «ولا واحد منهما، شكراً». نفخت على الرّقائق لبعض الوقت على أمل أن تبرد قليلاً ثم تذوّقت إحداها. كانت مالحةً، وفيها طعم خلّ قويّ. سعلت، فنظر إليها فريد بقلقٍ.

«هل فيها خلّ أكثر من اللازم؟ أعتذر، لقد زلّت يدي».

«لا عليك». ابتسمت ماريانا وهزّت رأسها. «طعمها رائع».

«جيّد».

وقفا هناك لبعض الوقت، يأكلان الرقائق في صمتٍ. اغتنمت ماريانا الفرصة لتسترق النظرات إليه. لقد جعل ضوء الإنارة الخافت تقاسيمَ وجهه تبدو حتى أصغر سنّاً. إنه طفل، قالت في سرّها. طفلٌ من الكشّافة تملؤه الحماسة. شعرت بمودة تجاهه في تلك اللحظة.

انتبه فريد إلى أنها تنظر إليه، فابتسم لها بخجلٍ. تكلّم بين المضغة والأخرى. «سأندم على قولي ذلك، أنا متأكد، لكنني سعيدٌ باتصالك. هذا يعني أنك اشتقتِ إليّ، ولو قليلاً جداً...». نظر إلى تعابير وجهها، فتلاشت ابتسامته. «آه. أرى أنني مخطئ. لم يكن هذا سبب اتصالك».

«لقد اتصلتُ بك لأن أمراً ما قد حدث، وأرغب في التحدّث إليكَ بشأنه».

عاد وجه فريد ليشرق بشيءٍ من الأمل. «إذاً، أنت أردتِ فعلاً التحدث إلي؟».

«آه، فريد». قلبت ماريانا عينيها. «هلّا أنصتَّ فحسب».

«طيّب، طيّب، تفضّلي».

واصل فريد تناول طعامه فيما روت له ماريانا الأحداث. عثورها على البطاقتين البريديّتين، واكتشاف العبارة ذاتها مسطّراً تحتها في كتاب فوشكا.

ظل صامتاً بعد أن أكملت، وقال في النهاية: «ماذا ستفعلين؟».

هزّت ماريانا رأسها في قلّة حيلة. «لا أدري».

مسح فريد الفُتات عن فمه، وكوّمَ الكيسَ الورقيَّ، ثم ألقى به في حاوية القمامة.

نظرت إليه ماريانا، تحاول قراءة تعابير وجهه. «أنتَ لا تظنّ أنني... أتخيّل ذلك؟».

«لا». هزّ فريد رأسه. «أنا لا أظن ذلك إطلاقاً».

«رغم أن لديه حجةَ غيابٍ... في كلا الجريمتين؟».

هزّ فريد كتفيه. «إحدى الفتيات التي منحته حجة غياب ميّتةٌ الآن».

«أجل».

«ومن المحتمل أن تكون سيرينا تكذب».

«أجل».

«وهناك احتمال آخر، بالطبع...».

«ألا وهو؟».

«أن يكون أحد ما متواطئاً معه. أن يكون له شريك».

حدّقت فيه ماريانا. «لم يخطر لي هذا الاحتمال».

«ولم لا؟ هذا يفسّر كيف يمكن أن يكون في مكانَين في الآن نفسه».

«ممكن».

«لا تبدين مقتنعة».

هزّت ماريانا كتفَيها. «لا يبدو لي شخصاً من النوع الذي قد يكون له شريك. أظنّه أقرب ما يكون إلى ذئبٍ متوحّدٍ».

«ربما». فكّر فريد للحظة. «على أية حال، نحن بحاجة إلى دليلٍ ما، إلى شيءٍ ملموسٍ، وإلا لن يصدّقنا أحد».

«وكيف يمكننا الحصول على ذلك؟».

«سنفكّر في شيءٍ ما. لنلتقي غداً صباحاً ونضع خطة».

«لا يمكنني ذلك غداً، يجب عليّ الذهاب إلى لندن. لكن سأتصل بك عند عودتي».

«حسنٌ». خفض صوته وأضاف: «لكن انتبهي يا ماريانا، فلا بد أن فوشكا يعلم أنكِ تتعقّبينه، لذا...».

توقّف دون أن يكمل جملته، فأومأت ماريانا برأسها. «لا تقلق. أنا أتوخّى الحذر».

«جيد». صمت فريد لوهلة. «بقيَ هناك شيءٌ واحد فقط لأقوله»، قال مبتسماً. «أنت تَبدين جميلة جداً اللّيلةَ... هلّا منحتني شرف أن تصيري زوجتي؟».

«لا»، ردّت ماريانا وهي تهزّ رأسها. «لن أفعل. لكن شكراً جزيلاً على رقائق البطاطس».

«على الرّحب والسّعة!».

«ليلةً طيّبةً!».

ابتسما أحدهما للآخر، ثم التفتت ماريانا ومضت إلى حال سبيلها. وحين بلغت نهاية الشارع، ألقت نظرة وراءها ولا تزال الابتسامة تعلو وجهها... لكن فريد كان قد اختفى.

غريب! بدا كما لو أنّه تبخّر في الهواء.

وهي تعود أدراجها إلى الكلية، رنّ هاتف ماريانا. أخرجته من جيبها ونظرت إلى الشّاشة. كان رقم المتّصل محجوباً.

تردّدت قبل أن تفتح الخطّ. «ألو؟».

لا جواب.

«ألو؟».

صمتٌ على الطرف الآخر من الخط... ثم صوتٌ هامس.

«مرحباً ماريانا».

تجمّدت في مكانها. «مَن المتّصل؟».

«أستطيع رؤيتك، يا ماريانا. أنا أراقبك...».

«هنري؟». كانت متأكدة أنه هو. لقد عرفت صوته. «هنري، أهذا أنت...؟».

انقطع الاتصال. ظلّت ماريانا واقفةً في مكانها، تحدّق في الهاتف. خالجها شعورٌ عميقٌ بالانزعاج والقلق. تلفّتت حولها، لكن الشارع كان مُقفِراً.

3

صباح اليوم الموالي، استيقظت ماريانا باكراً للذهاب إلى لندن. حين غادرت غرفتها وعبرت السّاحة الرئيسيّة، ألقت نظرةً صوب الممر المقنطَر المؤدي إلى ساحة المَلاك.

وها هو ذا - إدوارد فوشكا - واقف هناك عند السّلالم، يدخّن سيجارة.

لكنّه لم يكن وحده. كان يتحدث إلى أحدهم، إلى بوّابٍ مولٍ ماريانا ظهرَه. وكان جليّاً، من بنيته وطوله، أنه موريس.

هرعت ماريانا نحو الممر المقنطَر، اختبأت خلفه، وتقدّمت بحذرٍ لتسترق النظر إلى المشهد أمامها.

أنبأها حدسُها أن الأمرَ يستحقّ التّحرّي؛ شيءٌ ما بخصوص التعابير على وجه فوشكا، نظرةُ انزعاجٍ مكتومٍ لم ترَها من قبل. خطر لها ما قاله فريد آنفاً: أن شخصاً ما متواطئٌ مع فوشكا، أن لديه شريكاً.

أيمكن أن يكون موريس؟

رأت فوشكا وهو يضع شيئاً في يد موريس. مظروف محشوّ على ما بدا لها. ما الذي يحتويه ذلك المظروف؟ أوراقٌ نقديّةٌ؟

شعرت ماريانا بخيالها يسرحُ بها بعيداً، فتركته يسرح. أكان موريس يبتزّ فوشكا؛ أهذا ما في الأمر؟ هل كان يتلقّى مقابلاً عن التزامه الصمت؟

أكان هذا الدليل المَلموس الذي كانت بحاجة إليه؟

التفت موريس فجأةً، وسار مبتعداً عن فوشكا وفي اتجاه ماريانا.

تراجعت إلى الوراء وألصقت ظهرها بالجدار. مشى موريس عبر الممر المقنطَر، ماراًّ من أمامها دون أن يلاحظ وجودها. راقبته ماريانا وهو يمضي عبر الساحة الرئيسية، ثم عبر البوّابة الخارجية.

وسرعان ما تبعته.

4

هرعت ماريانا خارج البوّابة، وحافظت على مسافةٍ آمنةٍ في الشارع بينها وبين موريس، الذي بدا غير مدرك أنه ملاحَقٌ. مضى مَزهوّاً، يصفّر في ابتهاجٍ، مستمتعاً بالمشي دون أدنى استعجالٍ.

واصل المشي بمحاذاة كلية إيمانويل والمنازل ذات الحدائق الأمامية على طول الشّارع، مروراً بالدّراجات المربوطة إلى الأسْيِجة. ثم انعطف يساراً في طريق ضيّقة واختفى عن الأنظار.

أسرعت ماريانا تحثُّ الخطى نحو تلك الطريق. نظرت صوبها. كانت زقاقاً ضيّقاً، بصفَيّ منازل مرصوصةٍ على كِلا جانبَيه.

كان الزّقاق طريقاً مسدودة، إذ انتصب حائط في نهايته: حائطٌ عتيق من القرميد الأحمر، مغطّى باللّبلاب الزاحف فوقه.

تفاجأت ماريانا أن موريس واصل طريقه متجهاً نحو الحائط.

وقف أمامه، مدّ يده نحو إحدى الفراغات التي تركتها قرميدة منكسرة وسط الحائط، أمسك بها بإحكام، وسحب نفسه أعلى الجدار وتسلّقه بمنتهى السهولة، واختفى في الجهة الأخرى.

سُحقاً! شتمت ماريانا في سرّها، وتوقّفت لحظة لتفكّر.

ثم هرعت نحو الحائط، وتأمّلته لوهلة. لم تكن متأكدة من أن

بإمكانها أن تفلح في ذلك. فحصت القرميد بسرعة، ووقع نظرها على فراغٍ تستطيع أن ترتكز عليه.

مدّت يدها وتشبّثت به بإحكام... لكن القرميدة سقطت خارج الجدار، فسقطت هي بدورها على ظهرها.

رمَت القرميدة بعيداً ثم حاولت مجدّداً.

تمكّنت هذه المرّة من سحب نفسها إلى أعلى، وبصعوبةٍ بالغةٍ، تسلّقت الحائط وسقطت في الجهة الأخرى...

لتهبط في عالمٍ مختلفٍ تماماً.

5

في الجهة الأخرى من الحائط، لم تكن هناك طريق. ولا منازلُ. عشبٌ برّيٌّ، وأشجارٌ صنوبر، وآجامُ توتٍ برّيٍّ غير مشذّبة، هذا كل ما كان هناك. استغرق الأمر من ماريانا بضع ثوانٍ لتدرك مكانها.

كانت هذه المقبرةَ المهجورةَ على شارع ميل رود.

لقد سبقَ لماريانا أن جاءت إلى هنا، قبل عشرينَ سنةٍ، حين كانت تستكشف الأرجاء رفقةَ سيباستيان ذاتَ مساءٍ صيفيٍّ قائظٍ. لم تَرُقها المقبرة حينها؛ فقد بدَت لها كئيبةً مُقفِرةً، ومهجورةً.

ولم يرقها المكانُ الآنَ أيضاً.

نهضت وألقت نظرةً في الأرجاء. لا أثر لموريس. أصاختِ السّمعَ: كان المكان هادئاً تماماً، لا صوت وَقعِ أقدامٍ، ولا زَقزقة طيورٍ حتّى. صمتُ الموت المُطبق فحسب.

نظرت إلى الممرّات المتداخلة أمامها بين بحرٍ من القبور تكسوها أُشنَة وأَجمة غير مشذَّبة. كانت الكثير من شواهد القبور قد سقطت أو انشطرت شطرَينِ، ما ألقى بظلال قاتمة ومسنّنة على العشب الكثيف، كما كانت الأسماء والتّواريخ قد مُحيَت عن

الشواهد منذ زمن طويل بسبب مرور الوقت والطقس الرديء. كل هؤلاء النّاس المنسيّين، كل هذه الحيَواتِ المنسيّة جعلت المكانَ ينضَحُ بشعور بالفَقد والتّفاهة، ولم يَسع ماريانا الانتظار لمغادرته.

مضت تشقُّ طريقها عبر الممرّ الأقرب إلى الحائط، إذ لم تكن ترغب في التّوَهان. ليس الآن.

توقّفت وأصاخت السّمع، لكن لا صوت وَقعِ أقدامٍ مجدّداً.

لا شيء. لا صوت إطلاقاً.

لقد فقدتْ أثرَه.

لعلّه رآها فقادها إلى هنا عمداً، بغية تضليلها؟ لا جدوى من المواصلة إذاً.

كانت على وشك الالتفات والعودة أدراجها، حين شدَّ انتباهَها تمثالٌ كبير: ملاكٌ ذكرٌ مثبت على صليبٍ، ذراعاه مفرودتان، مع جناحين كبيرين مشقوقين. حدّقت ماريانا في الملاك للحظة، مفتونة. كان التّمثال ملطّخاً ومكسوراً، لكن جميلاً رغم ذلك. وبدا شَبَه سيباستيان قليلاً.

ثم لاحظت ماريانا شيئاً: خلف التمثال وأوراق الشجر، كانت هناك شابةٌ تتقدّم على أحد الممرات. تعرّفت إليها ماريانا في الحال.

إنها سيرينا.

لم تنتبه سيرينا إلى وجود ماريانا، وتقدّمت نحو قبرٍ مستطيلِ الشّكل، كان رخاماً أبيض فيما مضى، لكن لونه استحال إلى لونٍ رماديٍّ وأخضرَ طُحلُبانيّ، تحيط به الأعشاب البرّيّة.

جلست فوقه، أخرجت هاتفها ونظرت إليه.

اختبأت ماريانا خلف شجرة قريبة واسترقت النّظر من بين أغصانها.

راقبت ماريانا المشهد، فيما رفعت سيرينا رأسها، وظهر رجل من خلف أوراق الشجر.

إنه موريس.

تقدّم موريس نحو سيرينا. لم ينبس أيٌّ منهما ببنتِ شفةٍ. نزع قبّعته وعلّقها على أحد الشواهد، ثم أمسك برأس سيرينا، وبحركةٍ فُجائية عنيفةٍ، شدّها إليه وراح يقبّلها بقوّةٍ.

راقبت ماريانا موريس وهو يمدّد سيرينا فوق الرّخام، دون أن يتوقّف عن تقبيلها، ثم شَرَعا في ممارسة جنسٍ عنيفٍ وحيوانيٍّ. ورغم شعورها بالاشمئزاز حيال ذلك، لم تستطع مريانا الإشاحة بنظرها.

أعقبَ ذلك صمتٌ تامٌّ، وظلّا ساكنَين لوهلةٍ، ثم نهض موريس، عدّل لباسه، ثم التقط قبّعته ونفض عنها الغبار.

ارتأت ماريانا أن تغادر المكان، فتراجعت خطوةً إلى الوراء... وإذ بغُصين ينكسر تحت قدمها، مصدراً صوتاً مسموعاً.

عبر الأغصان، رأت موريس وهو ينظر من حوله. أشار إلى سيرينا بالتزام الصّمت، ثم اتجه خلف إحدى الأشجار، فغاب عن نظر ماريانا.

التفتت ماريانا وهرعت نحو الممر. لكن أيّ هذه الممرّات يؤدي إلى البوّابة؟ قررت الرجوع من حيث أتت، بمحاذاة الحائط، فالتفتت...

وإذا بموريس واقفٌ خلفها مباشرةً.

حدّق فيها بأنفاس متقطّعة، وخيّم صمتٌ ثقيلٌ لبضع ثوانٍ.

تكلّم موريس بصوت خافت. «ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم؟».

«ماذا؟ أستسمحك عذراً؟»، قالت وهي تحاول تجاوزه، لكن موريس قطع عليها الطريق وابتسم.

«لقد استمتعتِ بالعرض، أليس كذلك؟».

شعرت ماريانا بخدَّيها يتورّدانِ، فأشاحت بنظرها بعيداً.

قهقه ضاحكاً. «أنا أرى جيداً ما يخالج ذهنكِ. أنت لا تخدعينَني، ولو للحظة. فأنا أراقبكِ عن كثب منذ البداية».

«ماذا تقصد بكلامك هذا؟».

«أقصد لا تَحشُري أنفكِ اللّعين في شؤون غيركِ - كما كان يقول جدّي - وإلا سيُقطع. أفهمتِ؟».

«هل تهدّدُني؟».

حاولت ماريانا أن تبدو أكثر شجاعة من شعورها الحقيقي. اكتفى موريس بالضّحك وحدّجها بنظرةٍ أخيرةٍ، ثم استدار ومشى مُتسكعاً.

ظلّت ماريانا متسمِّرةً في مكانها، خائفةً، مرتجفةً، غاضبةً، وعلى وشك البكاء. شعرت بالشلل وبنفسها متجذرة في مكانها، ثم رفعت نظرها ولمحت التمثال، فرأت الملاك يحدق فيها بذراعيه المفرودتَين، كما لو كان يعرض عليها عناقاً.

شعرت لحظتَها بشوقٍ غامرٍ لسيباستيان، اشتاقت لأن يأخذها بين ذراعَيه، ويطمئنها، ويحاربَ من أجلها. لكنه رحل.

وسيتعيَّن على ماريانا أن تتعلّم أن تحارب من أجل نفسها.

6

استقلّت ماريانا القطار السّريع إلى لندن.

لم يتوقّف في أيّة محطةٍ على الطريق، وبدا أنه يسابق الزّمن لبلوغ وجهته. شعرت ماريانا كما لو أنه يمضي بسرعةٍ أكبر من اللازم، يرتجُّ ويهتزُّ فوق السّكّة بجنونٍ، يكاد يفقد السّيطرة. كانت السّكّة تُصدر صريراً، صوتٌ حادٌّ يمزق طبلتَي أذنَيها، كما أنه لم يكن من الممكن إغلاق باب المقصورة بإحكامٍ، فظلّ ينفتح وينغلق بقوة، وكانت كل خبطةٍ تذهلها وتقطع حبل أفكارها.

كان لديها الكثير لتفكّر فيه. ظلّ يواكبها شعور عميق بالانزعاج إثر مواجهتها مع موريس. حاولت أن تستوعب الأمر. إذاً، فهو الرّجل الذي كانت تواعده سيرينا سرّاً؟ لا عجبَ أنهما أبقَيا الأمر طَيَّ الكتمان، إذ كان موريس سيخسر وظيفته إذا اكتُشفت علاقته بإحدى الطالبات.

أمِلتْ ماريانا أن يكون هذا كلَّ ما في الأمر، لكنها شكّت في ذلك، لسببٍ ما.

كانت لموريس صلة بفوشكا، لكن ما طبيعتها؟ وكيف ارتبط

ذلك بسيرينا؟ هل كانا يبتزّان فوشكا معاً؟ وإذا صحّ ذلك، فهي لعبة خطيرة، إثارةُ حقدِ شخصٍ معتلٌ نفسياً، شخصٍ قد قتل مرّتين حتى الآن.

كانت ماريانا مخطئةً بشأن موريس، لقد رأت ذلك الآن. لقد وقعت في فخ سلوكياته على الطراز القديم، إلا أنه كان أبعد ما يكون عن الرجل الخلوق! استحضرت نظرتَه الخبيثة حين هدّدها. لقد أراد بثّ الرّعب في نفسها... وقد نجح في ذلك.

بام! خبطةٌ جديدةٌ! صُفِق بابُ المقصورة مجدّداً، ما جعلها تقفز في مقعدها.

توقفي! قالت في سرّها. **أنت تدفعين بنفسكِ إلى الجنون.** كانت بحاجة إلى أن تشتت انتباهها، أن تفكر في شيء آخر.

أخرجت نسخة من **المجلة البريطانية لعلم النّفس** التي كانت في حقيبتها وتصفّحتها. حاولت قراءة بضع صفحات، لكنها عجزت عن التركيز. كان هناك شيءٌ آخر يضايقها: لم تستطع التّخلص من شعورها بأنها مراقَبة.

ألقت نظرة من فوق كتفها، على أرجاء المقطورة. كان هناك بعض الأشخاص، لكن لا أحدَ تعرفه أو استطاعت التعرّف إليه على الأقل. كذلك لم يَبدُ أن أحدَهم يراقبها.

لكن رغم ذلك، لم تستطع التخلص من الشعور بأن أحدهم يراقبها. ومع اقتراب القطار من لندن، خطرت لها فكرةٌ أثارت أعصابها.

ماذا لو كانت مخطئةً بشأن فوشكا؟ ماذا لو كان القاتلُ شخصاً غريباً، محجوباً عنها، جالساً هنا، في هذه المقطورة، في هذه

اللّحظة، يراقبها؟ سَرَت رعشةٌ في جسدها وهي تفكّر في ذلك.

بام! خبطة جديدة! إنه الباب اللّعين مجدّداً.

وخبطةٌ أخرى.

وأخرى.

7

توقّف القطار بعد قليل في محطة كينغز كروس، وعند مغادرتها المحطّة، ظلّت ماريانا تشعر بأنها مراقَبةٌ. شعورٌ وخّازٌ زاحِفٌ بأن هناك عينَين موجهتين على مؤخرة رأسها.

التفتت فجأةً، مقتنِعةً بوجود أحد خلفها، وجزءٌ منها يتوقع رؤية موريس. . .

إلا أنه لم يكن هناك.

ومع ذلك، ظلّ الشعور نفسه يطاردها، فوصلت إلى منزل روث مكبّلة بالقلق والبارانويا. **لعلّي جننتُ!** قالت في سرّها. **لعلّ هذا ما في الأمر!**

لكن سواء كانت مجنونةً أم لا، لم يكن هناك شخصٌ آخرُ في العالمِ ترغب في رؤيته أكثر من هذه السيدة العجوز التي تنتظرها في المنزل رقم 5 بشارع ريدفرن ميوز، بحيث شعرت بالارتياح فور قرعها الجرس.

كانت روث مدرِّبةَ ماريانا العلاجية حين كانت طالبة، وبعد أن تخرّجت، اتخذت روث دور مشرفتها. ويلعب المشرف دوراً مهمّاً في حياة المعالج النّفسيّ، إذ كانت ماريانا تَرجع إليها وتخبرها عن

مرضاها وعن مجموعاتها العلاجية، فتساعدها روث في فكّ خيوط مشاعرها، والتمييز بين مشاعرها ومشاعر مرضاها، وهو أمر ليس بالسهل. فمن دون إشراف، قد يغرق المعالِج النفسي في المآسي التي من المفترض أن يحتويها، وقد يفقد تلك الموضوعيّة الضّرورية للقيام بعمله بفعاليةٍ.

بعد وفاة سيباستيان، دأبت ماريانا على لقاءِ روث بشكل أكثر انتظاماً، إذ كانت بحاجةٍ إلى دعمها أكثر من أيّ وقت مضى. كان ذلك أشبه بالعلاج النّفسيّ، وقد اقترحت روث أن تعود ماريانا إلى العلاج، وتسمح لروث بأن تعالجها. لكن ماريانا رفضت. لم يكن بإمكانها تحديد سبب ذلك بالضبط، لكنها علمت أنها لم تكن بحاجة إلى علاجٍ نفسيٍّ، بل ما كانت تحتاج إليه هو سيباستيان، وكل الكلام في العالم لن يعوّضها عنه.

«ماريانا، عزيزتي!»، قالت روث وهي تفتح الباب وقد علت وجهَها ابتسامةٌ عريضة. «هلّا تفضّلتِ بالدّخول؟».

«مرحباً رُوث».

كان من دواعي سرورها دخول ذلك المنزل، ودخول غرفة المعيشة تلك التي لطالما فاحت منها رائحةُ الخزامى، وسماع الدقّات المطمئنة للسّاعة الفضّيّة الموضوعة على رفّ الموقد.

استقرت في مقعدها المعتاد على حافة الأريكة الزرقاء الباهتة، وجلست روث قبالتها على مقعد ذي مسند للذراعين.

«بدوتِ قلقةً جداً على الهاتف»، قالت روث. «لمَ لا تخبرينني بما جرى، يا ماريانا؟».

«من الصّعب عليّ تحديد من أين أبدأ. أفترض أن الأمر بدأ مع اتصال زوي من كامبريدج ليلَتَها».

ثم شرعت ماريانا في سرد الأحداث بأكبر قدرٍ من الشرح والوضوح، فأصغت إليها روث بإيماءاتٍ من رأسها من حين لآخر، لكن دون أن تتكلم قدر الإمكان. وحين انتهت ماريانا، ظلّت روث صامتةً لبعض الوقت، ثم تنهّدت على نحوٍ يكاد يكون غير ملحوظٍ - تنهيدةً حزينةً منهَكةً عكسَت معاناة ماريانا ببلاغةٍ يعجز عنها الكلام.

«أستطيع الشّعور بالضغط الذي يسبّبه لك ذلك، بحاجتكِ لأن تكوني قويّة، من أجل زوي، من أجل الكلية، من أجل نفسكِ...».

هزّت ماريانا رأسها. «لستُ أنا من يَهُمُّ. بل زوي، وأولئك الفتيات... أنا خائفة جداً...». امتلأت عيناها بالدّموع، فانحنت روث إلى الأمام ومدت لها علبة المناديل، فأخذت ماريانا منديلاً ومسحت عينيها.

«شكراً. أنا آسفة. حتى أني لا أدري لماذا أبكي».

«أنت تبكين لأنكِ تشعرين بالعجز».

أومأت ماريانا برأسها. «أجل. هذا ما أشعر به».

«لكن هذا غير صحيح. أنتِ تعلمين ذلك، أليس كذلك؟». أومأت روث برأسها لتشجّعها ثم تابعت: «أنتِ أكثر قدرةً على التّعامل مع الأمر مما تفترضين. فالكلية، في نهاية المطاف، ليست سوى مجموعة أخرى يسكنها المرضُ. وإذا كان شيءٌ من هذا النوع - سامٌّ، خبيث، وقاتل - يجري في إحدى مجموعاتك...».

لم تكمل روث جملتها، فراحت مايانا تتأملّ كلامها.

«ماذا كنتُ سأفعل؟ إنه سؤالٌ وجيهٌ». أومأت برأسها. «أفترض... أنني كنت سأتحدّث إليهم. أقصد كمجموعةٍ».

«هذا ما كنت أفكر فيه بالضّبط». لمع بريقٌ في عينَي روث وهي تقول ذلك. «تحدّثي إلى هؤلاء الفتيات - البُتُل - ليس على نحوٍ فرديٍّ، بل كمجموعة».

«في علاج جماعيّ، تقصدين؟».

«لِمَ لا؟ نظّمي جلسةً معهنّ، ولاحظي ما ينجم عن ذلك».

ابتسمت ماريانا رغماً عنها. «إنها فكرةٌ مثيرةٌ للاهتمام بحقٍّ. لا أدري كيف سيَسْتَجِبْن لذلك».

«فكّري في الأمر، هذا كل ما أطلب منك. فكما تعلمين، إن أفضل طريقةٍ لعلاج المجموعة...».

«... هي كمجموعةٍ». أومأت ماريانا موافقةً. «أجل، أرى ذلك».

صمتت للحظة. إنها نصيحةٌ صائبةٌ... قد تبدو صعبة التطبيق، لكنها لمست شيئاً كانت ماريانا تعرفه وتؤمن به، فشعرت بنفسها تطفو إلى السطح من جديد. ابتسمت بامتنانٍ. «شكراً لك».

ترددت روث. «هناك أمرٌ آخر. أمرٌ يصعب قوله شيئاً ما... أمرٌ لفت انتباهي بخصوص ذلك الرجل، إدوارد فوشكا. أريدك أن تتوخّي الحذر...».

«أنا أتوخّى الحذر بالفعل».

«من نفسك؟».

«ماذا تقصدين؟».

«حسناً، من المفترض أن يكون هذا الوضع قد أيقظ فيك شتى أنواع المشاعر والارتباطات... ويفاجئني أنك لم تذكري والدك ولو لمرة».

حدّجتها ماريانا بنظرة استغراب. «وما علاقة والدي بفوشكا؟».

«يتمتع كلاهما بالكاريزما، وبالنفوذ ضمن مجتمعهما... كما أن كليهما نرجسيان، على ما يبدو لي. وأتساءل عمّا إذا كانت تراودكِ الرغبةُ نفسُها في كسب قلب هذا الرجل، إدوارد فوشكا، كما كان الحال مع والدك».

«كلّا». استاءت ماريانا من روث لذكرها ذلك. «كلّا»، أكّدت مجدّداً. «وعلى أية حال، فإنني أختبر تحويلاً[1] سلبيّاً تجاه إدوارد فوشكا».

تردّدت روث مجدّداً. «إن مشاعرك تجاه والدك لم تكن مسالمةً تماماً».

«إن الأمر مختلفٌ هنا».

«حقاً؟ ما زال الأمر صعباً عليك حتى اللحظة، أليس كذلك؟ أن تنتقديه، أو تعترفي بأنه خذلك وخيّب أملك على نحوٍ جوهري. إنه لم يمنحك - ولا مرّة - الحب الذي كنت تحتاجين إليه. لقد تطلّب الأمر منك وقتاً طويلاً لتتمكني من رؤية ذلك، وتسميته».

هزّت ماريانا رأسها. «صدقاً، يا روث، لا أعتقد أن لوالدي علاقةً مع أي من هذا».

نظرت إليها روث بشيء من الحزن. «لديّ شعور بأن لوالدكِ دوراً محوريّاً في كل هذا على نحوٍ ما، فيما يخصّكِ أنتِ على الأقل. قد لا يعني ذلك شيئاً الآن، لكنه قد يعني الكثير يوماً ما».

لم تَدرِ ماريانا كيف تَرُدُّ على ذلك، فهزت كتفيها فحسب.

---

(1) التحويل: ظاهرة نفسية يقوم فيها اللاوعي بإعادة توجيه المشاعر التي كانت موجّهة تجاه شخصٍ معيّنٍ في الماضي إلى شخصٍ آخر - المترجم.

«وماذا عن سيباستيان؟»، سألت روث بعد لحظة صمتٍ. «ما هو شعوركِ تجاهه؟».

هزّت ماريانا رأسها. «لا أريد أن أتحدّث عن سيباستيان. ليس اليوم».

لم تبقَ طويلاً بعد ذلك. كان استحضار والدها قد ألقى بظلاله القاتمة على الجلسة، ولم تتبدّد تلك الظّلال تماماً حتى صارت في بهو المنزل.

عند عتبة الباب الخارجي، أخذت ماريانا السّيدةَ العجوزَ بين ذراعيها وشعرت بدفء وحنان ذلك العناق، فاغرورقت عيناها بالدموع. «شكراً جزيلاً، يا روث. على كل شيء».

«اتّصلي بي إذا احتجتِ إلى أي شيء... وفي أي وقت. لا أريدك أن تشعري بأنكِ وحدكِ».

«شكراً لك».

«أتعلمين...»، قالت روث بعد تردّدٍ طفيفٍ، «قد يكون من المفيدِ التحدّثُ إلى ثيو».

«ثيو؟».

«لمَ لا؟ الاعتلال النّفسي هو موضوعه الأثير، في نهاية المطاف. إنه كفؤ، ولا بد أن تكون آراؤه مفيدةً».

تأمّلت ماريانا الأمر. كان ثيو معالجاً نفسيّاً جنائيّاً تدرّب معها في لندن. ورغم أن كليهما خضعَ للعلاج النّفسي على يد روث، فلم يُتح لهما التعارف جيداً.

«لستُ متأكدة بخصوص ذلك»، قالت ماريانا. «أنا لم أرَ ثيو منذ زمنٍ بعيدٍ... هل تظنّين أنه سيمانع؟».

«لا، إطلاقاً. حاولي أن تلتقيه قبل عودتك إلى كامبريدج. دعيني أتصل به».

كلّمته روث عبر الهاتف فقال ثيو إنه موافق، وإنه بالطبع يتذكّرها وسيكون سعيداً بالتحدث إليها، فحدّدا حانة في كامْدنْ مكاناً للّقاء، وذهبت ماريانا للقاء ثيو فابر عند الساعة السادسة، مساءَ ذلك اليوم.

8

كانت ماريانا أول مَن وصل حانة ذي أكسفورد آرمز، فطلبت كأس نبيذٍ أبيض فيما انتظرت ثيو.

انتابها الفضول لرؤية ثيو، لكن شيء من التحفظ أيضاً، فقد جعلتهما مشاركةُ روث كمعالجةٍ نفسيّةٍ أقربَ ما يكونان إلى الشقيقَين، يحاول كلّ منهما سلب اهتمام أمّهما من الآخر، وكانت ماريانا تشعر بشيءٍ من الغيرة - بل الاستياء حتى - تُجاهه، إذ لطالما علمت أن لديه مكانةً خاصّةً عند روث، التي كلّما ذكرته، أخذ صوتها طابع الأمومة والحماية، ما جعل ماريانا تفترض أن ثيو يتيمٌ مكسور الجناح، فكانت صدمتُها كبيرةً حين حضر كلا والدَيه، حيّانِ يُرزَقان، إلى حفل التّخرج.

في الواقع، كان هناك شيءٌ بخصوصه - شيءٌ من الاغتراب - يجعله يبدو أقرب إلى اللقيط. لم يكن الأمر متعلّقاً ببِنيته، بل بسلوكه: شيءٌ من التحفّظ والتّكتّم، بُعدٌ طفيف عن الآخرين، نوعٌ من الارتباك تعرّفت إليه ماريانا في نفسها.

وصل ثيو متأخّراً عن الموعد ببضع دقائق. حيّا ماريانا بحرارةٍ، اشترى كوكا كولا خالية من السّكّر، ثم انضمّ إليها حول الطاولة.

بدا ثيو على حاله؛ لم يتغيّر شكله قطّ. كان في الأربعين من عمره تقريباً وذا بِنيةٍ جسديةٍ نحيلةٍ. كان يرتدي سترةً باليةً من القطيفة وقميصاً أبيضَ مجعّداً، وتفوح منه رائحة سجائر طفيفة. وجهه ودودٌ، فكّرت ماريانا، وجهٌ لطيف، لكن كان هناك شيءٌ من - كيف يمكنها أن تصف ذلك؟ - القلق في عينيه، وكأنهما مسكونتان. أدركت أنها رغم استلطافها له، لم تكن تشعر بالراحة في رفقته، ولم تكن متأكدة من السّبب.

«شكراً على مقابلتي. لقد باغتُّكَ بطلبي هذا في آخر لحظة».

«لا، إطلاقاً. فأنا أشعر بالفضول حيال تلك القصة. لقد تابعتُها، مثلي مثل الجميع. إنه لأمرٌ مدهِشٌ...». وإذ به يسارع إلى تصويب قوله: «أقصد مروِّعٌ طبعاً، لكنّه مدهش أيضاً». ابتسم لها. «أرغب في نبش أفكاركِ بخصوص ذلك».

ابتسمت ماريانا. «في الحقيقة، كنت آمل أن أنبش أنا أفكاركَ».

«آه!». بدا ثيو متفاجِئاً لسماع ذلك. «لكنكِ كنت هناك، يا ماريانا. في كامبريدج. وأنا لم أكن، فانطباعاتك وأفكارك أكثر قيمةً بكثير من أيٍّ شيءٍ قد أقوله لك».

«لكن ليست لديّ التجربة الكافية في مثل هذه الأمور، في مجال الجنايات».

«هذا لا يشكّل أدنى فرق، في الحقيقة، لأن كلَّ قضيّةٍ هي فريدة من نوعها، بحسب تجربتي».

«يا للغرابة! لقد قال جوليان العكس تماماً. قال إنها القضية نفسها، تتكرر».

«جوليان؟ أتقصدين جوليان آشكروفت؟».

«أجل. إنه يعمل مع الشّرطة».

رفع ثيو أحد حاجبيه. «أذكر جوليان من أيام المعهد. كان هناك شيءٌ... مريبٌ بشأنه، هذا ما ظننته. كان متعطّشاً للدّماء، على نحوٍ ما. وعلى أية حال، إنه مخطئٌ: إن كل قضيّةٍ تختلف عن الأخرى. ففي نهاية المطاف، إن لكل شخصٍ طفولتَه الخاصّة».

أومأت ماريانا برأسها. «أجل، أتفق معك. ومع ذلك، ألا تظنّ أن هناك شيئاً علينا البحث عنه؟».

أخذ ثيو رشفةَ كوكا كولا وهزّ كتفيه. «لنفترض أنني الرجل الذي تبحثين عنه. لنَقُل إنني مختلٌّ إلى حد بعيد وخطيرٌ للغاية. إنه لمن الممكن جدّاً أن أتمكّن من إخفاء كلّ ذلك عنك. ربما ليس لوقتٍ طويلٍ، ولا في إطارٍ علاجيّ، ولكن على المستوى السطحيّ، يظل من السّهل تقديم وجه مزيف للعالم الخارجي، بل وحتى للنّاس الذين نراهم كل يوم». عبث بمحبسه للحظة، يديره حول إصبعه. «أتريدين نصيحتي؟ انسَي من **يكون**. وابدئي بـ **لماذا**».

«لماذا يقتل؟ أهذا قصدك؟».

«أجل». أومأ ثيو برأسه. «شيءٌ ما بخصوص ذلك... لا يبدو سليماً. الضحيّتانِ... هل تم الاعتداء عليهما جنسيّاً؟».

هزّت ماريانا رأسها. «لا. لا شيء من هذا القبيل».

«بمَ يخبرنا ذلك إذاً؟».

«يخبرنا بأن القتل في حد ذاته، الطّعن والتّشويه، هو ما يجلب له الرضا؟ ربما. لكنني لا أظن أن الأمر بهذه البساطة».

أومأ ثيو برأسه. «ولا أنا».

«قال الطبيب المشرف على القضية إن سبب الوفاة هو الذبح، وإن الطّعنَ تمَّ بعد الوفاة».

«فهمت»، قال ثيو وقد بدا عليه الاهتمام. «ما يعني أن هناك جانباً استعراضيّاً لكل هذا. لقد تمّ تنسيق الأمر مسرحياً... من أجل جمهور من المشاهدين».

«ونحن المشاهدون؟».

أومأ ثيو برأسه. «صحيح. ولمَ فعلَ ذلك في نظرك؟ لمَ يريدنا أن نرى كل هذا العنف الرهيب؟».

فكرت ماريانا لوهلة. «أظن... أنه يريدنا أن **نعتقد** أنهما قُتلتا في نوبة من الهيجان من طرف قاتلٍ متسلسلٍ، مجنون يحمل سكّيناً. لكنه كان في واقع الأمر هادئاً ومتحكّماً في نفسه تماماً، وفي ما يقوم به. فقد تم التخطيطُ لهاتين الجريمتين وتنفيذُهما بعنايةٍ ودقّةٍ فائقتَين».

«تماماً. ما يعني أننا نتعامل مع شخصٍ أذكى... وأخطر بكثير».

فكّرت ماريانا في إدوارد فوشكا، وأومأت برأسها. «أجل، أعتقد ذلك».

«دعيني أسألك شيئاً». حدّق فيها ثيو. «حين رأيتِ الجثّة عن قربٍ، ما هو أولُ شيءٍ خطر ببالكِ؟».

طرفت ماريانا بعينيها، واستحضرت عينَي فيرونيكا، لكنها سرعان ما طردت الصورة بعيداً. «لا... أدري... لقد كان مشهداً مروِّعاً!».

هزّ ثيو رأسه. «لا. ليس هذا ما فكّرتِ فيه. أخبريني بالحقيقة. ما هو أول شيءٍ خطرَ ببالك؟».

هزّت ماريانا كتفيها، مبدية شيئاً من الحرج. «لغرابة الأمر... لقد كان سطراً من مسرحيةٍ».

«هذا مثير للاهتمام. تابعي».

«إنه سطرٌ من مسرحية **دوقة مالفي**: ”غطِّ وجهها، عيناي زائغتان...“».

«أجل». لمعت عينا ثيو فجأةً، وانحنى نحوها في حماسٍ. «هذا المقصود».

«لستُ... لستُ متأكدةً أنني فهمت قصدكَ».

« عيناي **زائغتان.** تُعرَض الأجساد على هذا النحو **لتزيغنا.** لتعمينا بالرعب. لكن **لماذا؟**».

«لا أدري».

«فكّري في الأمر. لماذا يريد أن يعمينا؟ **ما الذي لا يريدنا أن نراه؟** عمَّ يريد تضليلَنا؟ أجيبي على ذلك يا ماريانا، وستمسكين به».

أومأت ماريانا برأسها وهي تستوعب ذلك، وجلسا بعد ذلك في صمتٍ تأمليٍّ لبعض الوقت، يتبادلان النظرات.

ابتسم ثيو. «تتمتّعين بموهبةٍ نادرةٍ في التّعاطف. أستطيع الشّعور بها، وأرى الآن لماذا تكيل لك روث المديحَ إلى هذا الحدّ».

«أنا لا أستحق ذلك، لكن شكراً لك على أية حال. من المبهِج سماع ذلك».

«لا تكوني بهذا التّواضع. ليس من السّهل أن يكون المرءُ منفتحاً ومستجيباً لكائنٍ بشريٍّ آخر، وأنت تستطيعين الشّعور بما يشعر به... إنها كأس مسمومة، من نَواحٍ عدة. لطالما اعتقدتُ ذلك». توقف للحظة، قبل أن يتابع بصوت خافت: «اعذريني. لا ينبغي لي أن أقول ذلك... لكنني أستطيع استشعار شيءٍ آخرَ فيك...». توقف لبضع ثوانٍ. «... نوعٌ... من الخوف. إنكِ خائفة من شيءٍ ما. وتظنّين أنه هناك في الخارج...». أشار إلى

الفراغ. «لكنه ليس هناك، بل هنا»، قال وهو يشير إلى صدره. «في أعماقكِ».

طرفت ماريانا بعينيها، إذ شعرت بنفسها مكشوفة ومحرجة. هزّت رأسها.

«أنا لا. . . لا أعرف ماذا تقصد».

«حسنٌ، نصيحتي لك هي أن تنتبهي إلى ذلك الشّعور. أن تقتربي منه، أن تصادقيه. يجب علينا دائماً أن ننتبه حين يحاول جسدُنا أن يخبرنا بشيءٍ ما. هذا ما تقوله روث دوماً».

بدا عليه شيء من الحرج فجأةً، كما لو أنه شعر بأنه تجاوز الحدود. ألقى نظرةً إلى ساعته. «يجب أن أغادر. عليّ أن ألتقي بزوجتي».

«بالطبع. شكراً جزيلاً على لقائي، يا ثيو».

«على الرّحب والسّعة. كان من دواعي سروري فعل ذلك، يا ماريانا. . . قالت روث إنك تُديرين عيادةً خصوصيّةً الآن؟».

«صحيح. وأنت تعمل في مستشفى برودمور[1]؟».

«أكفِّر عن ذنوبي هناك». ابتسم ثيو. «لا أدري كم من الوقت سأستطيع أن أصمد، فلستُ سعيداً بوجودي هناك بصراحة. كنت لأبحث عن وظيفةٍ جديدةٍ، لكن. . . لا وقت لديّ، كما تعلمين».

وهو يقول ذلك، خطرت لماريانا فكرةٌ فجأةً.

«انتظر لحظة. . .».

---

(1) Broadmoor Hospital: مستشفى للأمراض العقلية ذات حراسة مشدّدة في مقاطعة كراونثورن، ببيركشاير. وهي الأقدم بين المستشفيات الثلاثة من هذا النوع بإنجلترا - المترجم.

أدخلت يدها في حقيبتها وأخرجت **المجلة البريطانيّة لعلم النّفس** التي حملتها معها. قلّبت الصّفحات بسرعة حتى وجدت ما كانت تبحث عنه، ففردت المجلّةَ أمام ثيو، مشيرةً إلى الإعلان في الإطار.

«انظر هنا».

كان إعلاناً لوظيفة معالج نفسيّ جنائيّ في ذا غروف، وهي مستشفى للأمراض النفسيّة ذات حراسةٍ مشدّدة في مدينة إدجوير.

نظرت إليه ماريانا. «ما رأيك؟ انا أعرف البروفيسور ديوميديس شخصيّاً، هو مَن يديرها. إنه متخصّص في العلاج الجماعي، فقد تدرّبت على يديه لبعض الوقت».

«أجل». أومأ ثيو برأسه. «أعلم من يكون». درس الإعلان باهتمامٍ واضح، ثم قال: «ذا غروف؟ أليس هو المكان حيث أُرسلت أليسيا بيرينسون؟ بعد أن قتلت زوجها؟».

«أليسيا بيرينسون[1]؟».

«الرّسّامة... التي رفضت أن تتكلّم بعد ذلك».

«آه... تذكّرتها». ابتسمت له ماريانا ثم قالت مشجّعةً: «ماذا لو تقدمتَ بطلب لهذه الوظيفة؟ وجعلتَها تتكلّم من جديد؟».

«ربما». ابتسم ثيو بدوره وفكّر في الأمر لوهلةٍ، ثم أومأ برأسه بالإيجاب في إيماءة موجّهة لنفسه. «قد أفعل ذلك».

---

(1) الشخصيّة الرئيسية في رواية **المريضة الصامتة** لألكس ميكايليديس، ويُشار إلى أن ثيو فابر أيضاً شخصّيةٌ رئيسيّةٌ في الرواية - المترجم.

9

مرّت رحلة العودة إلى كامبريدج في لمح البصر.

كانت ماريانا سارحةً في أفكارها طوال الرحلة، تسترجع محادثتَها مع روث ولقاءها مع ثيو. كانت فكرةُ أن جريمتَي القتلِ كانتا مروِّعتَين عن قصد بهدف تشتيت الانتباه عن أمرٍ آخرَ مثيرةً للاهتمام بحقٍّ، وشعرت ماريانا بأنها مقتنعة بالأمر على المستوى العاطفي على نحوٍ لا يمكنها تفسيره.

أما فيما يخصّ اقتراحَ روث بأن تدير علاجاً جماعيّاً للبُتُل. . . فلن يكون الأمر سهلاً، بل قد يكون مستحيلاً أيضاً، لكنه يستحق المحاولةَ بكل تأكيد.

لكن ما قالته روث بخصوص والدها شكّل الإشكالية الأكبر.

لم تفهم لماذا قامت بذكره من الأساس. ثم ماذا قالت بالضبط؟

قد لا يعني ذلك شيئاً الآن - لكنه قد يعني الكثير يوماً ما.

يا لها من جملة مشفّرة. لقد أشارت روث إلى شيءٍ ما، لكن ما هو؟

حاولت ماريانا فكّ الشيفرة فيما تحدّق عبر النّافذة في بساط

الحقول اللامتناهي الذي يمر به القطار. سرحت تفكّر في طفولتها بأثينا، وفي والدها: كيف أنها كانت تعشقه في طفولتها - هذا الرّجل الوسيم، الفذّ، والكاريزماتيّ - تُبجّله وتراه مثلاً أعلى. وقد استغرق الأمر من ماريانا وقتاً طويلاً لترى أن والدها لم يكن الرّجل الذي ظنَّتهُ عليه.

تبددت الغشاوةُ عن عينيها في بداية العشرينات من عمرها، بعد أن تخرّجت من كامبريدج. كانت تعيش في لندن، وتتدرّب لتصبح مُعلِّمةً. كانت حينها قد بدأت العلاج النفسيّ مع روث بهدف التعامل مع فقدان والدتها، إلا أنها وجدت نفسها معظم الوقت تتحدّث عن والدها.

ولسببٍ ما، شعرت بنفسها مُلزَمةً بإقناع روث كم كان رجلاً رائعاً، ولامعاً، وعصامياً، كم كافح وضحّى ليربيّ طفلَين وحده... وكم كان يحبّها.

بعد أشهرٍ من الاستماع إلى ماريانا والاكتفاء بقول القليل... قاطعتها روث أخيراً ذات يوم.

ما قالته كان بسيطاً، مباشراً، ومُدمِّراً.

لمّحت روث، بكل ما أوتيت من لطف ورقة، إلى أن ماريانا كانت تعيش حالة من الإنكار بخصوص والدها، وأن بعد كل ما سمعته من ماريانا، لزم عليها وضع تقدير ماريانا لوالدها مَوضِع التساؤل: فالرّجل الذي سمعت روث أوصافه بدا متسلّطاً، وبارداً، وعديم العاطفة، وشديد الانتقاد، وغيرَ وَدودٍ على الإطلاق، حتى أنه بدا قاسياً، ولم تكن أيٌّ من صفاته تمتُّ للحب بصلة.

«الحبّ لا يكون مشروطاً»، قالت روث. «لا يَشترط القفزَ وسط الحلقات - كحيوانات السيرك المروّضَة - من أجل إرضاء شخصٍ

ما، والفشلَ في تحقيق ذلكَ على الدّوام. لا يمكنكِ أن تحبّي شخصاً إذا كنتِ تخشَينَه، يا ماريانا. إنه نوع من العمى، وإذا لم تفتحي عينيكِ وترَيْ بوضوح، فسيستمرّ الأمرُ طوال حياتك، وسيؤثّر على كيف ترين نفسكِ، والآخرين أيضاً».

هزّت ماريانا رأسها. «لا، أنتِ مخطئةٌ بشأن والدي. أعلم أنه صعب المِراس... لكنّه يحبّني. وأنا أحبّه».

«لا»، ردّت روث بحزم. «بل إنها - في أفضل الأحوالِ - رغبةٌ في أن تكوني محبوبة. وفي أسوئها، هو انجذابٌ مَرَضيٌّ لرجلٍ نرجسيٍّ - مزيجٌ من مشاعر الامتنان، والخوف، والتطلّع، والطّاعة، والواجب - ولا علاقة لأيٍّ من هذه بالحب، في المعنى الدقيق للكلمة. أنت لا تحبّينه. كما أنك لا تعرفين نفسك ولا تحبّينَها».

كانت روث على حق. كان من الصّعبِ سماع ذلك، ناهيك عن تقبّله. نهضت ماريانا وغادرت، ودموعُ الغضب تنهمر على خدّيها، وأقسمت على ألا تعود أبداً. مكتبة سُر مَن قرأ

لكن بعد ذلك، حين صارت في الشارع خارج منزل روث، استوقفها أمرٌ ما. تذكرت سيباستيان فجأةً، وكيف كانت تتعامل بانزعاج مع مديحه لها.

«ليست لديكِ أدنى فكرةٍ عن مدى جمالك»، كان يردّد لها دائماً.

«كفاكَ»، كانت تردّ، بعد أن يحمرّ وجهُها خجلاً وهي تدفع المجاملة بعيداً بحركة من يدها. ففي نظرها، كان سيباستيان مخطِئاً، فهي لم تكن ذكيّةً ولا جميلةً... لم يكن ذلك ما كانت ترى نفسَها عليه.

لمَ لا؟

بعينَي مَن كانت ترى نفسَها؟

بعينيها هي؟ أم بعينَي والدِها؟

لم يكن سيباستيان يراها بعينَي والدِها أو بعينَي أي شخصٍ آخر، بل كان يراها بعينَيهِ هو. فماذا لو فعلتْ ماريانا الشيء نفسه؟ ماذا لو أنها، مثل **السيدة شالوت**[1]، توقّفت عن رؤية العالم من خلال مرآة والتفتت وحدّقت في العالم مباشرةً؟

وهكذا بدأ الأمر، بشقٍّ في حائط الأوهام والإنكار سمح لخيط من النور بالدّخول. لم يكن نوراً ساطعاً، بل كافياً لترى به. واتّضح أن تلك اللّحظة كانت لحظةَ تجَلٍّ بالنسبة إلى ماريانا، نقلتها إلى رحلةٍ من اكتشاف الذات كانت تفضّل تجنبها. وانتهى بها المطافُ بالتّخلّي عن التدريب لتصبح معلّمةً، لتنخرط في التدريب لتصبح معالجةً نفسيّةً. ورغم أن سنينَ عديدةً مرّت منذ ذلك الوقت، إلا أنها لم تتمكّن من فكّ تشابك مشاعرها تجاه والدها، والآن وقد صار في عداد الأموات، فمن المحتمل أنها لن تفعل أبداً.

---

(1) *The Lady of Shalott*: قصيدة غنائية للشاعر ألفريد تنيسون (القرن 19)، مستلهمة من نص نثري إيطالي *Donna di Scalotta* (القرن 13)؛ تحكي القصيدة القصة المأساوية لفتاة نبيلة محتجزة في قلعة، محكوم عليها بألا ترى العالم الخارجيّ إلا من خلال مرآة، وليس مباشرة، وإلا حلّت بها لعنة - المترجم.

10

ترجّلت ماريانا من القطار في محطة كامبريدج، غارقةً في أفكارها الحزينة، ومضت نحو كلية سانت كريستوفر، وهي بالكاد تعي ما يجري من حولها. وحين بلغت المكان، كان موريس أولَ مَن رأت. كان واقفاً عند كوخ البوّابين رفقة بعض ضباط الشرطة، وجعلَتها رؤيتُه تسترجع بشاعة لقائهما الأخير، فشعرت بمعدتها تنقبض.

رفضت النّظر إليه، فمرّت بمحاذاته وتجاهلته. وبطرف عينها، لمحَته وهو يحيّيها برفع قبّعته، كما لو أن شيئاً لم يحدث. كان من الجليّ أنه يشعر بأن لديه اليد العليا.

جيد، دعه يظنّ ذلكَ، قالت في سرّها.

قررتْ ألا تحكي شيئاً مما جرى في الوقت الراهن، وكان جزءٌ من السبب تخيّلَها ردّ فعل المفتّش سانغا، إذ إن اقتراحها أن موريس متواطئٌ مع فوشكا لن يثير سوى عدم التصديق والسخرية. فكما قال فْريد، كانت بحاجة إلى دليلٍ، فسيكون من الأفضل لها أن تلتزم الصمت، وتَدَع موريس يظن أنه أفلت بفعلته. . . وتمد له ما يكفي من الحبل ليشنق به نفسَه.

خالجتها رغبةٌ مفاجئةٌ في الاتصال بفريد، في التحدث إليه، لكنّها سارعت إلى كبتها في الحين.

ماذا دَهاها؟ هل من الممكنِ أن تكون قد بدأت تكنّ مشاعر تجاهه؟ ذلك الفتى؟ لا . . . لن تسمح لنفسها حتى بالتّفكير في ذلك. ستكون خيانةً منها . . . كما أنه شعورٌ مخيفٌ. في الحقيقة، سيكون من الأفضل ألا تتصل بفْريد مجدداً على الإطلاق.

حين بلغت ماريانا غرفتها، انتبهت إلى أن الباب كان مُوارباً.

تسمّرت في مكانها، وأصاختِ السّمع لكن لم يَبلغها أي صوتٍ من الداخل.

ثم، ببطءٍ شديدٍ، مدّت يدها ودفعت الباب، الذي أصدر صريراً وهو ينفتح.

ألقت ماريانا نظرةً داخل الغرفة، وما رأته قطع أنفاسَها: بدا كما لو أن أحدهم قلب المكان رأساً على عقب: كانت كل الأدراج والدواليب قد فُتحت وأُفرغ محتواها، وكانت كل أمتعة ماريانا مبعثرةً على الأرض، وملابسها ممزّقةً إرباً.

اتصلت بموريس في كوخ البوّابين، وطلبت منه إحضار الشرطة. ولحظاتٍ بعد ذلك، كان موريس وشُرطيّان واقفين في غرفتها، يُعايِنون الأضرار.

«هل أنت متأكدة أنه لم يُسرق شيء؟»، سأل أحد الشرطيَّين.

أومأت ماريانا برأسها. «نعم. لا أعتقد ذلك».

«لم نلاحظ أي شخص مُريبٍ يغادر الكلية. فعلى الأرجح أن يكون الجاني شخصاً من الداخل».

«يبدو أنه فعلُ طالبٍ حاقد»، قال موريس قبل أن يبتسم لماريانا. «هل استفززتِ أحدهم مؤخراً، يا آنسة؟».

تجاهلته ماريانا، وشكرت الضّابطَين ووافقَتهما الرأي بأنها لم تكن عملية سرقة. اقترحا التحقّق من وجود بصماتٍ، وكانت ماريانا توشك على الموافقة، حين رأت شيئاً جعلها تغيّر رأيها.

لقد تم استعمال سكين، أو أداة حادّة أخرى... لحفر صليبٍ في المكتب الخشبي.

«لا، لا داعي لذلك. لن أذهب بالأمر أبعد من ذلك».

«حسنٌ، إذا كان هذا ما ترغبين به».

حين غادروا الغرفة، مرّرت ماريانا أصابعها على حواف الصلّيب المنقوش على الخشب، ووقفت هناك، تفكر في هنري.

ولأول مرةٍ، شعرت بالخوف منه.

11

كنت أفكر في موضوع الزمن.

وكيف أنه ربما لا شيء يمضي فِعلاً. فقد كان موجوداً طوال الوقت - أقصد بذلك ماضِيًّ - وسببُ لحاقِه بي راجعٌ إلى أنه لم يفارقني أبداً من الأساس.

على نحوٍ غريبٍ، سأظل دوماً هناك، سأظلُّ دوماً ذلك الفتى ذا الاثني عشر ربيعاً، عالقاً في الزمن، في ذلك اليوم الفظيع، اليوم الموالي لعيد ميلادي، حين تغيّر كل شيءٍ.

أشعر كما لو أن الأمر يحدث لي الآن وأنا أكتب هذه السطور.

أجلَسَتني والدتي لتزف لي الخبر. كنت أعلم أن شيئاً ما ليس على ما يرام لأنها أحضرتني إلى غرفة الجلوس الأمامية - تلك التي لا نستعملها إطلاقاً - وأجلسَتني على كرسيٍّ خشبيٍّ غير مريحٍ لتخبرني.

ظننتُ أنها ستقول إنها تحتضر، إنها مصابة بمرضٍ عُضالٍ، فهذا ما جعلتني أعتقده تلك النظرةُ على وجهها.

لكن الأمر كان أسوأ من ذلك بكثير.

قالت إنها سترحل. كانت الأمور مع والدي تمضي من سيئ إلى أسوأ، كما أكدت ذلك عينها المتورِّمة وشفتها المشقوقة. وقد استجمعت شجاعتها أخيراً لهَجره.

غمرني شعورٌ عارمٌ بالسّعادة، وكانت «البهجة» أقرب كلمةٍ لوصف ذلك الشعور.

لكن سرعان ما تبدّدت ابتسامتي العريضة وأنا أسمع والدتي تسرد خُطَطها الفورية التي تضمّنت أريكةَ أحد أقاربها، ثم زيارةَ والدَيها حتى يتسنّى لها الوقوفُ على قدميها من جديد... وبدا جليّاً من الطريقة التي كانت تتفادى بها النظر إلى عينيَّ، وممّا لم يُقلْ، أنها لن تأخذني معها.

حدّقتُ فيها، في حالةِ صدمةٍ.

كنت عاجزاً عن الشّعور أو التفكير، ولا أنكر ما قالته بعد ذلك. لكنّها أنهت كلامها بأن وعدَتني بأنها سترسل في طلبي حين تستقرّ في منزلها الجديد، الذي بدا لي أقرب من الكوكب الآخر، بحسب الواقع الذي عناه كلامُها. كانت ستتركني. هنا. معه.

لقد ضُحِّيَ بي. لقد أُلقيتُ لأُلعن إلى الأبد في الجحيم.

ثم، وبتلك الحماقة التي طبعت سلوكها أحياناً، أشارت إلى أنها لم تخبر والدي بعدُ بنيَّتِها في الرّحيل. لقد أرادت إخباري أولاً.

لا أعتقد أنها كانت تنوي إخباره. لقد كان ذلك وداعها الوحيد: لي، هنا، والآن. وبعد ذلك، لو كانت لديها ذرّة عقل على الإطلاق، لكان عليها أن تحزم أمتعتها وتختفي في جنح الظّلام. هذا ما كنت سأفعله لو كنت مكانها.

طلبت مني أن أحفظ سرّها، أن أعدها بألّا أُفشيه. والدتي الجميلة، المتهورة، المؤتمنة... لقد كنتُ، ومن عدة نواحٍ، أكبر سنّاً وأكثر نُضجاً وحكمةً منها بكثير. وكنتُ أكثر مَكراً بالتأكيد. كلّ ما كان عليّ فعله هو إخباره، إخبار ذلك الرّجل المجنون الهائج بخطّتها بالتّخلي عنه. وحينها ستُمنع من الرّحيل. وبذلك لن أخسرها. ولم أكن أريد أن أخسرها.

أليس كذلك؟

لقد أحببتُها... أليس كذلك؟

كان شيء ما قد أصابني، أصاب تفكيري. لقد بدأ ذلك خلال تلك

المحادثة مع والدتي، وفي الساعات التي تلَتْ ذلك. بدأ نوعٌ من الوعي يتسلّل إلى ذهني ببطءٍ: نوعٌ غريبٌ من التّجلّي.

كنت أحسبُ أنها تحبّني.

لكن اتضح أنه كان هناك أكثر مِن نسخة واحدة منها.

والآن بدأت أرى فجأةً ذلك الشخص الآخر. بدأتُ أراها، هناك، في الخلفيّة، تراقب دون حراكٍ، فيما كان والدي يعذّبني. لماذا لَمْ توقِفه؟ لماذا لَمْ تحميني؟

لماذا لَمْ تعلّمني بأنني أستحقّ الحماية؟

لقد دافعتْ عن ريكس، لقد صوّبت سكّيناً إلى صدر والدي وهدّدت بطعنه. لكنها لم تفعل ذلك أبداً من أجلي.

شعرتُ بالنّار تَستَعِر بداخلي: غضبٌ متصاعدٌ، غيظٌ لن يُغادِرني أبداً. كنت أعلم أنه سيئ، وكنت أعلم أنه يجب عليّ كبحُه قبل أن يغمرني. لكنني أججت النيران. واحترقتُ فيها.

كل الرّعب والألم الذي قاسيتُه... تحمّلتُه من أجلها، لتَظل آمنةً. لكنّها لم تضعني موضعَ الأولويّة قطّ. بدا وكأنها لم ترَ سوى مصلحتِها وخلاصِها الفرديّ. كان والدي محقّاً بشأنها: كانت أنانيّةً، ومدلّلةً، وطائشةً. كانت قاسيةً.

كان يلزمها أن تُعاقَب.

لم أكن قادراً على أن أقول لها ذلك حينذاك. لقد افتقرت إلى الكلمات. لكن بعد ذلك بسنوات، كان بإمكاني أن أواجهها – في بداية العشرينات من عمري ربما – حين جعلني مُضيّ السّنين أكثر إفصاحاً. وبعد أن أفرطُ في الشرب بعد العشاء، كنت ألتفت إليها، هذه المرأة العجوز، وأحاول إيذاءها، كما آذتني هي يوماً. كنت أُحصي مَظالِمي، ثم أراها في خيالاتي، تنكسر وتَخِرُّ أمامي طالبةً المسامحة. وبكل إحسان، كنت أمنحُها إياها.

أيّ رفاهيةٍ ستكون هذه... لو أنني أستطيع المسامحة. لكن لم تتح لي الفرصة قطّ.

أويتُ إلى فراشي ليلَتها وأنا أحترق، وتستعر بداخلي نيرانُ الكراهية... بدا الشعورُ أشبه بحِمَمٍ بركانيّةٍ فوّارةٍ تتصاعد بداخلي. خلدتُ إلى النوم... وحلمت بأنني نزلتُ إلى الطابق السفلي، وأخذتُ سكيناً كبيرةً من الدّرج، واستعملتها لقطع رأس والدتي. حززتُ عنقها بالسّكين، إلى أن فصلتُ رأسها عن جسدها، ثم خبّأتُ الرأس في الحقيبة البيضاء والحمراء المخصّصة للوازم الحياكة، ووضعتها أسفل سريري، حيث أعلم أنها ستكون آمنةً. أما الجسد فقد تخلّصت منه في الحفرة رفقة باقي الجثث، حيثُ لن يجده أحدٌ أبداً.

حين استفقتُ من ذلك الحلم، في ضوء الفجر الأصفر المقيت، شعرتُ بالتّرنّح والتشوّش. شعرتُ بالخوف، إذ اختلطت عليّ الأمور بشأن ما حصل.

راودني ما يكفي من الشّكّ للنزول إلى المطبخ والتحقق من الأمر. فتحت الدّرج الذي يحوي السّكاكين.

حملتُ أكبرها وتفحّصتُه بحثاً عن أي أثرٍ للدّماء. لا أثر لها إطلاقاً. لمع النَّصلُ نقيّاً تحت ضوء الشّمس.

ثم سمعتُ وَقعَ خطواتٍ تقترب، فخبّأت السّكّين وراء ظهري بسرعة، ودخلت والدتي المطبخ، سليمةً معافاةً.

ولغرابة الأمر، فإن رؤية والدتي سالمة غانمة لم يُطمئنني البتّة.

في الواقع، لقد خاب أملي.

12

صباح اليوم الموالي، انضمت ماريانا إلى زوي وكلاريسا على مائدة الفطور في مطعم الجامعة.

كان البوفيه المخصص للأساتذة في كوةٍ جنب الطاولة العالية، ويحتوي على تشكيلة وافرة من الخبز، والمعجّنات، وقُدورِ الزّبدة والمربّى، إضافة إلى أطباقٍ ساخنةٍ مثل عجّة البيض المخفوق، واللّحم المقدّد، والنّقانق.

كانت كلاريسا تمجّد مزايا الفطور الدسِم وهنّ واقفاتٌ ينتظرن دورهنّ في الصف أمام البوفيه. «إنه يجهّزك للانطلاق في يومك. لا شيء يفوقه أهميةً في نظري. أنا أتناول السمك المدخّن، قدر الإمكان».

تأمّلت كلاريسا الخياراتِ العديدةَ المعروضةَ أمامهن. «لكن ليس اليوم. ما رأيكما في الكيدجيري[1]؟ إنها وجبةُ مواساةٍ كلاسيكيّةٌ تبعث على الاطمئنان. سمك الحَدوق، بيض، وأرز. لا يمكن أن يكون اختياراً خاطئاً».

---

(1) Kedgeree: طعام هندي يؤكل على الإفطار ويتكون من خليط من الأرز والسمك والكاري والبيض - المترجم.

لكن سرعان ما تبيّن عدمُ صواب قول كلاريسا، إذ بعدما جلسنَ وتناولت كلاريسا لقمتها الأولى، احمر وجهها، واختنقت... ثم أخرجت حسكة كبيرة من فمها، وحدّقت فيها بذعر.

«إلهي الرّحيم! يبدو أن الطّبّاخ ينوي قتلنا! كونا حذرتَين، يا عزيزتَيَّ!».

راحت كلاريسا تنتقي لحم السمك بشوكتها بحذر، فيما سردت ماريانا عليهما تقرير رحلتها إلى لندن، وأخبرتهما باقتراح روث بأن تُجري جلسة علاجٍ جماعيٍّ مع البُتُل.

لمحت ماريانا زوي وهي ترفع أحد حاجبَيها علامةً على التّعجّب. «زوي؟ ما رأيك؟».

رمقتها زوي بنظرةٍ متحفظة. «لن يتعيَّن عليّ الحضور، أليس كذلك؟».

كتمت ماريانا ابتسامتها. «لا، لن يتعيَّن عليك الحضور. لا تقلقي».

بدا الارتياح على زوي، فهزّت كتفيها. «باشري إذاً. رغم أنّي لا أظنّ أنهن سيوافقن، بصراحة... إلا إذا طلب هو منهنّ ذلك».

أومأت ماريانا برأسها. «أظنّكِ محقّةً بشأن ذلك».

«انظرا...»، أشارت كلاريسا. «... ذكرناهُ فألقت به الرّيح».

نظرت ماريانا وزوي إلى حيث أشارت كلاريسا، وإذ بإدوارد فوشكا يأخذ مقعده على الطاولة العالية.

جلس عند الطرف الآخر من الطاولة حيث جلست النساء الثلاث. شعر بنظرة ماريانا عليه فرفع رأسه وثبّت نظره عليها لبضع ثوانٍ، ثم أشاح بعينيه بعيداً.

نهضت ماريانا من مكانها فجأة، فحدّجتها زوي بنظرةٍ مِلؤها القلق. «ماذا أنتِ فاعلةٌ؟».

«هناك طريقةٌ وحيدةٌ لنعرف».

«ماريانا. . .».

لكنها تجاهلت زوي، ومضت نحو الطرف الآخر من الطاولة حيث كان البروفيسور فوشكا جالساً. كان منهمكاً في قراءة ديوان شعر صغير، يرافق كوبَ قهوتِه السوداء.

انتبه إلى وقوف ماريانا على مَقربةٍ منه، فرفع نظره وحيّاها.

«صباح الخير».

«لدي طلب صغير، يا بروفيسور».

«حقّاً؟». نظر إليها فوشكا في استغرابٍ. «وما هو هذا الطلب، يا ماريانا؟».

نظرت في عينيه للحظة، دون أن تطرف عيناها.

«هل تمانع أن أتحدّث إلى طالباتك. . . أقصد، طالباتك المميزات؟ البُتُل؟».

«ظننتُ أنكِ قمت بذلك بالفعل».

«أقصد التحدث إليهن كمجموعةٍ».

«كمجموعةٍ؟».

«أجل، في حصّةِ علاجٍ جماعيٍّ».

«فهمت. أَوَليسَ الأمرُ راجعاً إليهن، لا إليّ؟».

«لا أظن أنهن سيوافقن، إلا إذا طلبتَ منهن ذلك أنت».

ابتسم البروفيسور. «أنت لا تطلبين إذني إذاً، بل تعاوني؟».

«أفترضُ أنه يمكنك أن تصوغ الأمر على هذا النحو».

واصل فوشكا التحديق فيها، مع ابتسامةٍ طفيفةٍ على شفتَيه.

«هل قرّرتِ متى وأين ستكون هذه الحصّة العلاجية؟».

فكّرت ماريانا للحظة. «ما رأيك في الخامسة مساءً، اليوم... في قاعة الاجتماعات».

«تبدين واثقة من أن لديّ تأثيراً بالغاً عليهن، يا ماريانا. لكن أؤكد لكِ أن هذا ليس واقعَ الأمر». صمت للحظة. «ما الهدف بالضّبط من هذه المجموعة، إذا سمحت لي بالسؤال؟ ما الذي تأملين تحقيقَه؟».

«لا آمل تحقيقَ أيّ شيءٍ. ما هكذا تعمل الحِصصُ العلاجيّةُ. إن كلَّ ما أصبو إليه هو توفيرُ فضاء ملائم لهؤلاء الآنسات ليستوعبن بعض ما قاسَينَه من أحداث مروِّعَةٍ مؤخراً».

ارتشف فوشكا قهوته وهو يتأمل كلامها. «وهل تمتد الدّعوةُ لتشملني أيضاً؟ بصفتي عضواً في المجموعة؟».

«أفضِّلُ ألّا تحضر. أظنُّ أن وجودَكَ قد يُلقي بظلاله على الفتيات ويُثبّطهنّ».

«ماذا لو اشترطتُ ذلك مقابل موافقتي على مساعدتك؟».

هزت ماريانا كتفيها. «لن يكون أمامي خيارٌ آخر».

«سأحضر إذاً».

ابتسم لها، لكنها لم تبادله الابتسامة.

«هذا يدعوني لأن أتساءل، يا بروفيسور... ما الذي تحرص كل هذا الحِرص على إخفائه؟».

ابتسم فوشكا. «أنا لا أحاول إخفاء أيِّ شيءٍ. فلنقُل إنني أرغب في الحضور من أجل حماية طالباتي فحسب».

«حمايتهن؟ ممّن؟».

«منكِ، يا ماريانا»، ردّ فوشكا. «منكِ».

13

عند الساعة الخامسة من ذلك النهار، انتظرت ماريانا البُتُل في قاعة الاجتماعات.

كانت قد حجزتها من الخامسة إلى السادسة والنّصف. كانت غرفةً شاسعةً، يستعملها أعضاء الجامعة كفضاءٍ مشترَكٍ: تحوي عدّة أرائكَ عريضةٍ، وطاولاتِ قهوةٍ، وطاولةَ طعام طويلةً ممتدّةً بالتّوازي مع أحد الجدران، وعُلّقت على جدرانها صور أساتذةٍ سابقين، لوحاتٌ زيتيّةٌ صامتةٌ على خلفية ورق جدران قُرمزيّ وذهبيّ.

كانت نارٌ هادئةٌ مشتعلة في المدفأة، انعكس وَهجُها على الأثاث المذهّب حولها. كان الجوُّ يبعث على الدفء والطمأنينة، فبدا المكانُ لماريانا مثاليّاً للجلسة.

رتّبت تسعةَ كراسيٍّ على شكل دائرة، واتخذت مقعداً على أحدها بعد أن تأكدت أن بإمكانها رؤية السّاعة التي تعلو المدفأة. كانت تشير إلى الخامسة ودقيقتين.

تساءلت ماريانا عما إذا كنَّ سيحضرن أو لا. لن يفاجئها البتّةَ إن لم يفعلن.

وإذا بالباب يُفتح بعد لحظة، لتظهر الفتياتُ الخمسُ واحدةً تلو

الأخرى، فبدا لماريانا من ملامحهنّ الجامدة أنهنّ أُرغِمن على الحضور.

«مساء الخير»، قالت ماريانا مبتسمةً. «شكراً على مجيئكن. هلّا جلستنّ؟».

نظرت الفتيات إلى ترتيب الكراسيّ ثم تبادلن النظرات، قبل أن يَجلِسن على مضض. بدا أن الشقراء الطويلة هي قائدتهن، إذ شعرت ماريانا أن الأخريات أرجأنَ الأمر إليها: جلست هي أولاً، ثم حذَونَ حذوَها.

جلسنَ جنباً إلى جنب، متقابلات مع ماريانا، وتركت كل منهن كرسيّاً شاغراً على كلتا الجهتين، فراود ماريانا فجأةً شعورٌ بالارتباك في وجه هذا الجدار من الوجوه الشّابة غير الوَدودة.

يا له من أمرٍ سخيفٍ أن تشعر بالارتباك أمام مجموعةٍ من الفتيات العِشرينيات، مهما كنّ جميلات وذكيات، قالت في سرّها. شعرت ماريانا كما لو أن الزمن رجع بها إلى أيام المدرسة، حين كانت فتاةً قبيحةً تواجه عصابةً من الفتياتِ ذواتِ الصّيت والشّعبية. شعرت نسخةُ ماريانا الصغيرةُ بالخوف، وتساءلت عن شعور النسخ الصغيرة لأولئك الشّابّات من حولها: عما إذا كانت ثقتهن الظاهرة تخفي مشاعرَ مماثلةً بالدّونية. تحت سلوكهن المتعالي ذاك، هل شعرنَ بالضآلة مِثلَها؟ بدا الأمرُ صعبَ التّخيّل على نحوٍ ما.

كانت سيرينا الوحيدة التي سبق لماريانا أن تكلّمت إليها، وبدا أنها تتحاشى النظر إلى عينيها، فلا بد أن موريس قد أخبرها عن مواجهتهما. أبقت رأسها مطأطأً، تنظر إلى حِجرها، وبدت محرجة.

لكن الأخريات حدّقن فيها بوجوه خالية من التعبير، وكأنهن

ينتظرنها أن تتكلّم، لكنها لم تنبس ببنت شفةٍ، فجلسن في صمتٍ مطبق لبعض الوقت.

ألقت ماريانا نظرةً إلى الساعة، التي أشارت إلى الخامسة وعشر دقائق. لم يأتِ البروفيسور فوشكا بعد، ولعلّها تكون محظوظةً ويقرّر عدم الحضور.

«أظن أنه يجب علينا أن نبدأ»، قالت ماريانا أخيراً.

«ماذا عن البروفيسور؟»، سألت الشقراء.

«لا بد أن شيئاً ما منعه عن القدوم. علينا أن نبدأ من دونه. لمَ لا نبدأ بأسمائنا؟ أنا ماريانا».

ظلّ الصّمت سيد الموقف لوهلةٍ، ثم هزّت الشقراء كتفيها.

«كارلا».

تَبِعَتها الأخريات.

«ناتاشا».

«دِيا».

«ليليان».

كانت سيرينا آخر من تكلّم. نظرت إلى ماريانا ثم هزّت كتفيها.

«تعرفين اسمي».

«أجل، يا سيرينا. أعرفه».

استغرقت ماريانا لحظة لتُرتّب أفكارها، ثم وجّهت كلامها إليهن كمجموعةٍ.

«أتساءل كيف تشعرن وأنتن مجتمعاتٌ هنا».

قابلَ ذلك صمتٌ مطبقٌ. لم تكن هناك أية ردّة فِعلٍ، ولا حتة هزّة كتفين. شعرت ماريانا بعُدوانيّتهن الباردة الموجّهَة إليها، لكنها تابعت، دون أن تفقد عزيمتها.

«سأخبركن عن شعوري. إنه شعورٌ غريبٌ، إذ تظل عينايَ منجذبتَين إلى الكراسي الشاغرةِ». أومأت برأسها إلى الكراسي الثلاثة الشاغرة في الدائرة. «إلى الأشخاص الذين يُفترض أن يكونوا هنا، لكنهم ليسوا كذلك».

«البروفيسور، مثلاً»، علّقت كارلا.

«أنا لم أقصد البروفيسور فحسب. من تَحسبن أنني أقصد أيضاً؟».

ألقت كارلا نظرةً إلى الكراسي الشاغرةِ ثم قلبت عينيها بسخرية. «أهذان الكرسيّان من أجل تارا وفيرونيكا؟ ما هذا الغباء؟».

«لَم تظنّينَ أنه غباءٌ؟».

«لأنهما لن تأتيا. بطبيعة الحال».

هزّت ماريانا كتفيها إثر ذلك. «هذا لا يعني أنهما ليستا جزءاً من المجموعة. أتعلمن، غالباً ما نتحدث عن ذلك في العلاج الجماعي. فحتى إذا لم يعد الأشخاص معنا، فيمكن لحضورهم أن يظلّ قويّاً».

وهي تقول ذلك، ألقت نظرةً إلى أحد الكراسي الشاغرة، ورأت سيباستيان جالساً هناك، وعلامات التسلية باديةٌ على محيّاه.

طردت الصورة من ذهنها، وتابعت.

«يجعلني هذا أتساءل... عمّا يشعر به المرء لكونِه جزءاً من مجموعةٍ كهذه... عمّا يعنيه الأمر بالنسبة إليكن؟».

لم تستجب أيٌّ من الفتيات إلى كلامها. حدّقن فيها دون أن يَطرِف لهن جَفنٌ.

«في العلاج الجماعي، غالباً ما نضع المجموعةَ موضِعَ العائلة.

نعيّن الإخوة والأخوات، والوالدين، والأعمام والخالات. وأفترض أن هذه المجموعة شبيهة بالعائلة إلى حد ما؟ فعلى نحوٍ ما، لقد فقدتنّ أختَين اثنتَين».

لا جواب. تابعت بحذر.

«أفترض أن البروفيسور فوشكا هو "أبوكنّ"؟».

أعقب ذلك صمتٌ. حاولت مجدّداً. «هل هو أبٌ صالح؟».

أطلقت ناتاشا تنهيدةً عميقةً تنمّ عن الانزعاج. «إنّ هذا لهراءٌ تامٌّ!»، قالت بلكنةٍ روسيّةٍ قويّةٍ. «إن أمركِ مكشوفٌ تماماً».

«أي أمرٍ هذا؟».

«أنت تحاولين دفعنا إلى قول شيءٍ سَيّئٍ عن البروفيسور. تحاولين خِداعنا، وإيقاعه في شِراكك».

«ولم تظنّين أنني أحاول الإيقاع به؟».

حدّجتها ناتاشا بنظرةٍ ازدراء، ولم تكلّف نفسَها عناء الرّدّ عليها حتى.

تحدّثت كارلا بدلاً منها. «اسمعي، يا ماريانا. نحن نعلم ما تظنّين... لكن لا علاقة للبروفيسور بالجريمتين».

«أجل!»، أكّدت ناتاشا بقوة بإيماءة من رأسها. «لقد كنّا برفقته طوال الوقت».

ظهرت في صوتها عاطفةٌ فجُائيةٌ مُتوقّدةٌ، شعورٌ لاذع بالاستياء.

«أنت غاضبةٌ للغاية، يا ناتاشا. أستطيع الشعور بذلك»، علّقت ماريانا.

ضحكت ناتاشا . «جيد، لأنه موجّه إليكِ!».

أومأت ماريانا برأسها. «من السهل أن تكوني غاضبةً منّي، فأنا

لا أشكّل تهديداً. ولا بد أنه من الأصعب أن تكوني غاضبةً من أبيك لسماحِه بموت اثنتَين من بناته».

«بحقّ السّماء، لم يكن موتُهما خطأَه»، قالت ليليان وهي تتكلّم لأول مرة.

«خطأُ من هو إذاً؟»، سألت ماريانا.

هزّت ليليان كتفيها. «إنه خطؤهما».

حدّقت فيها ماريانا. «ماذا؟ كيف يكون خطأهما؟».

«كان يجب عليهما أن تكونا أكثر حذراً. كانت تارا وفيرونيكا غبيّتَين، كلتاهما».

«هذا صحيح»، أكّدتْ دِيا.

وأومأت كارلا وناتاشا برأسيهما موافقتَين.

حدّقت فيهنّ ماريانا لوهلةٍ، عاجزةً عن الكلام. كانت تعلم أن الغضب شعورٌ أسهل من الحزن، لكن هي المُدرَّبة والمُبَرمَجة على تحسُّس المشاعر، لم تشعر بأي حزنٍ هنا. لا حِداد، ولا ندم، ولا فقدان. كل ما كان هناك هو الازدراء والاحتقار.

كان هذا غريباً. فعادةً، حين تتعرض مجموعةٌ كهذه لهجومٍ خارجيٍّ، فإنها ترصّ صفوفها، وتتّحد، وتتوحّد. لكن ماريانا أدركت فجأة أن الشخص الوحيد في سانت كريستوفر الذي أبدى مشاعرَ حقيقية حيال موتِ تارا وفيرونيكا كان زوي.

فكّرت ماريانا في مجموعة علاج هنري في لندن. كان شيءٌ ما هنا يذكّرها بها؛ الطريقة التي فرّق فيها وجودُ هنري المجموعةَ من الدّاخل، الطريقة التي هاجمها فيها حتّى لا تعمل بسلاسةٍ.

هل كان الأمر نفسه يحدث في هذه المجموعة أيضاً؟ إذا كان

الأمر كذلك فعلاً، فهذا يعني أن المجموعة لم تكن عُرضةً لهجومٍ خارجيٍّ.

هذا يعني أن التهديد كان موجوداً سابقاً.

في تلك اللّحظة، سُمع طرقٌ على الباب. ثم فُتح...

وظهر البروفيسور فوشكا عند العتبة.

ابتسم لهنّ. «هل يمكنني الانضمام إليكن؟».

14

«اعذرنَني على تأخّري»، قال فوشكا، «كان لديَّ موعدٌ وجبَ أن أحضره».

قطّبت ماريانا حاجبيها قليلاً. «أخشى أن نكون قد بدأنا بالفعل».

«حسنٌ، هل ما زال بإمكاني الانضمام إليكنّ؟».

«القرارُ ليس راجعاً إليّ، وإنما إلى المجموعة». ألقت نظرة إلى الأخريات. «من تظنّ أنه ينبغي السماح للبروفيسور فوشكا بالانضمام إلينا؟».

وقبل أن تنهي كلامها حتى، ارتفعت خمسُ أيادٍ حول الدائرة. جميعها عدا يدها.

ابتسم فوشكا. «أنتِ لم ترفعي يدكِ، يا ماريانا».

هزّت رأسها. «لا، لم أفعل. لكن رأيي لا يمثّل الأغلبية».

انتبهت ماريانا إلى أن طاقةَ الغرفة تغيّرت عندما انضم فوشكا إلى الدائرة. شعرت بأن الفتيات انقبضن، ولمحت نظرةً خاطفةً تبادلها فوشكا وكارلا وهو يأخذ مكانه.

ابتسم فوشكا لماريانا. «تابعي، أرجوكِ»

صمتت لوهلةٍ، ثم قررت مقاربة الجلسة على نحوٍ مختلفٍ. ابتسمت ابتسامة بريئة.

«أنت تُعلِّمُ الفتياتِ التراجيديا الإغريقية، يا بروفيسور، أليس كذلك؟».

«هذا صحيحٌ».

«هل درستم **إيفيجينيا في أوليس**؟ قصة أغاميمنون وإيفيجينيا؟».

أمعنَتِ النظرَ في وجهه وهي تلفظ تلك الكلمات، لكن لم يَبدُ عليه أي ردّةِ فعلٍ عند ذِكرها المسرحية. أومأ بالإيجاب. «لقد قمنا بذلك بالفعل. كما تعلمين، فإن يوربيديس أحد الكتّاب الأثيرين لديّ».

«صحيح. حسنٌ، أتعلم أمراً... لطالما وجدتُ شخصيّةَ إيفيجينيا غريبةً نوعاً ما... أتساءل عن رأي طالباتك فيها».

«غريبة؟ كيف ذلك؟».

فكّرت ماريانا لوهلة. «أفترضُ أن الأمر يزعجني... كونُها مذعِنة إلى هذه الدرجة... مطيعةً تماماً».

«مطيعة؟».

«إنها لا تحارب من أجل حياتها. هي ليست مقيّدةً ولا مكبوتةً، إلا أنها تسمح لوالدها أن يَسلُب منها حياتها، وبرضاها».

ابتسم فوشكا، ونظر إلى الأخريات. «النقطة التي ذكرتها ماريانا مثيرة للاهتمام. أترغب إحداكن في الإجابة...؟ كارلا؟».

بدت كارلا مسرورة لأنه خاطبها. ابتسمت لماريانا، كما لو أنها تداعب طفلاً. «إن الطريقة التي تموت بها إيفيجينيا هي **بيتُ القصيد**».

«ما يعني؟».

«ما يعني أنها بتلك الطريقة تحقق مكانتها التراجيديّة: من خلال موتٍ بُطوليّ».

ألقت كارلا نظرةً صوبَ فوشكا، بحثاً عن تأييده، فمنحها ابتسامة طفيفة.

هزّت ماريانا رأسها. «أنا آسفة، لكنني لا أصدّق أيّاً من ذلك».

«حقاً؟». بدا على فوشكا الاستغراب. «ولمَ لا؟».

نظرت ماريانا إلى الفتيات حول الدائرة. «أعتقد أن أفضل طريقةٍ للإجابة على ذلك... هي بضمّ إيفيجينيا إلينا، إلى هذه الجلسة، على أحد هذه الكراسي الشاغرة. ما رأيكن؟».

تبادلت فتاتان منهنّ نظراتِ ازدراء.

«يا له من اقتراح غبيّ»، علّقت ناتاشا.

«لماذا؟ لقد كانت في مثل سنّكن، أليس كذلك؟ أو أصغر قليلاً، ربما. في السادسة عشرة أو السابعة عشرة؟ كانت جد شجاعة ومميّزة. تخيّلن ماذا كانت ستفعل بحياتها - لو أنها نجت - ماذا كانت ستحقّق. ماذا كنا سنقول لإفيجينيا لو أنها جالسة هنا معنا الآن؟ ماذا كنا سنقول لها؟».

«لا شيء»، قالت ديا بفتور. «ما عسانا نقول».

«لا شيء؟ أما كنتِ ستحذّرينها... بشأن والدها المختلّ؟ وتساعدين في إنقاذها؟».

«إنقاذها؟». حدّجتها دِيا بنظرةٍ ملؤها الازدراء. «ممَ سأنقذها؟ من قَدَرها؟ إن التراجيديا لا تمضي على هذا المنوال».

«على أية حال، لم يكن الخطأ خطأَ أغاميمنون. إن آرتيميس هي مَن طالبت بموتها. لقد كانت هذه إرادةَ الآلهة».

«ماذا لو لم تكن هناك آلهة؟»، قالت ماريانا، «بل مجرد فتاةٍ ووالدِها. ماذا سنقول في هذه الحالة؟».

هزّت كارلا كتفيها. «في هذه الحالة، لن تكون تراجيديا».

أومأت دِيا برأسها مؤيدةً كلام رفيقتها. «ستكون مجرد أسرةٍ إغريقية مُختلّةٍ لعينةٍ».

ظل فوشكا صامتاً خلال كل ذلك، يراقب المناظرةَ بهدوءٍ واستمتاعٍ. لكن بدا وكأن فضوله قد استبدّ به.

«ماذا كنتِ ستقولين لها أنتِ، يا ماريانا؟ لهذه الفتاة التي ماتت من أجل إنقاذ اليونان؟ وبالمناسبة، لقد كانت أصغرَ مما ذكرتِ؛ أقربَ إلى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. لو كانت هنا الآن، ماذا كنتِ ستقولين لها؟».

فكّرت ماريانا لوهلة. «أفترض أنني كنت سأرغب في معرفة علاقتها بوالدها. . . ولماذا أَمْلَتْ عليها نفسُها وجوبَ الموت من أجله».

«ولمَ حصل ذلك في رأيك؟».

هزّت ماريانا كتفيها. «لأن الأطفال سيفعلون أي شيءٍ ليَحظَوا بالحب. حين يكونون في سنٍّ مبكّرةٍ، إنها مسألة بقاء جسدي، ثم بقاء نفسي بعد ذلك. سيفعلون أي شيء ليتم الاهتمام بهم ورعايتهم». خفضت صوتها وهي تتحدث ليس إلى فوشكا وإنما إلى الفتيات من حولها: «. . . ويستغلّ بعض الناس ذلك».

«ماذا يعني ذلك بالضبط؟»، سألها فوشكا.

«يعني أنني لو كنت معالِجتها النّفسية، كنت سأحاول مساعدة إيفيجينيا على رؤية شيءٍ. . . شيءٍ غير مرئي بالنسبة إليها».

«وما قد يكون ذلك الشيء؟»، سألت كارلا.

حرصت ماريانا على انتقاء كلماتِها بعنايةٍ. «أنها، وفي سنّ مبكّرة، أساءت فهم الإساءة على أنها حبٌّ. وهذا الخطأ صبغَ الطريقةَ التي رأت بها نفسَها. . . والعالَم من حولها. إن أغاميمنون لم يكن بطلاً؛ كان رجلاً مجنوناً، معتلّاً نفسيّاً، قاتلَ أطفالٍ. لم يكن ينبغي لإيفيجينيا حُبُّ وتكريمُ هذا الرّجل. لم يكن ينبغي لها أن تموت من أجل إرضائه».

نظرت ماريانا إلى أعين الفتيات وهي تقول ذلك، محاولة الوصول إليهن. أملت أن تكون تلك الكلماتُ قد نجحت في النّفاذ إليهن. . . لكن هل أفلح ذلك؟ لم يكن بإمكانها الجزم. أحسّت بعينَي فوشكا عليها، وشعرت بأنه كان على وشك مقاطعتها، فأنهت كلامها بسرعةٍ.

«ثم إن هناك شيئاً آخر؛ لو أن إيفيجينا توقّفت عن الكذب على نفسها بشأن والدها. . . لو أنها فتحت عينَيها على الحقيقة الفظيعة والمدمّرة - أن ذلك **لم يكن حبّاً**، أنه لم يكن يحبّها، لأنه لم يكن يعرف كيف يحبّ - لكانت توقفت في لحظتها عن أن تكون بتولاً بلا حماية تضع رأسها على المحكّ. كانت ستأخذ الفأس من يد جلّادها. كانت ستصبح إلهة».

التفتت ماريانا لتحدّق في فوشكا. حاولت إبعاد الغضب عن نبرة صوتها، لكنها لم تستطع إخفاءه تماماً.

«لكن هذا لم يحصل لإيفيجينيا، أليس كذلك؟ ولا لتارا، ولا لفيرونيكا من بعدها. لم تُتَح لهنّ الفرصةُ قطّ ليصبحن إلهات. لم تُتح لهن الفرصة قطّ ليَكبرن».

وهي تحدّق فيه من الطرف المقابل للدائرة، لمحتْ ومضةَ غضبٍ تُبرِقُ في عينَيه. لكنه، مثلها، لم يعبّر عنه.

«أفهم أنكِ، على نحوٍ ما، تضعينني موضِع الأب في الوضع الحالي؟ موضِع أغاميمنون؟ أهذا ما تقصدين؟».

«من المضحك أن تقول ذلك. فقبل أن تصل، كنّا نناقش استحقاقك لقب ''الأب'' لهذه المجموعة».

«أوه، حقاً؟ وماذا كان الإجماع العام؟».

«لم نتوصل إلى إجماعٍ. لكنني سألت البُتُل عما إذا كنّ يشعرن بأنهن أقلَّ أماناً في رعايتكَ، بعد أن قُتلت اثنتان مِنهنَّ».

وهي تقول ذلك، شرد نظرها لاإرادياً نحو الكرسيّين الشاغرين، فتبعت عينا فوشكا نظرتَها.

«آه، أنا أفهم الآن»، قال فوشكا. «الكرسيان الشاغران يمثّلان العضوَين المفقودَين من المجموعة... كرسيٌّ لتارا، وكرسيّ لفيرونيكا؟»؟

«هذا صحيح».

«في هذه الحالة»، أضاف بعد صمتٍ وجيزٍ، «ألا يجب أن يكون هناك كرسيٌّ إضافيٌّ؟».

قطّبت ماريانا حاجبيها. «ما قصدك؟».

«ألا تعلمين؟».

«لا أعلم ماذا؟».

«أوه، هي لم تخبركِ! إنه لأمرٌ مثيرٌ للاهتمام بحقٍّ». علت وجهَ فوشكا ابتسامةٌ عريضةٌ، وبدا مستمتعاً وهو يُردف: «ربما يجب عليك توجيه تلك العدسة التحليليّة النّفّاذة إلى نفسكِ، يا ماريانا. أيُّ نوعٍ من ''الأمّهات'' أنتِ؟».

«طبيبٌ يداوي الناسَ وهو عليل!»، علّقت كارلا ضاحكة.

قهقَه فوشكا. «أجل، أجل، تماماً».

التفت إلى الأخريات، وخاطبهنّ بنبرةٍ ساخرةً يُحاكي بها طريقةَ تحدّثِ مُعالجٍ نفسيٍّ.

«ماذا يمكن أن نفهم من حالة الخداع هذه، **كمجموعة**؟ ماذا نظن أن ذلك **يعني**؟».

«في الواقع، أظن أن هذا يكشف **الكثير** عن علاقتهما»، قالت كارلا.

أومأت ناتاشا برأسها. «أوه، أجل. إنهما ليستا مقرّبتَين بالقدر الذي تظنّه ماريانا».

«من الواضح أنها لا تثق بها»، أضافت ليليان.

«لمَ لا؟ أتساءل»، تمتم فوشكا والابتسامة لا تزال على شفتيه.

شعرت ماريانا بوجهها يحمرّ، ويحترق من هذه اللّعبة المزعجة التي يلعبونها، لعبةٌ لا ترتقي إلى مستوى المدرسة الإعدادية. فمثل كلّ المتنمّرين، تلاعبَ فوشكا بالمجموعة، ووحّد الجميعَ في عصابة ضِدّها. كانوا جميعُهم متواطئين في تلك المزحة الثّقيلة، يسخرون منها والابتساماتُ تعلو وجوههم. كرهتهم كلّهم فجأةً.

«عمّ تتحدثون؟»، سألت ماريانا.

نظر فوشكا من حوله إلى الفتيات المتحلّقات في دائرةٍ. «حسنٌ، مَن منكنّ تَوَدُّ أن تحظى بالشرف...؟ ماذا عنك، يا سيرينا؟».

أومأت سيرينا برأسها ثم وقفت، غادرت الدائرة، وتوجهت نحو طاولة الطعام. حملت كرسياً، عادت به، ووضعته بجوار كرسي ماريانا ثم جلست في مكانها من جديد.

«شكراً لك»، قال فوشكا مُنوِّهاً بعملها. ألقى نظرةً إلى ماريانا.

«كان ينقص الدّائرةَ كرسيٌّ، كما ترين. إنه يخصُّ آخرَ أعضاء البُتُل».

«ومن يكون ذلك؟».

لكن ماريانا كانت قد خمّنت ما كان فوشكا على وشك قوله.

ابتسم فوشكا. «ابنة أختك. زوي».

15

بعد نهاية اللّقاء، خرجت ماريان إلى الساحة الرئيسية، مَشدوهةً.

كانت بحاجةٍ إلى التحدث إلى زوي وسماع جانبها من القصة. ورغم الطريقة القاسية، لقد أشارت المجموعة إلى نقطةٍ وجيهةٍ: كانت ماريانا بحاجةٍ إلى النظر إلى نفسها، وإلى زوي، عن كَثبٍ، وإلى فهم السبب الذي جعل زوي تخفي عنها أنها إحدى البُتل.

وجدت نفسها في طريقها إلى غرفة زوي، لتقابلها وتواجهها. لكن، حالما بلغت الممر المقنطر المؤدي إلى ساحة إيروس، توقفت ماريانا.

كان عليها أن تتعامل مع الأمر بحرصٍ شديدٍ. لم تكن زوي حسّاسة وهشّة فحسب، بل لم تكن قادرة على البوح بالحقيقة لماريانا لسببٍ ما، ولم تستطع ماريانا إبعاد فكرة أن لفوشكا علاقة بذلك.

كما أن فوشكا قد أفشى سِرَّ زوي لتوّهِ عن قصدٍ بغرض استفزاز ماريانا، لذا كان من الضروري تفادي ابتلاع الطُّعم: يجب ألّا تقتحم غرفة زوي هكذا وتتّهمها بالكذب.

كانت بحاجة إلى أن تفكّر ملياً في خطوتها التالية، وأن تدعم

زوي قدر الإمكان، فقرّرت تأجيل حديثها معها إلى الصباح، بعد أن تكون قد هدأت أعصابها.

استدارت وعادت أدراجها، سارحةً في أفكارها، ولم تنتبه إلى وجود فريد حتى خرج من العتمة وظهر أمامها.

كان يقف في الممر، أمامها مباشرةً.

«مرحباً، يا ماريانا».

التقطت أنفاسها. «فريد! ماذا تفعل هنا؟».

«أبحث عنك. أردتُ التأكد أنكِ بخير».

«أنا بخير... أو أكاد أكون كذلك».

«لقد قلتِ إنك ستتواصلين معي عند عودتكِ من لندن».

«أجل، أنا آسفة. لقد... لقد كنت مشغولةً».

«هل أنت متأكدة أنكِ بخير؟ تَبدين... كما لو أنك بحاجة إلى احتساء كأسٍ».

ابتسمت ماريانا. «أنا بحاجة إلى ذلك فعلاً».

ابتسم فريد بدوره. «حسنٌ، في هذه الحالة... يتصادف أن لديّ قنّينة بورجندي فاخرة، مسروقة من إحدى حفلات العشاء في الجامعة، وقد احتفظت بها من أجل مناسبةٍ مميّزةٍ... ما رأيكِ؟ إنها في غرفتي».

تردّدت ماريانا ثم أومأت برأسها. «حسنٌ، لمَ لا؟».

«حقّاً؟». أضاء وجهُ فريد. «رائع! هيا بنا...».

مدّ لها ذراعه، لكن ماريانا لم تمسكها وانطلقت مبتعدةً، فأسرع فريد الخطى للّحاق بها.

16

كانت غرفة فريد في كلية الثالوث أكبرَ من غرفة زوي، إلا أن الأثاث كان مهترئاً شيئاً ما. وأوّل ما شدّ انتباه ماريانا هو نظافة وترتيب المكان: لا أكوام، ولا فوضى، باستثناء الأوراق المنتشرة في كل مكان، أوراقٌ عليها خربشاتٌ، وكتاباتٌ، ومعادلاتٌ رياضيّةٌ. بدت مثل عمل شخصٍ مجنونٍ - أو عبقريٍّ - تتخلّله الأسهمُ والملاحظاتِ على الهوامش.

كانت الغرفة خاليةً من أيّ ممتلكاتٍ شخصيّةٍ عدا صورتَين على الرّف. بدت إحدى الصورتين باهتةً، كما لو أنها التُقطت في ثمانينيات القرن الماضي: زوجٌ شابٌّ - رجلٌ وامرأةٌ - حسنَا المظهر، يقفان أمام سياجٍ مُسَنّنٍ ومَرجٍ. أما الصورة الثانية فكانت لصبيّ بتسريحة شعرٍ نصف دائريّةٍ ونظرةٍ جادّةٍ على وجهه، يقف رفقة كلبٍ.

ألقت ماريانا نظرةً إلى فريد، ولاحظت تعبير الوجه نفسه وهو يركّز على إشعال بعض الشّموع. شغّل موسيقى كلاسيكيّة بعد ذلك، سوناتا **اختلافات غولدبرغ** لباخ، جمع كل الأوراق عن الأريكة، ووضع الكومة فوق المكتب. «عذراً على الفوضى».

«هل هذه أطروحتك؟»، سألت ماريانا وهي تشير برأسها إلى كومة الأوراق.

«لا». هزّ فريد رأسه. «إنه... مشروعُ كتابةٍ أعمل عليه. نوعٌ من الـ... إنه كتابٌ، على ما أفترض». بدا وكأنه يفتقر إلى الكلمات لوصفه. «ألن تجلسي؟».

أشار إلى الأريكة، فامتثلت ماريانا بالجلوس. شعرت بوجود نابضٍ مكسورٍ تحتها، فانزاحت قليلاً.

أخرج فريد قنّينة البورجندي الفاخر، وعرضها أمامها بفخر. «لا بأس بها، هاه؟ كانوا سيقتلونني حتماً لو أمسكوا بي وأنا أسرقها».

أخرج لولباً لإزالة سدّادة القنينة، لكنه عانى لفتحها. للحظةٍ، ظنّت ماريانا أنه سيُسقطها أرضاً، لكنّه نجح في فتحها أخيراً، فأصدرت فَرقَعةً صاخبةً. ثم صبّ لهما النّبيذ الأحمر الغامق في كأسَي نبيذ مشعورَين غير متناسقَين، وقدّم إلى ماريانا أقلّهما تضرّراً.

«شكراً لك».

رفع كأسه. «في صحّتكِ».

ارتشفت ماريانا بعض النبيذ، الذي كان ممتازاً فعلاً. وبدا أن فريد وجده ممتازاً أيضاً. تنهدّ في سرور، بشفتَين ملطّختَين بالسّائل الأحمر القاني. «إنه رائعٌ!».

خيّم الصمتُ لوهلةٍ. استمعت ماريانا إلى الموسيقى، مستسلمةً إلى صعود نغمات باخ وانخفاضها على السّلّم الموسيقي. كم كانت تلك النوتاتُ أنيقةً، تتبع دِقّة الرياضيّات في تكوينها، وهو على الأرجح السببُ الذي جعلها تروق لعقل فريد الرياضيّ.

ألقت نظرةً إلى الورق المكوَّم فوق المكتب. «هذا الكتاب الذي تعمل عليه... ما موضوعه؟».

«بصراحة؟ لا فكرةَ لديّ».

ضحكت ماريانا. «لا بد أن تكون لديك فكرةٌ ما».

«في الواقع...». أشاح فريد بنظره بعيداً. «على نحوٍ ما... أفترض أنه... عن والدتي».

نظر إليها والخجل بادٍ عليه، كما لو أنه خشي أن تسخر منه.

لكن ماريانا لم تجد في الأمر ما هو مضحك. حدّجته بنظرةِ فضول. «والدتك؟».

أومأ فريد برأسه. «أجل. لقد رحلت عنّي... حين كنتُ طفلاً. لقد... توفّيت».

«يؤسفني سماع ذلك»، قالت ماريانا. «والدتي توفّيت أيضاً».

«حقّاً؟». توسّعت عينا فريد لسماعه ذلك. «لم أكن أعرف ذلك. كِلانا يتيمٌ إذاً».

«لم أكن يتيمةً. كان لديّ والدي».

«أجل». أومأ فريد وتكلّم بصوت خفيض. «وأنا أيضاً».

حمل القنّينة وشرع في ملء كأس ماريانا من جديد.

«هذا يكفي»، قالت، لكنه تجاهلها وملأ الكأس إلى حافته. لم تكن تمانع ذلك حقاً، فقد كانت تسترخي للمرة الأول منذ أيام، وشعرت بالامتنان له.

«أتعلمين...»، قال فريد وهو يملأ كأسه، «إن موت والدتي هو ما دفعني إلى الرياضيات النّظرية... وإلى الأكوان الموازية. هذا هو موضوع أطروحتي».

«لستُ متأكدةً أنني أفهم كلامكَ».

«ولا أنا، في الحقيقة. ولكن في حال كانت هناك أكوانٌ أخرى، مماثلةٌ لكوننا، فهذا يعني أنه في مكان ما، يوجد كونٌ

آخرٌ. . . حيث لا تزال والدتي على قيد الحياة». هزّ كتفيه. «فرحت أبحث عنها».

علت عينَيه نظرةُ حزنٍ، كما لو كان طفلاً صغيراً تائهاً. شعرت ماريانا بالأسف عليه.

«وهل وجدتها؟»، سألته.

هزّ كتفيه. «على نحوٍ ما. . . اكتشفتُ أن لا وجود للزمن. ليس فِعلاً، لذا فهي لم ترحل إلى أي مكان. إنها هنا».

فيما كانت ماريانا تحاول فهم ما قاله فريد، وضع هذا الأخير كأسه، ونزع نظّاراته، وواجهَهَا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«اسمعي، يا ماريانا. . .».

«أرجوك، لا تفعل».

«ماذا؟ أنت لا تعلمين ما أودّ قوله».

«ستقوم بإعلانٍ رومنسيٍّ ما. وأنا لا أريد سماعَه».

«إعلان؟ لا. هو مجرد سؤال. هل يحقّ لي طرح سؤالٍ؟».

«يعتمد الأمر على نوع السؤال».

«أنا أحبك».

قطّبت ماريانا حاجبيها. «هذا ليس سؤالاً».

«هل تقبلين الزواج مني؟ هذا هو السؤال».

«فريد، اصمتْ أرجوك. . .».

«أنا أحبّك، يا ماريانا. لقد أُغرمت بكِ في أول لحظة رأيتك فيها، جالسةً في مقصورة القطار. أريد أن أعيش في صُحبتك. أريد أن أهتمّ بكِ. أريد أن أعتني بكِ. . .».

لقد تفوّه بالكلمات الخطأ. شعرت ماريانا بحرارتها ترتفع، وبخدّيها يحمرَّان غيظاً.

«اسمع، أنا لا أريد أن **يُعتَنى بي**! لا يمكنني التفكير في شيءٍ أسوأ من ذلك. أنا لست فتاةً تمرّ في محنة. لستُ... **بَتولاً** تنتظر أن يتم إنقاذُها. لا أحتاج إلى فارسٍ على صَهوة جواده... أنا أريد... أريد...»

«ماذا؟ ماذا تريدين؟».

«أريد أن أُترك **لحالِ سبيلي**».

«لا». هزّ فريد رأسَه. «لا أصدّق ذلك». ثم، وبسرعةٍ، استرسل في كلامه: «تذكّري نُبوءَتي: يوماً ما، سأطلب يدك للزواج، وستوافقين».

لم يسَع ماريانا إلا الضّحك في وجهه. «آسفةٌ، يا فريد، لكن هذا لن يحدث في هذا الكون».

«في الواقع، في كونٍ آخر، نحن متزوجان بالفعل».

وقبل أن تتمكّن من الاعتراض، انحنى فريد نحوها وطبع قُبلةً خفيفةً على شفتيها، فشعرت برقّة قُبلته، ودِفئها، وحنانها. وشعرت في الآن نفسه بخطورة تلك القبلة، وبضعفها إزاءها.

وقع الأمر في لمح البصر، وانتهى سريعاً، كما بدأ. تراجع فريد، وعيناه تنظران في عينيها. «أنا آسف. أنا... أنا لم أتمالك نفسي».

هزّت ماريانا رأسها، دون أن تنبس ببنت شفةٍ. شعرت بأنها تأثّرت على نحوٍ لم تكن قادرةً على تفسيره.

«أنا لا أريد إيذاءك، يا فريد».

«أنا لا أمانع ذلك. لا بأس إذا أذيتني. ففي نهاية المطاف، ”من الأفضل أن تحبّ وتخسر، من ألا تحبّ على الإطلاق“».

ضحك فريد، ثم انتبه إلى تعابير الحزن التي ارتسمت على وجه ماريانا. «ماذا؟ هل قلتُ شيئاً أزعجك؟».

«كلّا، لا عليك». نظرت إلى ساعتها. «الوقت متأخر، يجب عليّ المغادرة».

بدا فريد متأسفاً لسماع ذلك. «أوه، حقاً؟ حسنٌ، سأرافقك إلى الأسفل».

«لست مضطراً أن...».

«أنا أرغب في ذلك».

بدا وكأن سلوك فريد تغيّر شيئاً ما، بدا أكثر تركيزاً. وبدا كما لو أن شيئاً من دِفئه قد تبخّر. نهض من مكانه دون أن ينظر إليها.

«هيا بنا»، قال.

17

نزل فريد وماريانا السلالمَ في صمت. لم يتحدّثا مجدّداً إلى أن صارا في الشارع.

ألقت ماريانا نظرةً إليه. «ليلةً سعيدةً إذاً».

ظلّ فريد متسمّراً في مكانه. «أنا ذاهب لأتمشّى».

«الآن؟»، استغربت ماريانا.

«غالباً ما أتمشّى ليلاً. هل من مشكلة في ذلك؟». كان في نبرته شيء من الوخز، من العدائيّة. لقد شعر بالرّفض، كان هذا واضحاً لها، وقد أزعجها ذلك، حتى لو لم يكن رد فعلها منصفاً تماماً. لكن لا دخل لها في مشاعره المجروحة. كانت لديها أمور أهمّ لتقلق بشأنها.

«حسنٌ، إلى اللّقاء إذاً»، قالت له.

ظلّ فريد واقفاً في مكانه بلا حراك، يحدّق فيها، ثم قال فجأة: «انتظري»، وأدخل يده في جيبه الخلفي وأخرج بعض الأوراق المطوية. «كنت أعتزم أن أعطيكِ إيّاها لاحقاً، لكن. . . خذيها الآن».

مدّ لها الأوراق، لكنها لم تأخذها.

«ما هذه؟».

«إنها رسالةٌ... إليكِ... إنها تشرح مشاعري أفضلَ مما أستطيع فعله شخصيّاً. اقرئيها. وستفهمين».

«أنا لا أريدها».

مدّها لها مجدداً. «خُذيها، يا ماريانا».

«لا. توقّف. لن أُغضَب على ذلك».

«ماريانا...».

لكنها استدارت ومضت. وحين بلغت نهاية الشارع، شعرت بالغضب بدايةً، ثم بوخزة حزنٍ استغربتها... ثم بالنّدم. ليس لأنها جرحت مشاعره، ولكن لأنها رفضَته، لأنها أغلقت الباب في وجه قصة كان من الممكن أن تنبثق.

أكان هذا ممكناً؟ أكان ممكناً أن تكون ماريانا قد وقعت في حبه، هذا الشّابّ الجادّ؟ أكان بإمكانها أن تعانقه ليلاً، وتحكي له قصصها؟ وهي تفكّر في هذه الأمور، علمت أن هذا مستحيلٌ تماماً. كيف يمكنها ذلك؟

كان لديها الكثير لتَحكيه، لكن لسيباستيان، ولا أحد سواه.

حين عادت ماريانا إلى سانت كريستوفر، لم تقصد غرفتها مباشرة، بل مضت عبر الساحة الرئيسية، ومنها إلى المبنى الذي يأوي مخزن المؤن.

مضت تتلمّس طريقها عبر الممر المعتم إلى أن وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام اللوحة.

بورتريه تنيسون.

لقد ظلّت صورته في ذهنها، وظلّت تفكّر فيها طوال الوقت، دون أن تعرف سبب ذلك بالضبط. تنيسون الوسيم، الحزين.

كلّا - ليس حزيناً - لم تكن هذه الكلمةَ المناسبةَ لوصف النظرة في عينيه. فماذا كان ذلك يا ترى؟

حدّقت في وجهه، محاولةً قراءة ذلك التعبير. ومجدّداً، راودها الشعور الغريب نفسه بأنه كان ينظر إلى شيء ما من خلفها، أعلى كتفها بقليلٍ... شيءٍ محجوب عن الأنظار.

لكن ما هو؟

وفهمت ماريانا فجأةً. فهمت إلى ماذا - أو بالأحرى إلى مَن - كان ينظر.

إنه هالام.

كان تنيسون يحدّق في هالام - هالام الواقف وراء النور... خلف الحجاب. هذا ما عبّرت عنه النظرةُ في عينَي تنيسون، نظرة رجلٍ يتواصل مع الأموات.

كان تنيسون تائهاً... مغرماً بشبحٍ. لقد أولى الحياة ظهرَه. فهل فعلت ماريانا الشيء نفسه؟

لقد اعتقدت يوماً أنها فعلت.

لكن ماذا عن الآن...؟

الآن، لعلها... لم تكن متأكدة.

ظلّت واقفةً هناك، غارقةً في أفكارها، وحين همّت بالمغادرة والتفتت... سمعت وقع خطى، فتوقفت.

حذاء رجاليّ صلب يمشي على الأرضية الصخريّة للممرّ الطويل خافت الإضاءة...

كان يقترب منها أكثر فأكثر.

في البداية، لم تستطع رؤية أحد. لكن بعد ذلك... عندما اقترب منها، رأت شيئاً يتحرّك في الظّلام... ولمعةَ سِكيّنٍ.

تجمّدت في مكانها، بالكاد تجرؤ على التنفّس، تحاول رؤية من يكون. ورويداً رويداً... ظهر هنري من قلب الظّلام.

حدّق فيها.

كانت في عينيه نظرةٌ مُريعةٌ، يشوبها الهوس. بدا وكأنه خرج لتوّهِ من مشاجرةٍ، إذ كان أنفه ينزف، ولطّخ الدم وجهَه وقميصَهُ، وحمل في يده سكّيناً بطول سبعة أو ثمانية إنشاتٍ.

حاولت ماريانا أن تبدو هادئة وغير خائفة، لكنها لم تستطع إخفاء رعشة طفيفة في صوتها.

«هنري؟ ضع السّكّين جانباً رجاءً».

لم يستجب، بل ظلّ يحدّق فيها فحسب. كانت عيناه واسعتين مثل مصباحَين، وكان من الجليّ أنه قد تعاطى مخدّر ما.

«ما الذي تفعله هنا؟».

ظلّ هنري صامتاً لوهلة. «كنت بحاجة إلى رؤيتكِ، أوَلَمْ أكُن؟ ما كنتِ لترَينني في لندن، لذا وجب عليّ القدوم كل هذه المسافة إلى هنا».

«كيف عثرتَ عليّ؟».

«لقد رأيتكِ على التلفاز... كنت تقفين مع الشّرطة».

تحدّثت ماريانا بحذرٍ. «أنا لا أذكر ذلك. لقد فعلت كلّ ما بوسعي لتفادي عدسات الكاميرات».

«أتظنين أنني أكذب؟ أتظنّين أنني تبعتك إلى هنا؟».

«هنري، أنتَ من اقتحم غرفتي، أليس كذلك؟».

تسلّلت نبرةٌ هستيريّةٌ إلى صوته. «لقد تخلّيتِ عنّي، يا ماريانا. لقد... ضحّيتِ بي...».

«ماذا؟!». حدّقت فيه ماريانا، مستنفرة فجأة. «لماذا استعملتَ تلك الكلمة؟».

«هذا صحيح، أليس كذلك؟».

رفع السكّين ثم تقدّم خطوة نحوها، لكن ماريانا ظلّت ثابتة في مكانها.

«ضع السّكّين، يا هنري».

واصل تقدّمه نحوها. «لا أستطيع المواصلة على هذا المنوال. أحتاج أن أحرّر نفسي. أحتاج أن أتخلّص من قيودي».

«هنري، توقف أرجوك...».

رفع السّكين إلى الأعلى كما لو أنه يستعد للهجوم، فشعرت ماريانا بدقات قلبها تتسارع.

«سأقتل نفسي هنا والآن، أمامكِ. وأنت ستشاهدين ذلك»، قال لها.

«هنري...».

رفع هنري السكين أعلى، ثم...

«هِيه...!».

سمع هنري الصوت خلفه والتفت، فإذا بموريس يظهر من وسط العتمة وينقضّ عليه. تصارعا على السّكّين، لكن سرعان ما تغلّب عليه البوّاب الشّابُّ دون عناءٍ يُذكر، وألقاه جانباً كما لو كان فزّاعةً من القشّ. سقط هنري أرضاً وتداعى مثل كيسٍ من الرّمل على الرّصيف الصّخري.

«اتركه في حال سبيله»، قالت ماريانا. «لا تُؤذِه».

تقدّمت نحو هنري لتساعده على النهوض. . . لكنه دفع يدها.

«أنا أكرهكِ»، قال مثل طفلٍ حانِقٍ وعيناه الحمراوان تدمعان.

«أنا أكرهكِ».

اتصل موريس بالشرطةِ، فألقت القبض على هنري، لكن ماريانا أصرّت على أنه بحاجةٍ إلى رعايةٍ نفسيّةٍ، فأُخِذ إلى المستشفى حيث وصفوا له مضاداتٍ للهَوَس، ورتّبت ماريانا لقاءً مع الطبيب المشرف عليه صباح اليوم الموالي.

لامت ماريانا نفسها على ما حدث، طبعاً.

كان هنري محقّاً، لقد ضحّت به، وبباقي الأشخاص الضعفاء ممّن كانوا في رعايتها. فلو أنها كانت متوفّرةً، كما أرادها هنري أن تكون، لما وصلت الأمور إلى هنا. هذه هي الحقيقة.

والآن تعيَّن على ماريانا أن تحرص على ألا تذهب هذه التّضحيةُ سُدىً. . . مهما كلّف الثمن.

18

كانت الساعة تقارب الواحدةَ صباحاً حين عادت ماريانا إلى غرفتها. كانت منهكة، لكن لم يسمح لها توتُّرها بالخلود إلى النوم. كانت قلقة ومشوّشة الذهن.

كانت الغرفة باردةً، فشغّلت المدفأة الكهربائية الموصولة بالحائط. لا بد أنها لم تُستعمل منذ الشّتاء الماضي، إذ ملأتِ المكانَ رائحةُ غُبارٍ محترقٍ قويةٌ إثر تشغيلها. جلست ماريانا على كرسيّ خشبيّ بظهر مستقيم، تحدّق في المدفأة الملتهبة التي تشعّ في الظّلام، تشعر بحرارتها، وتصغي إلى حسيسها. جلست هناك تفكر، تفكر... في إدوارد فوشكا.

كم كان متعجرفاً، معتدّاً بنفسه. **يظن أنه أفلتَ بفعلته**، قالت في سرّها. **يظن أنه انتصر.**

لكنه لم يفعل. ليس بعد. وكانت ماريانا عازمةً على أن تُثبت له من منهما الأذكى. وجب عليها ذلك. ستجلس هنا طوال اللّيل، لتفكّر وتجد سبيلاً إلى ذلك.

ظلت جالسةً في مكانها لساعاتٍ، في حالةٍ من اليَقَظة الحادة - تفكّر وتفكّر - تُراجع كلَّ ما حدث منذ أن اتصلت بها زوي مساء

ذلك الاثنين. راجعت كل حدثٍ من القصة على حِدة، وكلَّ الخيوط المختلفة - تفحّصَتها من كل زاوية، في محاولةٍ لفك اللّغز - لرؤية الأمر بوضوح.

لا بد أن الأمر بديهي، لا بد أن الجواب هنا، أمام عينيها. لكن مع ذلك، لم تكن قادرةً على الإمساك به. كان الأمرُ أشبهَ بمحاولةِ تجميع قِطَع بازل في الظلام.

كان فريد ليقول إنه في كَونٍ آخرَ، لقد أفلحت ماريانا بالفعل في فهم كلّ شيءٍ. في كونٍ آخر، كانت أكثر ذكاءَ وفطنةَ.

ولكن ليس في كونِنا هذا، للأسف الشّديد.

جلست هناك إلى أن شعرت بالصّداع. ومع انبثاق الفجر، وبعد أن نال منها الإرهاق والاكتئاب، استسلمت، وما إن زحفت إلى سريرها حتى خلدت إلى النوم فوراً.

في نومها، رأت ماريانا كابوساً: حلمت أنها تبحث عن سيباستيان عبر أرضٍ جَرداءَ مُقفِرةٍ، تشق طريقها وسط الريح والثلوج. وجدته أخيراً... في حانةٍ حقيرةٍ، في فندقٍ جبليٍّ معزولٍ، خلال عاصفةٍ ثلجيّةٍ. ألقت عليه التّحيّةَ والبهجةُ تغمرها... لكن سيباستيان لم يتعرّف عليها، ما صدمها وأرعبها. قال إنها تغيّرت، إنها صارت شخصاً مختلفاً، فأقسمت له ماريانا مراراً وتكراراً أنها هيَ ذاتُها لم تتغيّر: **إنها أنا، أقسم لكَ إنها أنا**، والدموع تنهمر على خدّيها. وحين حاولت تقبيله، تراجع مبتعداً ومضى إلى قلبِ العاصفة، تاركاً إيّاها وراءه، فانهارت ماريانا وبكت بحسرةٍ على ضياع كل شيءٍ. ظهرت زوي لحظتها ووضعت بطّانيةً زرقاءَ على كتفيها. أخبرتها ماريانا كم كانت تحب سيباستيان: أكثر من حبّها لحياتها. أكثر من حبّها لنفسها. هزّت زوي رأسها، وقالت إن الحب

لا يجلب سوى الأسى، وإنه ينبغي لماريانا أن تستيقظ. «استيقظي، يا ماريانا».

«ماذا؟».

«استيقظي... استيقظي!».

استيقظت ماريانا فجأة في هلعٍ، تتصبّب عرَقاً بارداً، وقلبها يخفق بشدّةٍ.

كان أحدهم يخبط على الباب.

19

جلست ماريانا على السرير، وقلبها يخفق بقُوّةٍ. واصل الطارقُ خبطَه على الباب.

«انتظر، أنا قادمة»، صرخت له.

كم كانت السّاعة؟ تسلّلت أشعة الشّمس إلى الغرفة عند حوافّ الستائر. الثامنة؟ التاسعة؟

«من هناك؟».

لا جواب. صار الخبطُ على الباب أعنفَ، تماماً مثل الخبط في رأسها: راودها صُداعٌ خَفّاقٌ كاد يفجّر رأسها. لا بد أنها شربت أكثر مما ظنت بكثير.

«حسنٌ، انتظر لحظة».

سحبت ماريانا نفسها سحباً خارج السرير، مترنّحةً ومشوّشةَ الذهن، ثم جرّت نفسها جرّاً إلى الباب. أدارت القفل، وفتحت الباب.

كانت إلسي واقفة هناك، رافعةً يدها استعداداً لتطرق الباب مجدّداً. ابتسمت ابتسامة عريضة.

«صباح الخير، يا عزيزتي».

كانت تتأبّط منفضة غبارٍ، وتحمل دلواً طافحاً بمواد ولوازم التنظيف، وكان حاجباها مرسومَين على نحوٍ حادٍّ جعل مظهرها مرعباً. وقد كانت في عينيها لمعةُ إثارة، لمعة بدت لماريانا مشؤومة وجشعة.

«كم السّاعة، يا إلسي؟».

«لقد دقّتِ الحاديةَ عشرةَ للتوّ، يا عزيزتي. لم أوقظك، أليس كذلك؟».

انحنت نحو الداخل، متجاوزةً ماريانا، لتلقي نظرةً على السّرير غير المرتّب. كان باستطاعة ماريانا شمّ دخان السّجائر عليها. وهل كانت الرائحةُ المنبعثة من نَفَسِها رائحةَ كحول؟ أم كان هذا نَفَسَها الطبيعي؟

«لم أنم جيّداً»، قالت ماريانا. «لقد راودني كابوس مزعج».

«آه، يا عزيزتي»، تمتمت إلسي بنبرةٍ متعاطفةٍ، «لا يفاجئني ذلك، بالنظر إلى كل ما يجري. وأخشى أن يكون لدي المزيد من الأخبار السيئة، يا عزيزتي، لكنني ظننت أنه يجب أن تعرفيها».

«ماذا؟». حدّقت ماريانا فيها بعينين ذاهلتين. أصبحت فجأةً صاحيةً تماماً، وانتابها شعور بالخوف. «ماذا جرى؟».

«سأخبركِ إذا سمحتِ لي. هل لي بالدخول؟».

تراجعت ماريانا خطوة إلى الوراء، فاسحةً المجال لتدخل إلسي. ابتسمت الأخيرة لماريانا، ووضعت الدلو على الأرض. «هذا أفضَل. حضّري نفسك، يا عزيزتي».

«ما الأمر؟ أخبريني».

«لقد وجدوا جثّةً أخرى».

«ماذا؟ متى؟».

«هذا الصباح، بالقرب من النهر. فتاةٌ أخرى».

استغرق الأمرُ من ماريانا برهةً قبل أن تستعيد صوتها.

«زوي. . . أين زوي؟».

هزّت إلسي رأسها. «لا تشغلي رأسك الجميل بزوي. إنها في أمنٍ وأمانٍ، وفي سريرها على الأرجح، بحسب معرفتي بها». ثم ابتسمت وأضافت بتهكم: «أرى أن هذا يسري في العائلة».

«بحقّ المسيح، يا إلسي، من هي؟ أخبريني».

ابتسمت إلسي، وكان هناك شيء من الشناعة في ملامحها.

«إنها سيرينا الصغيرة».

«يا إلهي!». اغرورقت عينا ماريانا بالدموع وكبتت نشيجها.

«سيرينا الصغيرةُ المسكينةُ! للرب طرُقه الغامضة. . .»، قالت إلسي مبديةً بعض التعاطف. «يجب أن أنصرف، فلا راحة للمَلعونين على هذه الأرض».

استدارت لتغادر، ثم توقفت فجأة. «ربّاه! كِدت أنسى. . . لقد وجدتُ هذه أسفل بابكِ، يا عزيزتي».

أدخلت إلسي يدها في الدلو وسحبت منه شيئاً، ثم مدّته لماريانا. «تفضلي. . .».

بطاقة بريديّة.

تعرّفت ماريانا على الصورة فوراً. إنها مِزهريّةٌ إغريقيةٌ عتيقةٌ بالأبيض والأسود، تعود لآلاف السنين، رُسِم عليها تضحية أغاميمنون بإيفيجينيا.

ارتجفت يدها وهي تقلب البطاقة. على ظهرها، وكما توقعت، كان هناك اقتباس باللغة اليونانية القديمة، مكتوب بخط اليد:

τοιγάρ σέ ποτ᾽οὐρανίδαι
πέμψουσιν θανάτοις: ἦ σὰν
ἔτ᾽ ἔτι φόνιον ὑπὸ δέραν
ὄψομαι αἷμα χυθὲν σιδάρῳ

راودها شعور غريب بالدّوخة والدّوار وهي تحدّق في البطاقة البريديّة التي بين يديها، كما لو أنها تنظر إليها من جرفٍ عالٍ، وهي عرضة لأن تفقد توازنها، وتسقط... في هاويةٍ مُظلمةٍ سَحيقةٍ.

20

ظلت ماريانا جامدة بلا حراك لبرهةٍ، عاجزةً عن القيام بأية حركة، وبالكاد انتبهت لمغادرة إلسي الغرفةَ.

ظلّت تحدّق في البطاقة البريديّة التي بين يديها، غير قادرة على أن تشيح بنظرها، كما لو أن النيران اشتعلت في تلك الحروف اليونانية القديمة، وكانت تحترق وتلتهب في ذهنها.

بعد جهد جهيد، نجحت في قلب البطاقة، مبطلة سحرها. كانت بحاجة إلى التفكير بوضوح، إلى تحديد ما ينبغي لها فعله.

وكانت بحاجة إلى الاتصال بالشرطة، طبعاً. فحتى وإن كانوا يعتقدون أنها مجنونةٌ، لم يعد بإمكانها الاحتفاظ بأمر هذه البطاقات البريديّة لنفسها. تعيَّن عليها أن تخبر المفتش سانغا عنها.

تعيَّن عليها أن تعثر عليه.

دسّت البطاقة في جيب بنطالها الخلفي، وغادرت غرفتها.

كانت الشمس محتجبةً خلف الغيوم ذلك الصّباح، وحامت فوق الأرض بركٌ من الضّباب، كثيفة كالدخان. وفي وسط ذلك الضبّاب، وعبر الساحة، لمحت ماريانا طيفَ رجلٍ.

كان إدوارد فوشكا واقفاً هناك.

ماذا كان يفعل؟ ينتظر ليرى ردّة فعل ماريانا على البطاقة البريديّة؟ يتمتّع باللحظة، متلذذاً بتعذيبها؟ لم تستطع رؤية تعابير وجهه، لكنها شعرت يقيناً بأنه يبتسم.

وشعرت بغضب شديد فجأةً.

لم تكن تفقد أعصابها في العادة، لكن الآن، لأنها كانت بالكاد ذاقت النوم ليلةَ أمس، ولأنها كانت منزعجة وخائفة وغاضبة إلى أقصى الحدود. . . فقد أطلقت العنان لنفسها. لم يكن ذلك شجاعةً منها بقدر ما كان يأساً: انفجارٌ عنيفٌ لكربها، موجّه إلى إدوارد فوشكا.

وقبل أن تدرك، اندفعت عبر الساحة وفي اتجاهه. هل جفل؟ ممكن. كان تصرّفُها هذا مُفاجئاً وغير متوقع، إلا أنه وقف بثباتٍ، حتى حين بلغَته ووقفتْ على بعد سنتيمترات قليلة من وجهه، بخدَّين مُحمرَّين، وعينَين جاحظتَين، وأنفاسٍ منقطعة.

لم تقل شيئاً. حدّقت فيه فحسب، والغضب يحتدم بداخلها.

علت وجهَه ابتسامةٌ مترددةٌ. «صباح الخير، يا ماريانا».

رفعت ماريانا البطاقة البريديّة في وجهه. «ما معناها؟».

«عذراً؟».

أخذ منها البطاقة البريديّة، وألقى نظرة إلى الكتابة على ظهرها وهو يتمتم فيما يقرأ الكلمات المكتوبة باليونانية القديمة. كان على شفتَيه بصيص ابتسامةٍ.

«ما معناها؟»، كرّرت ماريانا.

«إنه اقتباس من مسرحية **إلكترا** ليوربيديس».

«أخبرني عن فحواه».

ابتسم فوشكا ونظر في عينَي ماريانا. «”لقد رغبت الآلهة في

موتك - وقريباً، من حلقكِ، سيَنبَجِس سيلٌ من الدّم ويغمُر السّيف‘‘». هذا ما يعنيه الاقتباس.

وهي تسمع ذلك، طفح غضبها. انفجرت فقّاعة الحنق الملتهب تلك، وانكمشت يداها في قبضتَين محكمتَين. استجمعت كل قُواها، ولكمته على وجهه.

تراجع فوشكا إلى الخلف. «اللّعنة...!».

وقبل أن يلتقط أنفاسه، لكمته ماريانا ثانيةً. وثالثةً.

رفع يديه ليحمي نفسه، لكنها استمرت في ضربه، وتسديد اللكمات بقبضتيها وهي تصرخ.

«أيها النّذل... أيها النّذل المريض...».

«ماريانا! توقفي! توقفي...».

لكن ماريانا لم تتوقف، لم تستطع التوقف... إلى أن شعرت بيدَين تمسكان بكتفَيها، وتسحبانها إلى الوراء.

أمسك بها ضابطُ شرطة، مرغماً إياها بالقوة على التوقّف عن ضرب فوشكا.

كان قد بدأ يجتمع في المكان حشدٌ من المتفرّجين، وكان جوليان من بينهم، يحدّق فيها غير مصدّق ما يراه.

توجّه ضابطٌ آخر نحو فوشكا لمساعدته، لكن البروفيسور أشار له بغضبٍ أن يبتعد. كان أنفه ينزف، ولطّخ الدّمُ قميصَه الأبيضَ الناصع. بدا في قمة الانزعاج والحرج. كانت هذه أوّلَ مرّةٍ تراه فيها ماريانا يفقد برودة أعصابه المعتادة، فشعرت بشيءٍ من الرضا حيال ذلك.

ثم ظهر المفتش العام سانغا في المكان، وحدّق في ماريانا بذهول، كما لو أنه ينظر إلى شخصٍ مجنونٍ.

«ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟».

21

بعد ذلك بقليل، وجدت ماريانا نفسها في مكتب عميد الجامعة، حيث طُلب منها تبرير أفعالها. جلست إلى طرف المكتب قبالة كلٍّ من المفتّش سانغا، وجوليان، وعميد الجامعة... وإدوارد فوشكا.

كان من الصّعب عليها إيجاد الكلمات المناسبة. وكلّما تكلّمت وشرحت، شعرت بهم يبتعدون عن تصديقها. فرواية قصّتها، البوح بها بصوتٍ عالٍ، جعلتها تدرك كم بَدَت غير قابلة للتّصديق.

كان إدوارد فوشكا قد استعاد رباطة جأشه. ظل يبتسم في وجهها طوال الوقت... كما لو أنها كانت تحكي لهم نكتةً طويلةً، نكتة توقّع نهايتَها.

كانت ماريانا قد هدأت بدورها هي الأخرى، وتحاول جاهدةً الحفاظ على ذلك الهدوء. عرضت عليهم قصّتها بما أمكنها من بساطة ووضوح، مع أقل قدرٍ ممكن من المشاعر. شرحت لهم كيف أنها وصلت، خطوة خطوة، إلى هذا الاستنتاج الذي يصعب تصديقه، بأن البروفيسور فوشكا قد قتل ثلاثةً من طالباته.

كانت البُتُل أول مَن أثرن شكوكها، قالت لهم. مجموعة من

الطّالبات المفضّلات، كلهن نسوة شابات. ولم يكن أحدٌ يعلم ما يجري في تلك الاجتماعات. ولكونها معالِجةً نفسيّةً متخصّصةً في العلاج الجماعي، ولكونها امرأة، فلم يَسَعها إلا أن تتوجّس من هذا الأمر. يتمتع البروفيسور فوشكا بسلطة وسيطرة غريبتَين على طالباته، قالت لهم ماريانا، فهو أشبه بالمرشد أو المعلّم الروحيّ. وقد شهدت ذلك عن كثبٍ، إذ حتى ابنة أختها أبدت تحفظاً حيال خيانة فوشكا والمجموعة.

«إن هذا السلوك نموذجيّ حين يتعلق الأمر بالمجموعات غير الصّحّيّة، حيث هناك رغبةٌ عارمةٌ في الامتثال والخضوع. والتعبير عن آراء مخالفةٍ للمجموعة أو لقائدها، قد يبعث في النّفس قلقاً شديداً، هذا إذا كان الفرد قادراً على التّعبير عنها من الأساس. فحين تحدّثت زوي عن البروفيسور، شعرتُ بأن شيئاً ما لم يكن على ما يرام. كان بإمكاني الشعور بأنها كانت **خائفةً** منه».

«إن المجموعات الصغيرة مثل هذه، مثل البُتُل»، شرحت ماريانا، «معرّضةٌ بصفة خاصة للتلاعب اللّاواعي أو الإساءة. فقد تقوم هؤلاء الفتيات، من دون وعيٍ منهن، بمعاملة قائد المجموعة بالطريقة التي عاملن بها آباءهن في طفولتهن، أي بتبعية ورضوخ. وإذا كنتِ شابةً مهشّمةً نفسيّاً، تعيشين في حالة إنكار لطفولتك وللمعاناة التي كابدتِها. . . فمن أجل الحفاظ على ذلك الإنكار، قد تميلين إلى التآمر مع شخصٍ مُفسِدٍ آخر والادعاء لنفسكِ بأن سلوكه طبيعي تماماً. لأنك إذا ما فتحتِ عينيكِ وقمتِ بإدانته، فستضطرين إلى إدانة سلوك آخرين في حياتك أيضاً. لا أعرف شيئاً عن طفولة أولئك الفتيات، ومن السّهل اعتبار تارا فتاةً ثرية لم تتعرض لأي مشاكل، لكن في نظري، تعاطيها الكحوليات والمخدرات يُرّجِح أنها

كانت مضطربة نفسياً، وهشّة. تارا الجميلة، المهزوزة، كانت الأثيرة لديه طبعاً».

أبقت نظرها مثبتاً على فوشكا وهي تقول ذلك، واعيةً بالغضب المتزايد في صوتها، الذي حاولت جاهدة السيطرة عليه. حدّق فيها فوشكا بدوره بهدوءٍ، والابتسامة تعلو وجهه. تابعت ماريان كلامها، محاولةً الحفاظ على هدوئها.

«أدركتُ أنني كنت أنظر إلى الجرائم بطريقةٍ خاطئةٍ. لم يكن ذلك عملَ شخصٍ مختلٍّ، رجلٍ معتلٍّ نفسياً يحرّكه غضب لا يمكنه السيطرة عليه، بل كانت الغاية أن يبدو الأمر كذلك. لقد قُتِلت هؤلاء الفتيات بطريقةٍ ممنهَجةٍ وعقلانيّةٍ، والضحيّة الوحيدة التي نوى قتلها حقاً هي تارا».

«وما الذي يدعوكِ إلى قول ذلك؟»، سألها إدوار فوشكا، متحدثاً لأول مرةٍ.

نظرت ماريانا في عينيه. «لأن تارا كانت عشيقتك. وحصل شيء ما بينكما - اكتشفتْ أن لديك علاقات أخرى؟ - فهدّدت بكشف حقيقتك. وماذا كان سيحدث بعد ذلك يا ترى؟ كنتَ ستفقد وظيفتك، وتُطرد من هذا العالم الأكاديمي والنخبوي الذي تعتز به، وتخسر سمعتك. لم تكن لتسمح بذلك أن يحدث، فهدّدتَ تارا بالقتل، ونفّذتَ تهديدك. لكن من سوء حظّك أن تارا أخبرت زوي... وزوي أخبرتني».

حدّق فيها فوشكا، ولمعت عيناهُ السّوداوان تحت الضّوء كقطعتَي جليدٍ أسودٍ.

«هذه نظريّتكِ، أليس كذلك؟».

«أجل». أبقت ماريانا نظرها مثبتاً على عينيه. «هذه نظريّتي. لقد منحتكَ فيرونيكا وسيرينا حجة غيابٍ، إذ كانتا مفتونتَين بك بما يكفي لتفعلا ذلك - لكن ماذا حصل بعد ذلك؟ هل غيّرتا رأيهما، أم هدّدتا بذلك؟ أم أنك أردتَ التأكد من أنهما لن تفعلا أبداً؟».

ظلّ السؤال دون جوابٍ. خيّم صمتٌ مُطبقٌ على الغرفة.

لم ينبس المفتش العام ببنتِ شفةٍ، واكتفى بصبّ كوبٍ من الشاي لنفسه، وحدّق العميد في ماريانا بذهول، عاجزاً عن تصديق أذنيه. أما جوليان، فتحاشى النّظر إليها، متظاهراً بأنه يراجع ملاحظاته.

كان إدوارد فوشكا أول مَن تكلّم، ووجّه كلامه للمفتّش العام سانغا.

«أنا أنفي ذلك بطبيعة الحال. كل ذلك. وسيسعدني الإجابة عن أي سؤالٍ لديكم. لكن، قبل ذلك، أيها المفتش. . . هل أنا بحاجةٍ إلى محامٍ؟».

رفع المفتّش يده. «لا أعتقد أننا وصلنا إلى تلك المرحلةِ بعدُ، أيها البروفيسور. هلّا منحتني دقيقةً من فضلك؟». ثبّت نظره على ماريانا. «هل لديكِ أية أدلّةٍ لدعم هذه الاتهامات؟».

أومأت ماريانا برأسها. «أجل. . . هذه البطاقات البريديّة».

«آه. البطاقات الشهيرة». نظر سانغا إلى البطاقات أمامه، التقطها عن الطاولة، ثم راح يخلطها ببطء، كما لو كانت أوراق لعبٍ.

«إذا فهمتُ كلامكِ. . . أنت تعتقدين أنها أُرسلت إلى كلٍّ من الضحايا قبل الجريمة، كبطاقة تعريف من نوعٍ ما، ليعلن من خلالها عن نيّته في القتل؟».

«تماماً».

«والآن وقد تلقّيتِ واحدةً، يُفترَض أن تكوني في خطرٍ وشيكٍ؟ ولماذا اختاركِ كضحيّةٍ في رأيكِ؟».

هزّت ماريانا كتفيها. «أعتقد... أنني أصبحت أشكّل تهديداً بالنسبة إليه. لقد اقتربتُ منه أكثر من اللازم. لقد نفذتُ إلى عقله».

لم تنظر إلى فوشكا. لم تكن واثقةً من قدرتها على السيطرة على أعصابها.

«أتعلمين، يا ماريانا»، قال فوشكا بهدوء، «يستطيع أيٌّ كانَ أن ينقل عباراتٍ يونانيةً قديمة من كتابٍ، فالأمرُ لا يتطلب شهادة من هارفارد».

«أنا أعي ذلك تماماً، يا بروفيسور. لكن خلال زيارتي لإقامتك الجامعية، رأيتُ الاقتباس نفسه مُسطّراً تحته في نسختك من كتاب يوربيديس. أكان ذلك محضَ مصادفةٍ فحسب؟«.

ضحك فوشكا. «إذا ذهبنا إلى إقامتي الجامعية الآن وأخذنا أي كتابٍ من إحدى الرفوف، فسترَين أنني أسطّر تحت كل شيء تقريباً». تابع قبل أن تقاطعه: «وهل تعتقدين حقاً، إذا ما كنتُ أنا مَن قتل تلك الفتيات، أنني سأرسل إليهن بطاقاتٍ بريديّةً فيها اقتباسات من نصوصٍ أدرّسهن إيّاها بنفسي؟ أتعتقدين أنني سأكون غبياً إلى هذا الحد؟».

هزّت ماريانا رأسها. «هذا ليس غباءً. لم تكن تظن أن تلك الرسائل ستُفهم أو أن الشرطة أو أي أحدٍ آخر سينتبه إليها. فمن منظور سيكولوجيّ، هذا نوع الأمور التي قد تقوم بها».

تدخّل المفتش سانغا قبل أن يرد فوشكا. «لحسن حظ

البروفيسور فوشكا، لقت تمت رؤيته في الجامعة في الوقت الذي قُتلت فيه سيرينا بالضبط، عند منتصف اللّيل».

«من الذي رآه؟».

أراد المفتّش أن يصبّ لنفسه مزيداً من الشاي، لكنه وجد أن كظيمته فارغة، فقطّب حاجبيه. «موريس. رئيس البوّابين. لقد التقى بالبروفيسور وهو يدخّن خارج إقامته، وتجاذبا أطراف الحديث لبضع دقائق».

«إنه يكذب».

«ماريانا...».

«اسمعني...».

وقبل أن يتمكن سانغا من إيقافها، قالت إنها كانت تشك في أن موريس يبتزّ فوشكا... فقد تعقّبته، ورأته هو وسيرينا.

بدا المفتّش العام مصدوماً إلى حدّ ما. انحنى نحوها وحدّق فيها.

«لقد رأيتِهما معاً... في المقبرة؟ أظن أنه من الأفضل أن تخبريني بكل شيء».

وكذلك فعلتْ، وبالتفصيل الممل، فتفاجأت من أنه كلما مضت المحادثة بعيداً عن إدوارد فوشكا، بدا المفتّش أكثر حماساً لتصنيف موريس كمشتبه به.

وافقه جوليان الرّأيَ. «هذا يفسّر كيف أن القاتل استطاع التنقل في الأرجاء دون أن يَلحظه أحد. فمن ذا الذي لا ننتبه إلى وجوده في الجامعة؟ من ذا الذي لا نراه؟ رجلٌ في زيّ رسمي، رجلٌ له سبب وجيه للتواجد في المكان طوال الوقت: البوّاب».

«تماماً». فكّر المفتّش العام لبرهةٍ، ثم نادى أحد الضّباط الشّباب وطلب منه إحضار موريس للاستجواب.

كانت ماريانا على وشك التّدخل، رغم معرفتها أن هذا لن يغيّر الكثير، لكن جوليان ابتسم لها لحظَتها، قائلاً:

«اسمعي، يا ماريانا. أنا في صفّك... فلا تنزعجي مما سأقوله».

«ما الأمر؟».

«لأكون صريحاً معكِ، ما إن رأيتك هنا في كامبريدج حتى لاحظت أنك بدوتِ غريبةً شيئاً ما... وكأنك تعانين من البارانويا».

انفجرت ماريانا ضاحكةً. «ماذا؟».

«أعلم أنه يَصعُب سماع ذلك... لكنه من الجليّ أنك تعانين من مشاعرَ اضطهاديّة. أنتِ لست على ما يرام، يا ماريانا. إنك بحاجةٍ إلى المساعدة. وسأساعدك... إذا سمحتِ لي بذلك...».

«تبّاً لكَ، يا جوليان!».

خبط المفتّش بكظيمته على المكتب. «هذا يكفي!».

خيّم الصمت. تحدّث المفتش العام سانغا بحزمٍ. «ماريانا، لقد اختبرتِ صبري مراراً وتكراراً. لقد أطلقتِ سيلاً من الاتهامات التي لا أساس لها ضد البروفيسور فوشكا... وقد اعتديتِ عليه جسديّاً، فله كامل الحقّ في ملاحقتِك قضائيّاً».

حاولت مقاطعته، لكنه واصل كلامه: «لا. هذا يكفي! يجب أن تُنصتي إليّ الآن. أريدك أن تغادري بحلول الصّباح، بعيداً عن هذه الكلية وعن البروفيسور فوشكا، بعيداً عن هذا التحقيق، وبعيداً عنّي. أو سألقي عليك القبض بتهمة عرقلة سير العدالة. هل هذا

واضح؟ اتبعي نصيحة جوليان، اتفقنا؟ زوري طبيبك، واحصلي على المساعدة».

فتحت ماريانا فمها... لكنها ابتلعتْ صرختها، عويلاً من الإحباط. ابتلعت غضبها، وجلست في صمتٍ. لم يكن هناك جدوى من الجدال أبعدَ من ذلك. طأطأت رأسها، ساخطةً، لكن منهزمةً.

لقد خسرت.

الجزء الخامس

النابض مرصوص بإحكام. سينفرد من تلقاء نفسه. هذا ما هو ملائم في التراجيديا؛ إن أدنى إدارةٍ للمِعصم كفيلةٌ بإنجاز العمل.

ـــ جان أنويه، مسرحية **أنتيغون**

1

بعد ذلك بساعة، وبغية تفادي الصّحافة، توقفت سيارة شرطةٍ في الجهة الخلفية من الكلية، عند البوابة التي تفتح على شارع ضيق. وقفت ماريانا بين الطّلبة والموظفين الذين تجمّعوا ليروا موريس وهو يتم توقيفه، وتصفيد يديه، واقتياده إلى السيّارة. صاح بعض البّوابين في وجهه وسخروا منه وهو يمر بمحاذاتهم. احمرّ وجهه قليلاً، لكن لم يبدِ أية ردّة فعلٍ. كان فكّه منقبضاً، ورأسه مطأطأً.

وفي آخر لحظةٍ، رفع موريس رأسه، فتبعت ماريانا نظرته. . . إلى النافذة، حيث كان إدوارد فوشكا واقفاً.

كان يشاهد ما يجري وقد افترّت شفتاه عن ابتسامةٍ طفيفةٍ.

إنه يسخر منا! قالت ماريانا في سرّها.

ومع التقاء عينيه بعينَي موريس، عبرت وجه هذا الأخير موجة من الغضب.

ثم أزال ضابط الشرطة القبّعةَ عن رأسه ودفعه إلى داخل السيّارة، وشاهدت ماريانا السيّارة وهي تمضي به بعيداً، والبوّابةَ تُغلق واءها.

ألقت ماريانا نظرةً إلى نافذة فوشكا.

لكنّه لم يعد هناك.

«حمداً للّه! انتهى هذا الكابوس أخيراً!»، سمعت عميد الكلّية يقول.

كان مخطئاً طبعاً. لم ينته شيء.

تغيّر الطّقس فجأة لحظَتها، كما لو أنه تفاعل مع الأحداث في الكلية، فانسحب الصّيفُ أخيراً بعد تشبّث عنيد. هبّت رياح باردة في السّاحات، بدأ المطر يتساقط، وسُمع دوِيٌّ عاصفةٍ رعديّة.

كانت ماريانا وزوي تحتسيان شراباً رفقة كلاريسا في صالة الأساتذة، المهجورة في ذلك الوقت من بعد الظهيرة.

كانت الغرفة شاسعةً، خافتةَ الإضاءة، مؤثثةً بأرائكَ عتيقة من الجلد، ومكاتبَ من خشب الماهوجني، وطاولاتٍ محملة بالجرائد والمجلّات العلمية. فاحت في المكان رائحةُ دخانٍ وخشب ورماد، منبعثةٌ من المدفأة. كانت الرّياح في الخارج تصفِق إطارات النوافذ بعنفٍ، والأمطارُ تنقرُ على الزّجاج، وكان الجو بارداً بما يكفي لتطلب كلاريسا إشعال نارٍ هادئةٍ في المدفأة.

جلست النّسوة الثلاث حول النّار في مقاعد ذات مساند للذّراعَين، يحتَسين الويسكي. حرّكت ماريانا كأسها وراقبت انعكاس سنا اللّهيب على السّائل عنبري اللّونِ. شعرت بالراحة هنا، مسترخية قرب المدفأة رفقة كلاريسا وزوي، إذ منحتها هذه المجموعة الصّغيرة القوّة والشجاعة، وكانت بحاجةٍ إلى الشّجاعةِ الآن. كنّ كلّهنَ بحاجةٍ إلى الشّجاعة.

كانت زوي قد أتت بعد انتهاء حصتها في كلية الأدب

الإنجليزي، وقد تكون الحصة الأخيرة بحسب كلاريسا، إذ تردّدت شائعات عن إغلاق وشيك للجامعة، ترقّباً لتحقيقات الشرطة.

جلست زوي على مقربةٍ من النار، تستدفئُ بعد أن باغتها المطر وبلّل ملابسها. أخبرتهما ماريانا عما حدث، وعن مواجهتها مع إدوارد فوشكا. وبعدما انتهت، تكلّمت زوي بصوتٍ خفيضٍ.

«كانت هذه غلطةً: مواجهته بهذه الطريقة... فهو يعرف الآن أنك تعرفين».

حدّقت فيها ماريانا مستغربة. «ألم تقولي إنه بريء؟!».

نظرت إليها زوي وهزّت رأسها. «غيرتُ رأيي».

نظرت إليهما كلاريسا بالتناوب. «أنتما متأكّدتانِ إذاً، كِلتاكُما، أنه مُذنِب؟ من الصعب تصديق ذلك».

«أعلم ذلك»، قالت ماريانا، «لكنّي أصدّق الأمرَ».

«وأنا كذلك»، قالت زوي.

لم تردّ كلاريسا. مدّت يدها بحثاً عن القنّينة وملأت كأسها، فلاحظت ماريانا أن يدها ترتجف.

«ماذا نفعل الآن؟»، سألت زوي. «أنت لا تعتزمين المغادرة، أليس كذلك؟».

«بالطبع لا». هزّت ماريانا رأسها. «فَليُلقوا عليّ القبض. لا يهمني ذلك. لن أعود إلى لندن».

بدت كلاريسا ذاهلةً. «ماذا؟ ولِمَ لا؟».

«لا يمكنني الهروب. ليس بعد الآن. فأنا أهرب منذ أن توفّي سيباستيان. أنا بحاجة لأن أبقى، لأن أواجه الأمر، مهما كان. أنا لست خائفةً». بدت هذه الجُملة غير مألوفة على لسانها. كرّرتها ماريانا من جديد. «**أنا لستُ خائفةً**».

«الويسكي هو من يتحدّث الآن»، علّقت كلاريسا.

«ربما». ابتسمت ماريانا. «شجاعة السُّكر هي أفضل من لا شيء». التفتت نحو زوي. «سنواصل. هذا ما سنفعله. سنواصل، وسنقبض عليه».

«كيف؟ نحن بحاجة إلى دليل».

«أجل».

تردّدت زوي. «ماذا عن سلاح الجريمة؟».

شيءٌ ما في الطريقة التي قالت بها زوي ذلك جعل ماريانا تنظر إليها. «أتقصدين السّكّين؟».

أومأت زوي برأسها. «لم يجدوها بعد، أليس كذلك؟ أعتقد أنّ... أنني أعرف مكانها».

حدّقت فيها ماريانا. «وكيف تعرفين ذلك؟».

تحاشت زوي عينيها للحظة، مبقية نظرها مثبّتاً على النار، وهي حركة تَمَلُّصيّةٌ تشي بالذّنب، دأبت عليها زوي منذ نعومة أظافرها.

«زوي؟».

«إنها قصةٌ طويلةٌ، يا ماريانا».

«إنه الوقت المناسب لسردها. ألا تظنّين؟». خفضت صوتها. «أتعلمين؟ حين التقيتُ البُتُل، لقد قلن لي شيئاً يا زوي... قلن إنكِ عضو في المجموعة».

جحظت عينا زوي لسماعها ذلك. هزّت رأسها. «هذا ليس صحيحاً».

«زوي، لا تكذبي...».

«أنا لا أكذب! لقد حضرت اجتماعاتهنّ مرةً واحدةً».

«ولماذا لم تخبريني؟»، سألت ماريانا.

«لا أدري». هزّت زوي رأسها في حيرةٍ. «كنت خائفةً. وشعرت بالخجل... أردت إخبارك منذ وقتٍ طويلٍ، لكنني...».

صمتت. مدّت ماريانا ذراعها وأمسكت يدها. «أخبريني الآن. أخبرينا نحن الاثنتين».

ارتجفت شفتَا زوي، وأومأت برأسها. شرعت في الكلام، وحاولت ماريانا تحضير نفسها...

لكن أول ما قالته زوي جعل عرقاً بارداً يتصبّب منها.

«أفترض أن الأمر بدأ مع ديميتر... وبيرسيفون». ألقت نظرة إلى ماريانا. «أنت تعرفينهما، أليس كذلك؟»

استغرق الأمر لحظة من ماريانا لتسترجع صوتها.

«أجل». أومأت برأسها. «أنا أعرفهما».

2

أفرغت زوي الكأس في جوفها دفعةً واحدةً، ووضعته على المنضدة أعلى المدفأة، فيما تصاعدت من النّار خيوطُ دخانٍ رماديّةٌ، التفّت حولها.

راقبت ماريانا زوي، وألسنةُ النّار الحمراء والذّهبية تتراقص خلفها، وعادت بها ذاكرتها إلى أمسيات المخيّم في طفولتها، فشعرت كما لو أنها كانت على وشك سماع قصّة أشباح مخيفةٍ. . . وقد كان الأمر كذلك على نحوٍ ما.

شرعت زوي في رواية القصّة، كاشفة تفاصيلها شيئاً فشيئاً: كان البروفيسور فوشكا مولعاً بالطقوس السرّيّة لإيلوسيس المُكرِّمة لبيرسيفون: طقوسٌ تأخذك من الحياة إلى الموت، ومنه رجوعاً إلى الحياة مجدّداً.

كان البروفيسور يعلم السّرّ، بحسب زعمه، ويشاركه مع قِلّة قليلةٍ من الطلبة المميّزين.

«لقد جعلني أقطع عهداً بأنني سأحفظ السّرّ، بحيث لم يكن بإمكاني الحديث عمّا جرى مع أيّ كان. أعلم أن الأمر غريبٌ، ولكنّني شعرتُ بالإطراء لظنّه أنّني مميّزةٌ بما يكفي، وذكيةٌ بما يكفي.

وقد تملّكني الفضول أيضاً. وبعد ذلك... حان دوري للقيام بطقوس الانضمام إلى البُتُل... طلب منّي أن ألتقيه عند البرج، في منتصف اللّيل، من أجل الحفل المراسميّ».

«البرج؟».

«ذلك البناء العتيق... عند النهر، قرب بارادايز».

أومأت ماريانا برأسها. «تابعي».

«قبل منتصف اللّيل بقليل، لاقَتني كارلا ودِيا عند المرفأ، واصطحبَتاني... على النهر، في زورقٍ».

«زورق؟ لماذا؟».

«لأنها أسهل طريقةٍ لبلوغ المكان من تلك النّقطة، فالطريق البرّيّ معشوشَبٌ ويصعب التنقّل فيه». صمتتْ للحظة. «كانت الأخرياتُ هناك عند وصولي، وكانت فيرونيكا وسيرينا واقفتَين عند مدخل البرج، وتضعان قناعَين... يُفترض بهما أن تكونا بيرسيفون وديميتر».

«إلهي الرّحيم!»، قالت كلاريسا بذهول، مشيرة لزوي بمواصلة كلامها.

«قادتني ليليان إلى داخل البرج، حيث كان البروفيسور ينتظر. قام بعَصْبِ عينَيَّ، ثم شربتُ **الكيكْيون**[1] الذي وصفه بماء الشعير. لكنه كان يكذب، فأخبرتني تارا لاحقاً أنه أضاف إليه مخدراً كان يقتنيه من كونراد».

---

(1) Kykeon: شرابٌ إغريقيّ قديم ذو صيَغٍ عديدةٍ ومختلفة: بعضها من أصل الماء، وأخرى من النبيذ والجبن المفروم. ويسري اعتقاد شائعٌ بأن هذا الشّراب كان يحتوي على عقارٍ نفسيّ التأثير (Psychoactive) ويُستعمل خلال المراسيم الإيلوسية التي تحتفي بالإلهتين ديميتر وبيرسيفون - المترجم.

شعرت ماريانا أنها بلغت أقصى درجات التوتر. لا أرغب في سماع المزيد! قالت في سرّها، لكنها كانت تعلم أن لا خيار لديها. «تابعي».

«ثمّ...»، قالت زوي، «همس في أذني... قال إني سأموت ليلتها، وسأولد من جديد عند الفجر، ثم أخذ سكّيناً، ولمس بها رقبتي».

«أفعل ذلك حقّاً؟»، سألت ماريانا.

«هو لم يُلحق بي أي أذىً. قال إنها طقوس التضحية، ثم نزعَ العصابة عن عينَيَّ... وحينها رأيت أين وضع السّكّين... لقد أدخلها في فراغٍ في الجدار، بين بلاطتَين صخريّتَين».

أغمضت زوي عينيها للحظة. «بعد ذلك... يصعب عليّ تذكّر ما حصل. شعرت بساقَي تخرّان، كما لو أنني كنت أذوب... ثم غادرنا البرج. انتقلنا إلى الغابة... كنا بين الأشجار. شرعت بعض الفتيات في الرّقص عارياتٍ... وسبحت الأخريات في النهر، لكن... لم أرغب في نزع ملابسي...». هزّت رأسها. «لا أذكر ما حصل بالضبط، لكنني تهت عنهنّ، بطريقةٍ ما... كنت وحيدةً، ومنتَشيةً... وخائفةً... و... كان هناكَ».

«إدوارد فوشكا؟».

«هذا صحيح». بدت زوي غير راغبة في ذِكر اسمه. «حاولتُ أن أتكلم لكنني لم أستطع. ظلَّ... يقبلني... ويلمس جسدي... ويقول إنه يحبّني. كانت عيناه ذاهلتَين... أذكر عينَيه جيداً: بدتا مجنونتين. حاولتُ الإفلات منه... لكنني لم أستطع. ثم ظهرت تارا، فشرعا في تبادل القُبَل... وبطريقةٍ ما، نجحتُ في الإفلات منه... جريتُ بين الأشجار... واصلتُ الجري...». طأطأت

رأسها وتوقّفت عن الكلام لبرهة. «واصلتُ الجري... أفلتُ منه».

حثّتها ماريانا على المتابعة. «ماذا حصل بعد ذلك، يا زوي؟».

هزّت زوي كتفيها. «لا شيء. لم أحدِّث الفتيات عن ذلك أبداً. باستثناء تارا».

«وماذا عن البروفيسور فوشكا؟».

«لقد تصرّف كأن شيئاً لم يكن، لذا... حاولتُ التظاهرَ بذلك أيضاً». هزّت كتفَيها. «ثم جاءت تارا إلى غرفتي تلكَ اللّيلةَ... وأخبرتني أنه هدّد بقتلها. لم يسبق لي رؤية تارا خائفةً إلى هذا الحد... كانت مذعورة».

تحدّثت كلاريسا بنبرةٍ منخفضةٍ. «طفلتي العزيزة، كان عليك تبليغ الجامعة. كان عليك إخبار أحد. كان عليك اللّجوء إليّ».

«هل كنت ستصدّقينني، يا كلاريسا؟ إنها قصةٌ جنونيةٌ... وإنها كلمتي مقابلَ كَلِمته».

أومأت ماريانا برأسها، وشعرت بأنها على وشك البكاء. راودتها رغبةٌ عارمةٌ في سحب زوي إليها وأخذها بين ذراعيها.

لكن قبل ذلك، كان هناك شيء يجب عليها معرفته.

«لكن لمَ الآن، يا زوي...؟ لماذا تخبريننا بهذا الآن؟».

ظلّت زوي صامتةً لوهلةٍ، ثم توجّهت نحو الأريكة حيث علّقت سترتها أمام النار لتجفّ، وأدخلت يدها في جيبها.

أخرجت بطاقةً بريديّةً بلّلتها قطرات المطر.

رمتها في حِجر ماريانا.

«لأنني تلقّيتُ واحدةً أيضاً».

3

حدّقت ماريانا في البطاقة البريديّة التي في حِجرها.

كانت الصورة للوحةٍ قاتمةٍ شديدة الزّخرفة: إيفيجينا ترقد عاريةً على السرير، وأغاميمنون متسلّلٌ من ورائها، حاملاً سكيناً. وعلى ظهر البطاقة، كُتبت عباراتٌ باليونانية القديمة، لم تكلف ماريانا نفسها عناء الطلب من كلاريسا ترجمتها. لم يكن هناك داعٍ لذلك.

كانت بحاجة لأن تكون قويّةً من أجل زوي. كانت بحاجة إلى التفكير بوضوحٍ، وبسرعةٍ. حاولت أن تتكلّم بنبرةٍ خاليةٍ من المشاعر.

«متى تلقّيتِ هذه البطاقة، يا زوي؟».

«اليوم، بعد الزّوال. وجدتها أسفلَ باب غرفتي».

«فهمت». أومأت ماريانا لنفسها. «هذا يغيّر الأمور».

«كلّا، إنه لا يغيّر شيئاً».

«بلى. يجب أن نُبعدكِ من هنا. الآن. يجب أن نعود إلى لندن».

«حمداً للسّماء على ذلك»، صاحت كلاريسا.

«لا». هزّت زوي رأسها محتجة، وقد بدا عنادٌ صارمٌ على

وجهها. «أنا لستُ طفلةً. ولستُ ذاهبةً إلى أيّ مكان. سأبقى هنا، فكما قلتِ... سنقاتل. سنمسك به».

وهي تقول ذلك، فكّرت ماريانا كم بدت زوي هشّةً، كم بدت متعَبةً وبائسةً. كان من الجليّ أن الأحداث الأخيرة قد أثّرت عليها، بل وغيّرتها أيضاً. بدت منهكة جسديّاً ونفسيّاً. هزيلة، لكن عازمة على المواصلة. **هكذا تبدو الجسارة!** قالت ماريانا في سرّها. **هذه هي الشّجاعة!**

بدا أن كلاريسا شعرت بذلك أيضاً. تكلّمت بصوتٍ هادئٍ.

«زوي، طفلتي العزيزة، إن شجاعتكِ لجديرةٌ بالثّناء، لكن ماريانا على حقٍّ. يجب أن نذهب إلى الشّرطة ونخبرهم بكل ما أخبرتِنا به... ثم يجب عليكما مغادرةُ كامبريدج، كلتاكما. اللّيلةَ».

كشّرت زوي وهزّت رأسها. «لا داعي لإخبار الشرطة، يا كلاريسا. سيظنّون أن ماريانا هي مَن حثّني على اختلاق ذلك. إنها مضيعةٌ للوقت، ولا وقت لدينا. إننا بحاجةٍ إلى دليلٍ».

«زوي...».

«لا. اسمعيني». ناشدتْ ماريانا. «لنتفقّد البرج... تحسُّباً. حيث رأيته يخبّئ السّكّين. وإذا لم نجدها... فسنذهب حينئذٍ إلى لندن، اتفقنا؟».

تدخلت كلاريسا قبل أن يتسنى لماريانا الرد.

«إلهي الرحيم! أتريدان تعريضَ نفسيكما للقتل؟».

«لا». هزّت زوي رأسها. «الجرائم تحدث دائماً ليلاً... ولا تزال أمامنا بضع ساعاتٍ». ألقت نظرةً إلى النافذة. «كما أن المطر قد توقّف، والسّحب بدأت تنقشع».

«ليس بعد»، قالت ماريانا وهي تنظر إلى الخارج، «لكنّها

ستفعل قريباً». فكّرت لبرهة. «اذهبي واستحمّي، وغيّري تلك الملابس المبلّلة، وسألتحق بكِ في غرفتك بعد عشرين دقيقةً».

أومأت زوي برأسها، وبدت مسرورة. «حسنٌ».

راقبتها ماريانا وهي تلملم أغراضها. «توخّي الحذر يا زوي، أرجوك».

أومأت زوي برأسها وغادرت الغرفة. وفي اللّحظة التي أُغلق فيها الباب، التفتت كلاريسا نحو ماريانا، والقلق بادٍ عليها. «لا يسعني إلا الاعتراض على ما سمعته. إنها لمجازفة كبيرة أن تغامرا في الذهاب إلى النّهر...».

هزّت ماريانا رأسها. «لا نيّةَ لديّ في السماح لزوي بالاقتراب من النّهر. سأجعلها تربط أمتعتها، وسنغادر في الحال. سنذهب إلى لندن، كما اقترحتِ».

«حمداً لله». بدا الارتياح على كلاريسا لسماعها ذلك. «إنه القرار الصائب».

«لكن اسمعيني جيداً... إذا حدث لي أي شيء... فأريد منك الذهاب إلى الشرطة، اتفقنا؟ يجب أن تخبريهم بكل ما أخبرَتنا به زوي. مفهوم؟».

أومأت كلاريسا برأسها. بدت مهمومةً. «أودّ لو تذهبان إلى الشرطة في الحال».

«إن زوي محقة: لا جدوى من ذلك، فالمفتش سانغا لن يصغي إليّ. لكنه سيصغي إليك».

لم تنبس كلاريسا ببنت شفة. تنهّدت ونظرت إلى النّار المتراقصة في المدفأة فحسب.

«سأتصل بكِ من لندن»، قالت ماريانا.

لا جواب. بدا وكأن كلاريسا لم تسمعها.

شعرت ماريانا بخيبةِ أملٍ. كانت قد توقعت منها أكثر من ذلك. توقعت من كلاريسا أن تكون برجاً حصيناً، لكن كان من الواضح أن ما آلت إليه الأمور قد فاق قدرتها على التحمّل. بدت كلاريسا أكبر سنّاً فجأة؛ بدت منكمشةً، وضئيلةً، وهشّةً.

أدركت ماريانا أنها لن تفيدهما بشيء، فمهما كان الرّعب الذي ينتظرها هي وَزُوي، فسيتعيَّن عليهما مواجهته وحدَهما.

طبعت ماريانا قبلةَ وداعٍ على خدّ البروفيسورة وغادرت، تاركةً إياها على مقربة من النار.

4

وهي في طريقها إلى غرفة زوي، أبقت ماريانا تفكيرها مُركَّزاً على الأمور العمليّة. ستحزمان أمتعتهما بسرعة، ثم ستتسلّلان خارج الجامعة عبر البوّابة الخلفيّة دون أن يراهما أحد. ستستقلّان سيارة أجرةٍ إلى المحطة، والقطار إلى كينغز كروس. ومن ثم. . . - وانشرح قلبها لمجرد التفكير في الأمر - ستكونان في الديار، في أمنٍ وأمانٍ، في المنزل الأصفر الصغير.

تسلّقت السلالم الصخرية صعوداً نحو غرفة زوي. كانت الغرفة فارغةً، فلا بد أن زوي كانت لا تزال في جناح الحمّامات بالأسفل.

رنّ هاتفها. كان ذلك فريد.

تردّدت ماريانا، لكنها فتحت الخط. «ألو؟».

«ماريانا، هذا أنا». بدا فريد متوتّراً. «أحتاج إلى التحدّث إليك. إنه أمر مهمٌّ».

«الوقتُ ليس مناسباً الآن. وأظن أننا قلنا كل ما لدينا ليلةَ أمسِ».

«الأمر لا يتعلق بليلة أمس. اسمعيني جيداً - وأنا أقصد ما أقوله - لقد راودتني رؤيا. . . تتعلق **بكِ**».

«فريد، لا وقت لديّ لـ. . .».

«أعلم أنك لا تصدّقينني، لكن الأمر صحيح. أنتِ في خطرٍ محدِقٍ. الآن، وفي هذه **الثانية**. أينما كنتِ، ابتعدي عن ذلك المكان اللعين. اهربي. اركضي. . .».

أقفلت ماريانا الخط في وجهه، غاضبة ومنزعجة. كان لديها ما يكفي لتقلق بشأنه، ولا ينقصها هراء فريد، فقد كانت قلقة أصلاً، وزاد اتصالُه حالَها سوءاً.

لماذا تأخّرت زوي؟

وهي تنتظرها، جابت ماريانا الغرفة ذهاباً وإياباً، بلا هوادة، وجالت بنظرها على أغراض زوي المتناثرة في المكان: صورةٌ لها وهي رضيعةٌ، في إطارٍ فضّيٍّ، صورةٌ لها كإشبينةٍ لماريانا في حفل زفافها، قطع حليّ رخيصة، أحجار وصدف جمعتها خلال عطلها في الخارج، وتذكارات احتفظت بها زوي من طفولتها المبكرة. . . من قبيل زيبرا القديم، المهترئ، ذلك الحيوان المحشوّ الجاثم فوق وسادتها.

تأثّرت ماريانا لرؤية هذه الأشياء. راودَتها فجأةً ذكرياتٌ عن زوي وهي طفلة صغيرة، جاثية بجوار السّرير، تتلو الأدعية: **إلهي، بارِك ماريانا! إلهي، بارِك سيباستيان! إلهي، بارِك جدّي! إلهي، بارِك زيبرا!**. . . إلخ، بما في ذلك أناس لم تكن تعرف حتى أسماءهم، مثل «المرأة الحزينة في موقف الحافلات» أو «الرجل في المكتبة المصاب بالزكام». كانت ماريانا تشاهد طقوسَها الطّفولية العفويّةَ تلك بقلبٍ مِلؤه الحبّ والحنان، إلا أنها لم تكن تؤمن ولو للحظةٍ بتلك الأدعية. لم تكن تؤمن بأن أقدار هؤلاء الناس قد تتغير لمجرّد دعوات طفلةٍ بريئةٍ.

لكن الآن، خارت قُواها ووهنَت رُكبَتاها، فوجدت ماريانا نفسها جاثيةً على الأرض فجأةً... كما لو أن قوةً خفيّةً دفعتها من الخلف. انحنت على الأرض، جمعت يديها وطأطأت رأسها في وضعية الدعاء.

لكن ماريانا لم توجّه دعاءها للرب، ولا للمسيح، ولا حتى لسيباستيان.

بل وجّهت دعاءها إلى تلك الأعمدة الصّخرية المتّسخة، المتآكلة بفعل مرور الزمن، المنتصبة على تلة تحت سماءٍ ناصِعةٍ خاليةٍ من الطيور.

وجّهت دعاءها إلى الإلهة.

«اغفري لي»، همستْ لها. «أيّاً كانت فعلتي - أيّاً كان ما بدر منّي - واستفزّك. لقد أخذتِ منّي سيباستيان. هذا يكفي. أتوسّل إليك... لا تأخذي مني زوي. أرجوكِ... لن أسمح لك بذلك. لن...».

توقفت عن الكلام فجأةً، محرجة مما بدر منها من كلام. شعرت بالجنون، مثل طفلة مختلة تتفاوض مع الكون.

ومع ذلك، على مستوى أعمق، كانت ماريانا تعي أنها بلغت، أخيراً وبعد طول انتظار، اللحظة التي ينتهي عندها هذا المسار: مواجهتها المؤجلة والحتمية مع البتل، ووقت الحساب.

استجمعت ماريانا قواها وانتصبت على قدميها.

فسقط زيبرا من على الوسادة، تدحرج، وهبط على الأرض.

حملته ماريانا وأعادته إلى مكانه فوق الوسادة، وحين فعلت ذلك، لاحظت أن الدّرز على بطن الدّمية المحشوّة قد تفكك قليلاً، وكانت تنقصه ثلاثُ تَقطيباتٍ، فبرز شيءٌ صغيرٌ من داخل الحشو.

تردّدت ماريانا . . . ، ثم، ودون أن تدرك ما كانت تفعله، سحبت ذلك الشيء. نظرت إليه. كان ورقاً مطوياً أكثر من مرّة، ومخفياً داخل جسد الدّمية.

حدّقت فيه ماريانا. شعرت بأنها تقترف خيانةً، لكن الفضول حثّها على معرفة ماذا كان هذا الشيء. كان عليها أن تعرف.

فتحت الورق بحذر، فتجلّت أمامها بضع أوراقٍ من مذكّرة، بدت أشبه برسالة مطبوعة على آلة كاتبة.

جلست ماريانا فوق السّرير.

وشرعت في قراءتها.

5

ثم، ذات يوم، رحلت والدتي.

لا أذكر لحظةَ مغادرتها بالضبط. ولا أذكر وداعها الأخير، لكن لا بد أنه كان هناك وداع أخير. ولا أذكر حضور والدي، فلا بد أنه كان يعمل في الحقول حين فرّت.

أتعلمين، هي لم ترسل أحداً ليأخذني إليها في نهاية المطاف. فأنا لم أرها بعد ذلك أبداً.

في اللّيلة التي رحلت فيها، صعدتُ إلى غرفتي، جلست أمام مكتبي الصغير، وكتبتُ في دفتر يومياتي لساعاتٍ. وحين انتهيتُ، لم أقرأ ما كتبته.

ولم أكتب في ذلك الدفتر مجدّداً. وضعته في علبة وأخفيته مع أشياءَ أخرى كنت أريد نسيانها.

لكن اليومَ، أخرجته لأول مرة، وقرأته. قرأته كلّه.

تقريباً...

فهناك صفحتان ناقصَتان.

صفحتان مُزِّقتا من الدفتر.

لقد أُتلِفتا لأنهما كانتا خطيرتَين. لماذا؟ لأنهما روتا قصةً مختلفةً.

لا بأس بذلك، على ما أظن. يمكن لكل قصّةٍ أن تخضع لمراجعة طفيفة.

فأنا أتمنى لو كان بإمكاني مراجعةُ السنوات اللاحقة التي قضيتُها في المزرعة؛ مراجعتها أو نسيانها.

الألم، الخوف، الإذلال... كنتُ أزدادُ عزماً على الفرار يوماً بعد يوم. **سأرحل من هنا يوماً ما. سأكون حرّاً. سأكون آمناً. سأكون سعيداً. سأكون محبوباً.**

كنت أكرّر ذلك لنفسي، مِراراً وتكراراً، في الليل تحت غطائي، لدرجة أن تلك الكلمات صارت تعويذَتي في أوقات الشّدّة. بل أكثر من ذلك، صارت ندائي الباطني.

لقد قادتني إليك.

لم أظنّ قطّ أنني قادرٌ... على الحب. فأنا لم أكن أعرف سوى الكره. وأخشى أن أكرهك أنتِ أيضاً يوماً. لكن قبل أن أؤذيكِ، سأوجّه السكّين إلى صدري، وأغرسها عميقاً في قلبي.

أنا أحبك، يا زوي.

لذلك أكتب لك هذه الرسالة.

أريدك أن ترَيني على حقيقتي، على ما أنا عليه. وماذا بعد ذلك؟ ستغفرين لي، أليس كذلك؟ ستلعَقين جِراحي وتشفينها. أنت قدري، تعلمين ذلك، أليس كذلك؟ قد لا تصدّقين ذلك بعد. لكنني علمتُ ذلك منذ البداية. كانت لديّ رؤيا... ومنذ أول ثانيةٍ رأيتك فيها، عرفتُ.

كنتِ خجولةً جداً في البداية، مرتابةً جداً، بحيث اضطررت إلى استخراج حبّك من أعماقك. لكنني صبور على نحوٍ استثنائي.

سنكون معاً يوماً ما. أعدك بذلك. حالما تنتهي خطّتي. فكرتي الجميلة، الفذّة.

لكن ينبغي لي أن أحذّرك أن الأمر سيتطلّب إراقة بعض الدّماء... والتضحية.

سأشرح لك حين نكون وحدنا. وحتى ذلك الحين، تحلًّيْ بالإيمان.

المخلِص لكِ.

إلى الأبد –

فلان

6

مكتبة
t.me/soramnqraa

أنزلت ماريانا الرّسالة إلى حضنها.

حدّقت فيها.

صعُب عليها التّفكير... بل وحتّى التنفّس، كما لو أنها تلقّت لكماتٍ متكررةً على بطنها.

لم تفهم ما قرأته لتوّها. ما كان معنى تلك الوثيقة الشنيعة؟

لم يكن لها أي معنى. لم تصدّق - ولن تُصدّق - أنها حقيقية. هي لا يمكن أن تعني ما ظنت أنها تعنيه. لم يكن ذلك ممكناً. ومع ذلك، كان هذا الاستنتاج الوحيد الذي يمكن استخلاصه، بغضّ النظر عن كونه غير مقبولٍ، وغير معقولٍ... ومرعباً.

كان إدوارد فوشكا من كتبها - رسالة الحبّ اللّعينةَ هذه - إلى زوي.

هزّت ماريانا رأسها غير قادرةٍ على تصديق ذلك. لا... ليس زوي، ليس زوي **خاصتها**. لم تصدق ذلك. لم تصدّق أنه يمكن لزوي أن تكون متورّطةً مع ذلك **الوحش**...

ثم استحضرت التعبير الغريب الذي علا وجهَ زوي وهي تحدّق

في فوشكا من مكانها في الساحة. تعبير حَسِبته ماريانا خوفاً. لكن ماذا لو كان شيئاً أكثر تعقيداً من ذلك؟

ماذا لو أنها كانت منذ البداية ترى الأشياء من الزاوية الخطأ، من أعلى؟ ماذا لو. . .

سمعت وقع خطى. . . قادمةً من السّلالم.

تسمّرت في مكانها. لم تدرِ كيف عليها أن تتصرّف. لا بد أن تقول شيئاً، أن تفعل شيئاً. لكن ليس الآن، ليس على هذا النحو. كان عليها أن تفكّر أولاً.

أخذت الرّسالة ودسّتها في جيبها في اللحظة التي ظهرت فيها زوي عند عتبة الباب.

«أنا آسفةٌ، يا ماريانا. لقد أسرعت بقدر ما استطعت».

ابتسمت لها زوي وهي تدخل الغرفة. كان خدّاها متورّدَين وشعرها مبلّلاً، وكانت ترتدي لباس نوم وتحمل منشفة. «امنحيني لحظةً فحسب. سأرتدي ملابسي سريعاً».

لم تنبس ماريانا ببنت شفة. شرعت زوي في ارتداء ملابسها، وأثارت رؤيةُ جسدها العاري - تلك البشرة الشابة النّاعمة - في ذهن ماريانا ذكرى بعيدة لزوي، الطفلة الجميلة التي أحبّتها. . . الطفلة الجميلة البريئة. أين ذهبتْ؟ ماذا حصل؟

اغرَورَقت عيناها بالدّموع، لكنها لم تكن دموعاً عاطفيّةً، بل كانت دموع حسرة، دموع ألم جسديّ، كما لو أن أحدهم صفعها على وجهها. أشاحت بنظرها بعيداً كي لا تلاحظ زوي، ومسحت دموعها بسرعة.

«أنا جاهزةٌ»، قالت زوي. «هلّا ذهبنا؟».

«ذهبنا؟». نظرت إليها ماريانا نظرة فارغة. «إلى أين؟».

«إلى البرج، طبعاً! لنبحث عن السّكّين».

«ماذا؟ أوه. . . ».

نظرت إليها زوي متفاجئة. «هل أنت على ما يرام؟».

أومأت ماريانا برأسها ببطءٍ. كانت كل آمالها بالفرار، كل أفكارها المتعلّقة بالهروب إلى لندن مع زوي قد تبخّرت من ذهنها. لم يكن هناك مكانٌ لتذهب إليه، لم يكن هناك مكان لتهربُ إليه. ليس بعد الآن.

«حسنٌ»، قالت ماريانا.

وكالسائرة أثناء النوم، تبعت زوي نزولاً عبر السّلالم ومشياً عبر السّاحة.

كانت المطر قد توقفت عن السقوط في سماء رصاصية اللون، تجمعت فيها السحب القاتمة فوق رأسيهما، تدور وتلف مع الريح.

ألقت إليها زوي نظرة خاطفة. «يجب أن نذهب عبر النّهر. إنه أسهل طريق».

لم تقل ماريانا شيئاً. أومأت برأسها فحسب.

«أستطيع تولّيَ قيادةِ القارب»، قالت زوي، «لستُ بمهارة سيباستيان، لكنني لستُ سيّئةً».

أومأت ماريانا برأسها مجدّداً، ومضت خلفها باتجاه النهر.

كانت هناك في المرفأ سبعةُ قوارب مربوطة إلى الضّفة بواسطة سلاسل، تتمايل فوق الماء وتصدر صريراً. حملت زوي إحدى العصيّ المسندة إلى الجدار وانتظرت صعود ماريانا إلى القارب، ثم فتحت سلسلة الحديد التي تربط القارب بالضّفة.

جلست ماريانا على مقعد خشبي منخفض تبلّل جراء المطر، لكنها بالكاد انتبهت إلى ذلك. «لن يستغرق العبورُ وقتاً طويلاً»،

قالت زوي وهي تدفع بهما بعيداً عن الضّفّة، ثم رفعت العصا عالياً وغطّستها في الماء، فانطلقتا في رحلتهما.

لم تكونا وحدهما. لاحظت ماريانا ذلك منذ البداية، إذ شعرت بأحدٍ يتبعهما. قاومت الرغبة في النظر وراءها، وحين التفتت أخيراً، وكما توقّعت، لمحت بعيداً طيف رجلٍ، سرعان ما توارى خلف شجرة.

لكن ماريانا أقنعت نفسها أنها لا بد أن تكون قد تخيّلت ذلك، لأنه لم يكن الشّخصَ الذي توقعته: لم يكن إدوارد فوشكا.

كان فريد.

7

كما توقعت زوي، لقد تقدّمتا بسرعة، فسرعان ما صارت الكليات خلفهما وأحاطت بهما حقولٌ ممتدّةٌ على مرمى البصر على ضفَّتَي النهر، مشاهدُ طبيعيّةٌ ظلّت على حالها منذ قرونٍ، لم تتغيّر.

تناثرت أبقارٌ سوداء هنا وهناك، ترعى العشب الأخضر، وفاحت في الأرجاء رائحةُ رطوبة، وخشب متحلّل، وطين مبلّل، كما بلغت أنفَ ماريانا رائحةُ دخانٍ من نارٍ موقَدة في مكانٍ ما، رائحةٌ عفنةٌ لأوراق رطبةٍ تحترق.

طَفَتْ فوق النّهرِ طبقةُ ضبابٍ رقيقةٍ، التفّت حول زوي وهي تجذف. بدت جميلةً وهي تقف هناك، وشعرها يتطايَر ويتراقص مع النّسيم، بنظرتها الشّاردةِ تلك. بدت شبيهةً **بالسيدة شالوت** في رحلتها الأخيرة عبر النّهر، رحلةِ الهلاكِ.

حاولت ماريانا أن تفكّر، لكنها وجدت صعوبةً في ذلك. ومع كل اصطدامٍ للعصا بأرض النّهر، ومع كل اندفاعٍ للقارب إلى الأمام، كانت تدرك أن وقتها ينفد. كانتا ستبلغان البرجَ قريباً.

وماذا بعد ذلك؟

شعرت بالرّسالة المطويّة في جيبها كما لو أنها جمرةٌ حارِقةٌ. كانت تعلم أنه كان عليها فهمها وفكّ لغزها.

لكن لا بد أنها مخطئة. لا بد أن تكون مخطئة.

«أنت صامتةٌ»، علّقت زوي. «ما الذي يدور في ذهنك؟».

رفعت ماريانا رأسها. حاولت أن تتكلّم، لكن صوتها أبى أن يُطاوعها. أومأت برأسها وهزّت كتفَيها. «لا شيء».

أشارت زوي إلى نقطة انعطاف النّهر. «سنصل قريباً».

التفتت ماريانا وألقت نظرة. «أوه...».

تفاجأت لرؤية بجعة على الماء. تقدّم الطّائر نحوها بانسيابيّةٍ، والنّسيم يداعب ريشَه الأبيض المتّسخ فيجعله يتموّج. وحين دنا من القارب، أدار عنقه الطويل ونظر إليها مباشرةً، مثبّتاً عينيه السوداوين في عينيها.

سَرَتْ في ظهرها قشعريرةٌ، فأشاحت بنظرها.

وحين التفتت مجدّداً، كان الطّائر قد اختفى.

«لقد وصلنا»، أعلنت زوي، « انظري».

نظرت ماريانا إلى البرج على ضفّة النهر. لم يكن بناءً كبيراً: أربعة أعمدةٍ صخريّةٍ يرتكز عليها سقفٌ مائلٌ. كان في الأصلِ أبيضَ اللّونِ، لكن قرنَينِ من المطر والرياح صَبَغتاه بمزيجٍ من صُفرَة الصدأ وخُضرةِ الطّحالب.

كان مكانُه غريباً بالنسبة إلى برجٍ، إذ انتصب وحيداً على ضفّة النّهرِ، مُحاطاً بالغابات والمستنقعات. تجاوزته زوي وماريانا، كما تجاوزتا أزهار السّوسَن التي نمت في الماء والورود المتناثرة المغطّاة بالأشواك التي سدّت الممرّ.

وجّهت زوي القارب نحو الضّفة وغرست العصا عميقاً في تربة النّهر، لترسُو بالقارب وتُثبّتَه عند حافة النهر.

صعدت إلى الضّفة ومدّت يدها إلى ماريانا، إلا أن ماريانا لم تأخذها. لم تستطع حمل نفسها على لمسها.

«هل أنت متأكدة أنك بخير؟ إنك تتصرّفين بغرابة»، قالت زوي.

لم تجب ماريانا. تسلّقت طريقها صعوداً إلى الضّفّة المعشوشبةِ بصعوبةٍ، ثم لحقت بزوي إلى البرج.

توقّفت خارج البناء وحدّقت فيه.

كان شِعار نَبالةٍ محفوراً على الصّخر أعلى البوّابة، عبارة عن بجَعة في عاصِفةٍ.

تسمرت ماريانا في مكانها دون حراك، تحدّق فيه، ثم تابعت سيرها.

تبعت زوي إلى الدّاخل.

8

داخل البرج، كانت هناك نافذتان في الجدار الصّخريّ تُطلّان على النّهر، ومقعد صخري أسفلَهما. أشارت زوي عبر النّافذة إلى الغابة الخضراء القريبة.

«لقد وجدوا جثّة تارا هناك: وسط الأشجار، قرب المستنقع. سأريك. . .». ثم جثَتْ على ركبتَيها، ونظرت أسفل الكرسيّ. «. . . وهنا المكان حيث أخفى السّكّين؛ هنا. . .».

أدخلت زوي يدها في فتحةٍ بين بلاطتَين صخريَّتَين، ثم ابتسمت. «ها هي ذي».

سحبت زوي يدها، ممسكةً بسكّينٍ طولها حوالي عشرين سنتيمتراً ملطخة بشيء من الصدأ الأحمر، أو الدم الجافّ.

راقبتها ماريانا وهي تمسك بالسّكّين من قبضتها، وتحملها بشيء من. . . الأُلفة، ثم نهضت ووجّهت السّكّين إلى ماريانا.

وجّهت النّصلَ إلى صدر ماريانا مباشرةً. حدّقت فيها دون أن يطرفَ لها جَفنٌ، وعيناها الزّرقاوان تشعّان قتامةً وسوداويّةً.

«هيّا بنا، سنذهب في جولة»، قالت لها.

«ماذا؟».

«في هذا الاتجاه: وسط الأشجار. لنتحرّك».

«انتظري... توقّفي». هزّت ماريانا رأسها. «هذه ليست أنت».

«ماذا؟».

«هذه ليست أنتِ، يا زوي. إنه **هو**».

«عمَّ تتحدّثين؟».

«اسمعيني. **أنا أعلم**. لقد عثرت على الرّسالة».

«أيّة رسالة؟».

ردّاً على ذلك، أخرجت ماريانا الرّسالة من جيبها. فتحتها وأرَتها لزوي. «هذه الرّسالة».

لم تنبس زوي ببنت شفة لبرهة، بل حدّقت في ماريانا فحسب، دون أن تبدي أية ردّة فعل. حدّقت فيها بنظرة فارغة.

«هل قرأتِها؟».

«لم يكن قصدي العثورُ عليها. كانت مجرّدَ مصادفة...».

«**هل قرأتِها؟**».

أومأت ماريانا برأسها بالإيجاب، ثم همست: «أجل».

مرّ وميضٌ من الغيظِ في عَينَي زوي. «ليس من حقّكِ فعلُ ذلك!».

حدّقت فيها ماريانا. « أنا لا أفهم، يا زوي. هذا... هذا لا يعني... لا يمكن أن يعني...».

«ماذا؟ لا يمكن أن يعني ماذا؟».

صعب على ماريانا إيجاد الكلمات. «أن لديكِ علاقة بهذه الجرائم... **أنكِ** وهو... على نحوٍ ما، **متورِّطان**...».

«لقد أحبّني. لقد أحبَبنا أحدنا الآخر...».

«لا، يا زوي! الأمر بالغ الأهمية. وأنا أقول ذلك لأنني

أحبك. أنت ضحيّةٌ في هذه القصة. بغضّ النظر عما قد تظنّين، هذا ليسَ حُبّاً. . . ».

حاولت زوي مقاطعتها، لكن ماريانا لم تسمح لها بذلك. واصلت كلامها.

«أعلم أنكِ لا تودّين سماع ذلك. أعلم أنك تظنّين أن الأمر كان رومانسيّاً للغاية، لكن أيّاً كان ما منحكِ إيّاه، فلم يكن حُبّاً. فإدوارد فوشكا غير قادر على الحبّ. إنه معتل، وخطيرٌ. . . ».

«إدوارد فوشكا؟». حدّقت فيها زوي وتعابير الصدمة باديةٌ على وجهها. «أتظنّينَ حقاً أن إدوارد فوشكا مَن كتب الرّسالة؟ وأنني لهذا السّببِ حافظتُ عليها، مخبّأةً في غرفتي؟». هزّت رأسها بازدراءٍ. «لم يكن هو من كتبها».

«من كتبها إذاً؟».

غطّت سحابةٌ الشّمس فجأة، وبدا وكأن الزّمن أخذ يتباطأُ وصولاً إلى زحفٍ متَثاقِلٍ. تناهى إلى سمع ماريانا وَقْعُ قطرات المطر الأولى وهي تتساقط على حافة النافذة الصخرية للبرج، ونعيقُ بومة قادمٍ من مكانٍ بعيدٍ. وفي ذلك الفضاء المعلّق خارج الزّمنِ، أدركت ماريانا شيئاً: كانت تعلم ما كانت زوي على وشك قوله، وربما، على مستوى ما من وعيها، لطالما علمت ذلك.

ثم ظهرت الشّمس من جديد، واستعاد الزّمنُ وتيرته الطّبيعيّة بغتة. كرّرت ماريانا سؤالها. «من كتب الرّسالةِ، يا زوي؟».

حدّقت فيها زوي بعَينَينِ مليئتَين بالدّموع، ثم قالت هامسةً:

«سيباستيان، طبعاً».

الجزء السادس

سمعتُ مِراراً أن الحزنَ
يُكبّلُ الذِّهنَ، يوهِنُهُ.
يملأُه توجّساً، يُفَتِّتُهُ.
فَكِّر في الانتقامِ إذن،
وأوقِف - للأبَدِ - نحيبَهُ.

ــــ ويليام شكسبير، من مسرحية هنري السادس: المشهد 2

1

ظلّت ماريانا وزوي صامتتَين، تحدّق كلٌّ منهما في الأخرى.

كانت السماء تمطر الآن، وكان بإمكان ماريانا سماع صوت المطر المتساقط على الطّين في الخارج، ورؤية قطرات المطر وهي تكسر انعكاس الأشجار المرتجِفة والمتراقِصة على سطح النهر. هي مَن كسر الصمت أخيراً. «أنت تكذبين».

«لا». هزّت زوي رأسها. «أنا لا أكذب. سيباستيان هو مَن كتب الرسّالة. وقد كتبها إليّ».

«هذا ليس صحيحاً. إنه...». استعصى على ماريانا إيجاد الكلمات المناسبة. «سيباستيان... لم يكتب ذلك».

«بالطّبع فعل. استيقظي. أنتِ عمياء، يا ماريانا».

نظرت ماريانا إلى الرّسالة بين يديها. حدّقت فيها، مهيضَة الجناحِ. «أنتِ... وسيباستيان...». عجزت عن إكمال الجملة. رفعت نظرها إلى زوي، في يأس، آملة أن ترأف بها ابنةُ أختِها وتشفق عليها.

لكن زوي لم تشفق إلا على نفسها، فلمعت عيناها وهما تغرورقان بالدّموع.

«لقد أحبَبتُه، يا ماريانا، أحببَتُه...».

«لا، لا...».

«بل هذا صحيحٌ، يا ماريانا. لطالما كنتُ مغرمةً بسيباستيان، منذ بداية ذكرياتي، منذ أن كنتُ طفلةً صغيرةً. وقد أحبَّني **هو** بدوره».

«أرجوك، يا زوي، توقّفي...».

«يجب عليكِ مواجهةُ الأمر الآن. افتحي عينيكِ. لقد كنّا عاشِقَين. كنّا عاشِقَينِ منذ تلك الرحلة إلى اليونان. في عيد ميلادي الخامس عشر في أثينا... أتذكرين؟ لقد أخذَني سيباستيان إلى بستان الزّيتون، بالقرب من المنزل... ومارسنا الحبّ، هناك، فوق الطّين والوحل».

«لا». كان بودّ ماريانا أن تضحك، لكن مزحة ثقيلة كهذه لا تثير الضّحك. مزحة فظيعة. «أنت تكذبين...».

«لا، بل **أنتِ** التي تكذبين... على نفسك، ولهذا السبب أنت مضطربةٌ إلى هذا الحدّ. لأنكِ، في أعماق نفسك، تعلمين الحقيقةَ. كان كلّ ذلك محضَ هراءٍ. إن سيباستيان **لم يحبّكِ** أبداً. لقد كنتُ **أنا** محبوبَتَه، ولطالما كنتُ كذلكَ. وهو لم يتزوّجكِ إلا ليكون قريباً منّي... ومن أجل **المال** طبعاً... كان المالُ مهمّاً بالنسبة إليه... أنت تعلمين ذلك، أليس كذلك؟».

هزّت ماريانا رأسها. «أنا... أنا لن أسمع أيّاً من هذا!».

التفتت ومضَت خارج البرج. وواصلت سيرها.

ثم شرعت في الرّكض.

2

«ماريانا»، ناديتها زوي. «إلى أين أنت ذاهبة؟ لا يمكنكِ الهروب. ليس بعدَ الآن».

تجاهلتها ماريانا، وواصلت جريَها، فمضت زوي في أعقابها.

سُمع دويُّ رعدٍ في السّماء، وما لبثت السّحبُ السوداءُ البعيدةُ أن انشقّت كاشفةً عن برقٍ تفرّع كالعروق في كبد السّماء التي قاربَ لونُها الخُضرَة. ثم انفتحت أبوابُ النّعيم، وبدأت الأمطار تهطل بغزارةٍ، تدكُّ الأرضَ الطينيّة، وتهيّج سطح النّهر.

ركضت ماريانا باتجاه الغابة. كان الجو مظلماً وقاتماً بين الأشجار، وكانت الأرض مبلّلة ولَزِجة، تفوح منها رائحة الرّطوبة، كما كانت الأغصانُ المتشابكةُ مغطّاةً بشباك العناكب، عَلِق في كفنها الأبيض ذبابٌ أزرق وحشراتٌ أخرى، تدلّت فوق رأس ماريانا وهي تجري مذعورةً.

لحقت بها زوي وهي تسخر منها، وصدى صوتها يتردّد بين الأشجار.

«ذاتَ يومٍ، كشف جدّي أمرَنا ونحن في بستان الزّيتون، وهدّد بإخبارك. . . فاضطر سيباستيان أن يقتله. لقد خنَقَه لحظتها بيدَيه

الضّخمَتَين، فترك لكِ جدّي كلَّ تلك الأموال. . .أموالٌ طائلة انبهر بها سيباستيان، فقرّر أن يحصل عليها. لقد أرادها من أجلي، من أجله، **من أجلنا**. لكنك وقفتِ عائقاً. . .».

أعاقت أغصانُ الشجر تقدّمَ ماريانا، إلا أنها واصلت طريقها رغم ذلك، متكبّدةً جروحاً وخُدوشاً على يديها وذراعَيها.

كان بإمكانها سماع خطى زوي على مسافة قريبة خلفها، تشقُّ طريقها عبر الأشجار، هائجةً منتقمةً. ظلّت تتكلّم طوال الوقت.

«قال سيباستيان إنه إذا ما وقع لك مكروهٌ، فسيكون أولَ مَن يُشتبَه فيه. ''إننا بحاجة إلى إلهاءٍ''، قال، ''**شيء أشبه بخدعةٍ سحريَّةٍ**''. أتذكرين الخدع السّحريّة التي كان يقوم بها حين كنتُ طفلةً؟ ''يجب أن نجعلَ الجميعَ ينظرون إلى الشيءِ الخطأ، والمكان الخطأ''. فأخبرتُه عن البروفيسور فوشكا وعن البُتُل، وحينها خطرتْ له الفكرة. قال إنها نمتْ في ذِهنه مثل زهرةٍ جميلةٍ. كانت لديه طريقة شاعريّة في الكلام، أتذكرين؟ لقد عمل على كلّ تفصيلٍ، وكانت خطّتُه جميلةً. بل مثاليةً. لكن بعد ذلك. . . أخذتِه بعيداً، ولم يرجع أبداً. لم يكن سيباستيان راغباً في الذّهاب إلى نيكسوس. أنتِ مَن حمله على الذهاب. وقد مات بسببك. إنه خطؤكِ أنتِ!».

«لا»، همست ماريانا. «هذا ليس عدلاً. . .».

«بلى، هو كذلك»، ردّت زوي بهَسهسة حانقةٍ. «لقد قتلتِه. **وقتلتِني أنا أيضاً**».

خفّت كثافةُ الأشجارِ أمامهما فجأةً، فوجدتا نفسيهما في أرضٍ مفتوحة والمستنقع أمامهما، حوض شاسِع من المياه الخضراء الشّفّافة نبتَت فيه الأعشاب والعليق. وكانت هناك شجرة طريحة

الأرض، منشطرة وتتعفّنُ ببطءٍ، تغطيها طحالبُ خضراء مصفرة، وتحيط بها ضفادع منقطة.

وفاحت في المكان رائحةُ تحلّلٍ غريبةٌ، نَتانَةٌ صادِرةٌ عن شيء فاسدٍ ومتعفّنٍ. . . أكانت رائحةَ الماء الرّاكد؟

أم أنها كانت. . . رائحةَ الموت؟

حدّقت زوي في ماريانا، منقطعةَ الأنفاسِ، والسّكّينُ في يدها. كانت عيناها محمرتين وقد اغرورقتا بالدّموع.

«حين توفّي، كان وقعُ الأمرِ عليَّ أشبهَ بتلقّي طعناتٍ في البطن. لم أكن أعلم ماذا أفعل بكل غضبي، بكل ألمي. . . ثم، ذات يومٍ - فهمتُ - تجلّى لي الأمر. كان عليّ أن أنفّذ خطّة سيباستيان من أجله، تماماً مثلما أراد. كان هذا آخر شيءٍ يمكنني القيام به من أجله. تكريماً له، ولذِكراه، وليتسنّى لي الانتقام».

حدّقت فيها ماريانا بارتيابٍ. بالكاد استطاعت أن تصدر صوتاً. تحدّثت هامسة.

«ما الذي فعلتِه، يا زوي؟».

«ليس **أنا**. بل **سيباستيان**. . . أنا نفّذتُ ما طلبه مني فحسب. كان ذلك عملاً بدافعٍ من الحبّ الخالص. نسختُ الاقتباسات التي اختارها، ووزعتُ البطاقاتِ البريديّة مثلما قال، وسطّرتُ تحت المقاطع في كُتب فوشكا. وخلال إحدى الحصص، تظاهرتُ بالذّهاب إلى الحمّام، ونثرتُ بضع شعراتٍ من رأس تارا في ركن خلفيّ من دولاب ملابس فوشكا. . . ورششتُ شيئاً من دمها هناك أيضاً. لم تجد الشّرطةُ ذلك بعد. لكنّهم سيفعلون قريباً».

«إدوارد فوشكا بريء إذاً؟ وأنتِ من لفّقتِ له التهمة؟».

«لا». هزّت زوي رأسها. «بل أنتِ من لفّقَ له التهمة، يا

ماريانا. قال سيباستيان إن كلَّ ما عليّ فعله هو إقناعك بأنني خائفة من فوشكا. وتولّيتِ أنتِ القيام بالباقي. أتعلمين أمراً؟ لقد كان هذا أمتعَ جزءٍ في هذا العرضِ برمّته: رؤيتكِ تلعبين دورَ المحقّقة».

ابتسمت. «أنتِ لست المحقِّقة في هذه القصّة... بل **الضّحيّة**».

حدّقت ماريانا في عينَي زوي، وقد تجلّت في ذهنها كلُّ قطع الأحجية، وواجهت أخيراً الحقيقة الشّنيعة التي لطالما حاولت تجنّب رؤيتها. فهناك كلمةٌ لهذه اللحظة في التراجيديا اليونانية: Anagnorisis - تجلّي الحقيقة - اللحظةُ التي يرى فيها البطلُ الحقيقةَ أخيراً ويفهم قدره، وكيف أنها كانت هناك طوال الوقت، ماثلةً أمام ناظِرَيه. كانت ماريانا تتساءل عن إحساس المرء في تلك اللحظة. وها هي ذي تعلم الآن.

«لقد قتلتِهن. أولئك الفتيات... كيف أمكنكِ القيام بذلك؟»

«لم يكُنْ للبُتِل أهمية، يا ماريانا. كنّ مجرّد إلهاء، خدعة مضلِّلة، هكذا قال سيباستيان». هزّت كتفيها. «كانت تارا... صعبة المِراس. لكن سيباستيان قال إنها تضحيةٌ لا بدّ منها. وقد كان محقّاً. فقد أراحني الأمر، على نحوٍ ما».

«أراحكِ؟».

«جعلني أرى نفسي بوضوح. أنا أعلم من أكون الآنَ؛ أنا مثل كليتيمنسترا[1]، أو ميديا[2]. مصنوعة من المعدن نفسه».

---

(1) Clytemnestra: زوجة أغاممنون، ملك موكناي، والأخت التوأم لهيلين أو هيلينا، في الميثولوجيا الإغريقية - المترجم.

(2) Medea: شخصية شهيرة من الميثولوجيا الإغريقية ولدى يوربيديس، غالباً ما تم تصويرها كساحرةٍ أو مشعوذة - المترجم.

«لا. لا، أنتِ مخطئِة». أشاحت ماريانا بنظرها إذ لم تعد تتحمّل النّظر إليها، وراحت الدموع تنهمر على خديها. «أنتِ لستِ إلهة، يا زوي. أنتِ وحشةٌ».

«إذا كنتُ كذلك، فسيباستيان هو مَن جعلني على هذا النحو. وكذلك فعلتِ أيضاً».

وشعرت ماريانا بقوةٍ تدفعها من ظهرها فجأةً.

أُلقِيت على الأرض، وسقطت فوقها زوي. حاولت التّملّص، لكنّ زوي ألقت بكل ثِقلها لتثبيتها في الطيّن. كانت الأرضُ باردةً ومبلّلةً، شعرت بها ماريانا على خدّها، ثم سمعت زوي تهمس في أذنها.

«غداً، حين يعثرون على جثّتِك، سأخبر المفتّش بأنني حاولت إيقافك، بأنني توسّلت إليك ألّا تذهبي وحدك لتفتيش البرج، لكنّك أصررتِ. وستخبرهم كلاريسا بقصتي عن البروفسيور فوشكا، فسيفتّشون إقامته وسيجدون الأدلّة التي وضعتُها هناك...».

قامت بقلب ماريانا على ظهرها، وانحنت عليها رافعةً سكّينها. كانت عيناها ذاهلَتين، متوحّشتَين.

«وستُذكَرين كضحية أخرى لإدوارد فوشكا. الضحيّة رقم أربعة. ولن يكتشف أحدٌ حقيقةَ... أنّنا **نحن** من قتلناك: **أنا وسيباستيان**».

رفعت السّكين إلى أعلى... على وشك طعنها...

فاستجمعت ماريانا قوّتها فجأة، ومدّت يدها لتمسك بذراع زوي. تنازعتا لبعض الوقت، قبل أن تلكم ماريانا يد زوي بكلّ ما أوتيت من قوة، ما جعل هذه الأخيرة تفقد السّيطرة على السّكّين...

طارت السّكّين من يدها محدثة أزيزاً واختفت في موضع قريب وسط العشب، فقفزت زوي صارخةً وركضت لتبحث عنها.

وفيما بحثت زوي، تمكنت ماريانا من النهوض، فلاحظت شخصاً ظهر من بين الأشجار.

كان هذا فريد.

كان متجهاً نحوها بسرعة، والقلقُ بادٍ على محياه. لم ينتبه إلى زوي الجاثية على العشب، فحاولت ماريانا تنبيهه. «فريد، توقف. توقف...».

لكن فريد لم يتوقف وسرعانَ ما لحق بها. «هل أنتِ بخير؟ لقد تعقبتكِ... كنتُ قلِقاً، و...».

لمحت ماريانا زوي وهي تنهض من خلفها حاملة السّكّين، فصرخت:

«فريد!!!».

لكن كان الأوان قد فات... كانت زوي قد غرست السّكّين عميقاً في ظهره، فجحظت عيناهُ... وحدّق في ماريانا بذهول.

انهار فريد وسقط أرضاً، ساكناً بلا حراكٍ، فيما بدأت بركةٌ من الدّم تتكوّن حول جسده الصّريع. أخرجت زوي السّكّين ووخزت بها فريد للتحقّق من أنه مات، لكنها لم تبدُ متأكدة من ذلك.

ودون تفكيرٍ، أحكمت ماريانا قبضتها على حجرٍ صلبٍ وباردٍ يغمره الطّين، ثم سحبته وهرولت نحو زوي المنحنية فوق جسد فريد.

وفي اللّحظة التي كانت زوي على وشك طعنه بالسّكّين في صدره... انهالت عليها ماريانا بالحجر على مؤخرة رأسها.

هوت زوي جانباً على أثر الضربة، فانزلقت قدماها في الوحل وهي تسقط، وحطت على صدرها... فوق السّكّين.

رقدت زوي ساكنةً للحظةٍ، فظنّت ماريانا أنها فارقت الحياة.

لكن، بعد ذلك، وفي صرخةٍ أشبه بتأوهِ حيوانٍ، انقلبت زوي على ظهرها واستلقت هناك؛ كائن جريح بعينَينِ ذاهلتَين مرتعِبتَين، ورأت حينها السّكين بارزاً من صدرها. . . فراحت تصرخ بجنون.

لم تتوقّف زوي عن الصراخ، صراخ هستيريّ مِلؤه الالتياع والرّعب: صراخ طِفلةٍ مَذعورةٍ.

لكن، ولأول مرة في حياتها، لم تهرع ماريانا لمساعدة زوي، بل أخرجت هاتفها عوض ذلك، واتصلت بالشّرطة.

ظلّت زوي تصرخ وتصرخ طوال الوقت، إلى أن اختلط في النهاية صراخها مع عويلِ صافراتِ الشرطة وهي تقترب من المكان.

3

نُقِلت زوي في سيّارة إسعاف، بمرافقة شرطيَّين مسلّحَين.

لم تكن تلك المرافقةُ المسلّحةُ لازمةً، إذ عادت زوي لتكون طفلةً من جديد: طفلة صغيرة، مَرعوبة وعزلاء. ومع ذلك، وُجِّهت إليها تهمة محاولة القتل العمد، على أن تليها تُهَمٌ أخرى. **محاولة** القتل فحسب... لأن فريد نجا من الهجوم. نجا بأعجوبة. كانت جروحه بالغة الخطورة وحالته حرجة، فتمّ نقله إلى المستشفى في سيّارة إسعافٍ مستقلةٍ.

كانت ماريانا في حالة صدمةٍ. جلست على مقعد على مقربةٍ من ضفّة النهر، تمسك بكوب شايٍ قويٍّ وحُلوٍ صَبَّهُ لها المفتّش العام سانغا من كظيمته للتّخفيف من صدمتها، وكعربون سلام.

كان المطر قد توقف، وكانت السّماء صافيةً الآن، بعدما أفرغتِ السّحبُ كلَّ ما في بطنها من ماء واستحالت مجرد خصلاتٍ رمادية فاتحةٍ في الضوء الشاحب، كما بدأت الشّمسُ تغرب خلف الأشجار، مزينة السماء بمشحات زهرية وذهبيّة.

وهي جالسة هناك، رفعت ماريانا الكأس الدّافئ إلى شفتَيها، وارتشفتِ الشّاي. حاولت ضابطةُ شرطةٍ مواساتها، مكوِّقةً إياها

بذراعها. . . لكن بالكاد انتبهت إليها ماريانا. كما أنّ بطّانيةً قد وُضعت فوق ركبتَيها. كانت شاردةَ الذّهن، مشوشةَ التّفكير، فيما جال بصرها على النّهر، فرأت البجعة. كانت تعبر النّهر بسلاسة، بسرعةٍ متزايدةٍ.

وفيما راقبت ماريانا البجعةَ، فردت هذه الأخيرة جناحَيها وانطلقت، فتابعتها ماريانا بعينَيها وهي تصعد محلِّقةً نحو السّماء.

انضمّ إليها المفتش سانغا وجلس بجوارها على المقعد. «سيسرّكِ أن تعرفي أنه تم فصلُ فوشكا من منصبه، إذ اتّضح أنه كان يضاجعهنّ جميعهن. واعترف موريس بأنه كان يبتزه: فقد كنتِ محقّةً في هذا الخصوص. ومع شيءٍ من الحظ، سينال كلٌّ منهما ما يستحق من جزاءٍ».

نظر إلى ماريانا ولاحظ أنها لا تتفاعل مع أيٍّ من كلامه. أومأ برأسه إلى الشّاي، وتكلّم بلطف شديد.

«كيف حالك؟ هل تشعرين بتحسّنٍ؟».

نظرت إليه ماريانا ثم هزّت رأسها قليلاً بما مفاده أن حالها لم تتحسّن، بل حتى أنها ازدادت سوءاً. . .

ومع ذلك، شعرت أن شيئاً ما قد اختلف. ماذا يا ترى؟

شعرت أنها يقظة، على نحوٍ ما. أو ربما أن كلمة مستَيقِظة كانت أدق لوصف حالها: بدا كل شيء أوضحَ، كما لو أن ضباباً قد تبدّد، فبدتِ الألوانُ أكثر حدّة، وحوافُّ الأشياء أكثر دقة. لم يعد العالم أبكمَ، رمادياً، بعيداً - خلف حجاب.

كان منعشاً من جديد، مشرقاً، مفعماً بالألوان، مبلّلاً بأمطار الخريف؛ يتذبذب مع دندنة الحياة والموت الأبديّة.

خاتمة

لمدّةٍ طويلةٍ بعد ذلك، ظلّت ماريانا في حالة صدمةٍ.

في المنزل، كانت تنام على الأريكة في الطّابق الأرضي، إذ لم تعد قادرة على النّوم في ذلك السّرير مجدّداً؛ السّرير الذي تشاركته معه: ذلكَ الرّجل. ما عادت تعلم من كان حقاً، رأته الآن كشخصٍ غريبٍ، مُدَّعٍ ساكنته كل هذه السّنين؛ ممثّلٌ شاركها سريرَها، وخطّط لقتلها.

من كان، هذا الشّخصُ المدَّعي؟ ماذا أخفى تحت قناعه الجميل؟ أكان ذلك كلُّه تمثيلاً... كلّه منذ البداية؟

والآن وقد انتهى العرض، كان على ماريانا تحليل الدّور الذي لعبته فيه، ما لم يكن سهلاً على الإطلاق.

حين تغمض عينيها وتحاول تخيّل وجهه، تستعصي عليها رؤيةُ ملامحه بشكل واضحٍ، فقد بدأ يتلاشى مثل ذكرى لحلمٍ بعيدٍ، فترى وجهَ والدها عوضَ وجهه، وعينَي والدها عوضَ عينَي سيباستيان، كما لو أنهما الشّخص نفسه.

ما الذي قالته روث... عن كون والدها محورَ قصّتها؟ لم تفهم ماريانا قصدها حينذاك.

لكنها بدأت تفهم الآن.

هي لم تعد إلى منزل روث منذ تلك الزيارة الأخيرة. ليس بعد. لم تكن جاهزة للبكاء، أو الكلام، أو الإحساس. كانت التّجربة لا تزال طازجةً ومؤلمةً.

كما أنها لم تعد إلى عملها كمعالِجة نفسية متخصصة في العلاج الجماعي. فكيف لها أن تساعد شخصاً آخر، أو تقدّم له النصائح بعد الآن؟

كانت تائهةً.

أما زوي. . . فلم تتعافَ أبداً من نوبةِ الصّراخ الهستيريّ تلكَ. لقد نجت من الطَّعنة، لكن تسبّبت لها هذه الأخيرة بانهيار سيكولوجيّ حادّ. وبعد اعتقالها، حاولت الانتحارَ عدة مرّاتٍ، تلاها انهيار عصبيّ ساحق.

انتهى بها المطاف إلى اعتبارها غير مؤهلةٍ للمُثول أمام المحكمة، فأودِعت في مصحة ذا غروف شديدة الحراسة في شمال لندن، وهي المصحة نفسها التي نصحت بها ماريانا ثيو ليتقدّم بطلب وظيفةٍ فيها.

وقد تبيّن أن ثيو أخذ بنصيحتها، إذ أصبح يعمل في ذا غروف الآن. . . وكانت زوي إحدى مريضاته.

حاول ثيو الاتصال بماريانا عدّة مرّاتٍ نيابة عن زوي، لكن ماريانا رفضت التحدّث إليه، فهي لم تجبه، ولم تُعِد الاتصال به.

كانت تعلم مُبتغى ثيو: كان يريدها أن تتحدّث إلى زوي. هي لم تَلُمه على ذلك. فلو كانت مكانَه، لفعلت الشّيء نفسَه، بما أن أي تواصل إيجابي بين المرأتَين سيكون له أثرٌ محوريٌّ على شفاء زوي.

لكن كان لماريانا شفاؤها لتفكّر فيه.

لم تتقبّل حتى التّفكير في التحدّث إلى زوي مجدّداً، فالفكرة بحدّ ذاتها جعلتها تشعر بالغثيان. فهي ببساطة لم تكن قادرةً على تحمّلِ الأمر.

لم يكن الأمرُ متعلّقاً بالمسامحة، فهي شيء لا تستطيع ماريانا تقريره على أية حال. ولطالما قالت روث إنه لا يمكن إكراه أحدٍ على المسامحة، فهو يحدث على نحوٍ تلقائيٍّ، كنعمة، ويحدث فقط حين يكون المرءُ جاهزاً.

وماريانا لم تكن جاهزةً. ولم تعتقد أنها ستكون جاهزةً يوماً.

لقد شعرت بغضبٍ وألمٍ عارِمَين، بحيث إنها لو رأت زوي مجدّداً، لما علمت ما قد تتفوه به أو تُقدم عليه، فمن المؤكّد أنها لن تكون مسؤولةً عما قد يصدر عنها. لذا كان من الأفضل أن تبقى بعيدة، وتترك زوي لمواجهة مصيرها.

لكنّها قامت بزيارة فريد بضع مرّات في المستشفى. شعرت بمزيج من المسؤولية والامتنان تجاهه. فهو أنقذ حياتها في نهاية المطاف، ولن تنسى ذلك أبداً. كان واهناً في البداية، عاجزاً عن الكلام، إلا أن الابتسامة لم تفارق وجهه طوال وقتِ زيارات ماريانا. جلسا في صمتٍ ودّي، وفكّرت ماريانا كم كان غريباً شعورُها ذاك بالرّاحة والأُلفَة برفقته: هذا الرّجل الذي عرفته بالكاد. كان من المبكر جداً حسم إمكانية تتطور علاقتهما في المستقبل، إلا أنها لم تعد ترى ذلك مستحيلاً.

كان شعورُها بكلِّ ما حولها مختلفاً تماماً في الآونة الأخيرة.

كما لو أن كل شيءٍ عرفته ماريانا أو آمنت به أو وثقت به تداعى وتلاشى. . . تاركاً فراغاً شاغراً. وكانت توجَد وسط ذلك الفراغ، الذي استمر لأسابيع، ثم أشهر. . .

إلى أن تلقّت، ذات يومٍ، رسالةً من ثيو.

طلب ثيو من ماريانا في رسالته أن تعيد النظر في رفضها لقاءَ زوي. كتبَ عن زوي بتبصُّرٍ وتعاطفٍ كبيرَين، قبل أن يوجّه انتباهه إلى ماريانا.

لا يسعني إلا أن أشعر بأن الأمر قد يكون مفيداً لكِ بقدر ما هو مفيد لها؛ وقد يوفّر لكِ نوعاً من الخاتمة. أعلم أن الأمر لن يكون ممتعاً، لكنني أظن أنه قد يساعدك. لا يمكنني تصوّر حتى ما مررتِ به. لقد بدأت زوي تبوح ببعض الأمور، وصُعقتُ بذلكَ العالم السّرّي الذي تشاركَتْه وزوجكِ الراحل. سمعت أشياءَ مفزعةً حقّاً، فلا بد أن أشير هنا، يا ماريانا، أنكِ محظوظةٌ جداً لكونك على قيد الحياة.

وأنهى ثيو رسالته بقوله:

أعلم أن الأمر ليس سهلاً، لكن كل ما أطلبه هو أن تنظري إليها على أنها، على نحوٍ ما، ضحيّة هي الأخرى.

جعلت تلك الجملةُ ماريانا تستشيطُ غضباً، فمزّقت الرسالة ورمتها في سلة المهملات.

لكن حين أوَت إلى فراشها تلك اللّيلةَ وأغمضت عينيها، تجلّى في ذهنها وجهٌ. لم يكن وجهَ سيباستيان، ولا وجهَ والدها، بل وجهَ طفلةٍ صغيرةٍ.

طفلةٌ صغيرةٌ مرعوبةٌ في السّادسة من عمرها.

وجه زوي.

ما الذي حدث لها؟ ماذا فعلوا لتلك الطفلة؟ ما الذي قاسَتْهُ - تحت عينَي ماريانا - في الظّلال، في الأركان القصيّة، خلف الخشبة؟

لقد خذلت ماريانا زوي. لقد فشلت في حمايتها، بل إنها فشلت حتى في **أن ترى**. ولا بد أن تتحمّل مسؤوليتها في ذلك.

كيف استطاعت أن تكون عمياء إلى هذا الحدّ؟ كان عليها أن تعرف. كان عليها أن تفهم. كان عليها أن تواجه الأمر...

وإلا فستفقد صوابها.

لهذا السّبب انتهى بها المطاف، ذات صباح ثلجيٍّ قارس من شهر فبراير، إلى التوجه إلى شمال لندن، إلى مستشفى إدجوير، إلى مصحّة ذا غروف، حيث كان ثيو في انتظارها عند مكتب الاستقبال. حيّاها بحرارة حين وصلت.

«لم أظن أنني سأراكِ هنا يوماً. إنه لمضحكٌ كيف تسير الأمور».

«أجل، أفترض إنه كذلك بالفعل».

قادها ثيو عبر نقطة التّفتيش ومروراً بأروقة الجناح الخربة. وهما يمشيان، حذّرها ثيو من أن زوي ستكون مختلفةً تماماً عن آخر مرّةٍ رأتها فيها.

«إن حالتها متدهورةٌ جداً، يا ماريانا. ستجدين أنها تغيّرت كثيراً. فمن الأفضل تحضير نفسكِ لذلك».

«فهمت».

«أنا ممتن جداً لقدومك. سيساعدها ذلكَ كثيراً. إنها تتحدّث عنك وتطلب رؤيتك باستمرارٍ».

لم تردّ ماريانا. رمقها ثيو بنظرةٍ جانبيةٍ.

«اسمعي، أعلم أن هذا لا يمكن أن يكون سهلاً عليكِ، كما أنني لا أتوقع، بأي حالٍ من الأحوال، أن تشعري بأيٍّ ودٍّ تجاهها».

أنا لا أفعل، فكّرت ماريانا.

بدا وكأن ثيو قرأ أفكارها. أومأ برأسه. «أتفهّم ذلك. أعلم أنها حاولت إيذاءك».

«بل حاولت **قتلي**، يا ثيو».

«لا أعتقد أن الأمر بهذه البساطة، يا ماريانا». تردّد ثيو. «كان **هو** من حاول قتلك. هي تصرّفت بالوكالة فحسب: كانت دميتَه. كانت واقعةً تحت سيطرته تماماً. وكان هذا جزءاً منها فحسب، ففي جزءٍ آخر من ذهنها، هي لا تزال تحبّكِ، وبحاجةٍ إليك».

ازداد شعورها بالقلق. كان قدومُها إلى هنا غلطةً، فهي لم تكن مستعدّةً لرؤية زوي. لم تكن مستعدةً لما ستشعر به جرّاء هذا اللقاء، ولما قد تقوله، أو تفعله.

عند وصولهما إلى مكتبه، أومأ ثيو برأسه نحو باب آخر في نهاية الرواق.

«إن زوي في غرفة التّرفيه، عبر ذلك الباب. إنها لا تميل للتفاعل مع الآخرين، لكننا نجعلها تنضم إليهم في فترات الفراغ».

ألقى نظرة إلى ساعته وعبس. «أنا آسف. لديّ مريضةٌ أخرى عليّ رؤيتها أولاً، ثم سأُسهِّل لقاءكِ مع زوي».

وقبل أن يتسنى لماريانا الرد، أشار ثيو إلى مقعد خشبي طويل بمحاذاة الجدار خارج مكتبه. «ألا تفضلتِ في الجلوس؟».

أومأت ماريانا برأسها. «شكراً لك».

فتح ثيو باب مكتبه، ومن خلال الباب الموارب، لمحت ماريانا امرأةً جميلةً صهباءَ تنتظر في الداخل، تحدّق في السّماء الرّماديّة في الخارج عبر النافذة المسيّجة. التفتت ونظرت إلى ثيو بعينَينِ واهنتَين وهو يلج الغرفة ويغلق الباب خلفه.

نظرت ماريانا إلى المقعد لكنها لم تجلس، بل واصلت سيرها عوض ذلك إلى أن بلغت الباب عند نهاية الرواق.

وقفت أمامه، متردِّدة.

ثم مدّت يدها، أدارت المقبَض. . .

ودخلت الغرفة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ألكس ميكايليديس

البُتُل

«في نهاية المطاف، يحق لكل شخص أن يكون بطل قصته. لذا يجب أن يُسمَح لي أن أكون بطل قصتي. إلّا أنني لستُ كذلك. أنا الشرير».

تعود ماريانا، المعالجة النفسية المتخصصة في العلاج الجماعي، إلى حرم جامعة كامبريدج الخلاب حيث تخرّجت، بعد اتصال من ابنة أختها زوي تناشدها فيه وتخبرها عن مقتل صديقتها المقرّبة تارا. وسرعان ما تقتنع ماريانا أن القاتل هو البروفيسور إدوارد فوشكا، أستاذ التراجيديا الإغريقية الوسيم ذو الشعبية العارمة، المحبوب من طلابه، وخاصة مجموعة سريّة من الطالبات تُدعى البُتُل، وذلك رغم توفّره على حجة غياب قاطعة.

وبدافع قلقها على سلامة زوي، تقحم ماريانا نفسها في التحقيقات التي سرعان ما ستتعقّد خيوطها إثر العثور على جثّة فتاةٍ أخرى.

وفي خضم هذا اللغز الذي يجمع بين الطقوس الإغريقية القديمة، وعلم النفس الحديث، وجرائم قتل مروّعة، تعقد ماريانا العزم على كشف القاتل، مهما كان الثمن، حتى ولو كلّفها ذلك حياتها.

«ها هو مؤلِّف رواية **المريضة الصامتة** التي نالت إعجاب النقاد قد عزّز مكانته بشكلٍ دائمٍ كأحد أبرز الروائيين المعاصرين من خلال هذا العمل الجديد، وهو مزيج بارعٌ من الأساطير الإغريقية والحبكة المتقنة... إنه عمل مقدّر له أن يجد مكانه على قائمة أكثر الكتب مبيعاً».

مجلة نيوزويك

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com
ISBN 978-9920-657-79-2
9 789920 657792

مكتبة
t.me/soramnqraa